مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة

العدد العاشر - مايو 2024 م

ابنُ سِنَانٍ الخَفَاجيُّ: وكتابُه «سِرُّ الفَصَاحَةِ»

المَنحى الجَمالي في ديوان مُحمّد بن الطّلبَة

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ في وَسائِلِ الاتِّصالِ الحَديثَةِ

من المعجم التاريخي للغة العربية: تحليل مضمون الخطاب في دلالة مدخل (بَسَط)



مقر مجلس اللّسان العربي بنواكشوط

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ
ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

[فصلت ٤٤]

صدق الله العظيم

مجلسُ اللسانِ العَربيّ بصمةٌ شارقيّة

هاهِيَ مجلَّة مجمع اللُّغَةِ العربيَّة بالشَّارِقة، تُطِلُّ عليكم مُجَدَّدًا، حاملةً في جُعْبَتِها جُملةً من المقالات والأخبار من شَتّى فروع العربيَّة وبساتينها الغنّاء، وقد سَعَتْ على مَدارِ سَنَواتِها إلى التَّمكينِ للعربيَّة، وترسيخِ دعائمِها، ففَتَحَتِ المجالَ أمامَ الباحثين والأُدباء والمُهْتَمّين للإفادة والاستِفادَة، وكانَتْ لَهُم منارةً يُهْتَدى بها، ومِنْبَرًا يُطِلّونَ منه على جمهور القُرّاء على اختلافِ مشارِبِهِم واهتِماماتهم.

تُطالعونَ في العَدَدِ العاشِرِ من مَجَلَّة مَجمَعِ اللُّغَةِ العربيَّة بالشّارِقَة جُمْلَةً مِنْ أَخْبارِ المَجامِعِ في العالَمِ العربيّ، وقد خَصَّصنا ملف العدد لتَعريفِ القارئِ الكريم بمجلِسِ اللّسانِ العربيِّ في موريتانيا، الذّي يُعَدُّ مَعْلَمًا بارِزًا من صُروحِ العربيَّة الشّامخة، حيثُ نُطِلُّ على قِصَّة تأسيسه وأَبرَزِ إسْهاماتِه ولِجانِهِ العلميَّةِ وعُلَمائِهِ الأَجِلاء. كما نَجِدُ عددًا مِنْ أخْبارِ مجمَعِ اللُّغَةِ العربيَّة ونشاطاتِه المُتَنَوِّعَة وفي مُفْتَتِحِها استِضافةُ المَجمَعِ للوَفْدِ الطُّلّابيّ النّمساويّ في دورة تعليميَّةٍ مُكَثَّفَة.

وفي باب البيانِ القُرآنيّ حَظيَ هذا العَدَدُ بِمَقالاتٍ رَصينَة كان مِنْها ما تحدَّثَ فيه الكاتب علاء يونس فرج عن الأبعاد الدلاليَّة للعُدولِ عن المُطابَقَةِ بينَ الضَّميرِ ومرجِعيَّتِه في القُرآنِ الكريم، ومقال عن التَّقارض الصَّرفيّ وبلاغته في اسم المفعولِ.

وفي باب اللّغَويَّات حَفِلَ العَدَدُ بِجُملَةٍ من المقالاتِ المتنوّعة منها: النحو والمجاز رؤية نقدية للدكتورة خلود النازل، وقد تناولت فيه علم النَّحوِ من منظور إبداعيّ لا قواعديّ، كما ناقَشَ الأستاذ الدكتور فايز صبحي تركي قضية المنادى المخصَّص وانفصال الشَّيئَين لفظًا ومعنًى، بينَما قدَّم الدّكتور محمّد حرّاث إِطْلالَةً على اللّسانيّات الإشهارية، انطلاقًا من عَدِّ الإشهار خِطابًا لُغَويًّا من الدّرجة الأولى تَرومُ اللّسانيّات فَهْمَه ودِراسَتَه.

وفي مَيدانِ المُعْجَمِيَّات نَجِدُ عَدَدًا من المَقالاتِ المُخْتَصَّة بقضايا المعجم منها: تَحليلُ مَضْمونِ الخِطابِ في دلالَةِ مَدْخَل (بَسَطَ) من المُعجَمِ التّاريخيّ لِلُّغَةِ العربيَّة، للأُستاذ الدّكتور بَكري محمّد الحاج، رئيس مجمَعِ اللُّغَةِ العربيَّة بالخرطوم، كما ناقَشَ الكاتِبُ المَغربيُّ عماد الفزازي الأبعادَ التَّعليميَّةَ للمُعْجَم التّاريخيّ لِلُّغَةِ العربيَّة، بينما أَطَلَّ علينا الدكتور عبد الحليم عبد الله بِجُمْلَةٍ من التَّحقيقاتِ في المُعْجَمِ العربيّ مع الجذر (رَ عَ ضَ).

وفي بابِ (كُتُب ودِراسات) يُطالِعُ القارئُ الكَريمُ مقالاً عن ابْنِ سِنان الخَفاجيّ وكتابِه (سِرّ الفصاحة) حيثُ تُعَرِّفُنا الدّكتورة حَنين مَعالي بِمؤلِّفِ الكتاب، وأبوابِه وفصوله، وتُبْرِزُ عَدَدًا من القَضايا النَّقديَّةِ الوارِدَةِ فيه.

وَفي مَيدان أعلام العربيَّة نَجِدُ مجموعةً من الدّراسات القيّمة حول شخصيّات بارزة في اللُّغَة، مثل الشّاعر المخضرم (الحُطَيئة) في مقال الكاتب حاتم السروي بعنوان: الوَجْه الآخَر لأهجى شُعَراء العرب (الحُطَيئة)، كما يَصْحَبُنا الكاتب المصريّ أيمن عبد السَّميع حسن في رحلة مع العلاّمة الأُستاذ محمود محمّد شاكر نتعرَّف خلالَها على نَشأةِ هذا العالِمِ الجَليل وأبرز مراحل تكوينه، وجانب من مؤلَّفاته القيّمة، وتحقيقاته لِكُتُبِ التُّراث.

وفي مَيدانِ الأَدَبِ والنَّقْدِ نَجِدُ عددًا من الدّراسات والمقالات الأدبيَّة والنَّقديَّة الماتعة، منها ما يُحاوِلُ فيه النّاقِدُ المَغْرِبيُّ رشيد الخديري الإجابةَ عن تساؤلٍ جوهريّ هو: ما تأثيرُ لِسانيّات دي سوسير في النَّقْدِ الأَدَبيِّ؟

هذا، بالإضافةِ إلى عَدَدٍ مِنَ المقالاتِ العِلْميَّةِ الرَّصينَة، والطَّرائفِ اللُّغَويَّة الجامِعَة بين الفائدة والتَّسْلِيَة، والتَّعريف بفائز جديد من فائزي جائزَةِ الشّارقة للدّراسات اللُّغويَّةِ والمُعْجَمِيَّةِ في دَوْرَتِها الثّالِثَة، واللُّغَة العربيَّة والأدب الرَّقميّ. وسَتَظَلُّ مجلَّة مَجْمَعِ اللُّغَةِ العربيَّة بالشّارِقَة تَرْفِدُ قُرّاءَها ومُحِبّيها بما يُنَمّي حَصيلَتَهم اللُّغويَّة، ويُبْقيهم على اطّلاعٍ بقضايا لُغَتِهم، فَتَكونُ لَهُم حلقَةَ وَصْلٍ بين ماضيها المُغْدِق، وحاضِرِها المُشْرِق. واللهُ المُوَفِّقُ لِكُلِّ خَيْر.

هيئة التّحرير

مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلّة أدبيّة لغـويـة تـصدر عن

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السّنة الثّانية – العدد العاشر – مايو 2024 م

مجلّة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

المراسلات

هاتف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 401 60 51 6 971+

ص.ب : الشارقة ، 1973

shj_ala www.alashj.ae

Sharjah.ala info@alashj.ae

مجمع اللغة العربية بالشارقة

امسح الرمز

لزيارة موقع مجمع اللغة العربيةبالشارقة

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني

Magazine@alashj.ae



مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة



في إطار جهوده لنشر اللغة العربية عالمياً، استقبل مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة وفدًا أكاديميًا وطلابيًا برئاسة الدكتور فيليب هامربورغ رئيس مؤسسة هامربورغ شتال في النمسا، وضم الوفد 15 طالباً نمساوياً وأربعة أكاديميين متخصصين ..



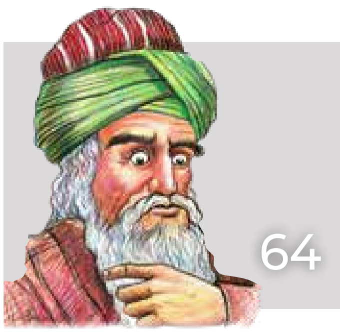
بتدشين مقرِّ مجلس اللّسان العربيّ في موريتانيا، تنضاف معلمة أخرى إلى معلماتٍ كثيرةٍ يغتني بها سجلّ عطاءٍ قاسميٍّ حافلٍ بخدمة اللّغة العربيّة وآدابها وثقافتها؛ سجلٌ تشرق به الشّارقة في مغرب الوطن العربيّ كما في مشرقه...

المحتويات



30

الإضمار علـى شـريطة التفسير في القــرآن الكـريم



64

عَواطِفُنَا وأَحَاسِيسُنَا في المِيزَانِ

لكلِّ شيءٍ ميزانٌ في اللغةِ؛ والكلام العربيُّ، نظمًا ونثرًا، يَحتكمُ إلى مَناطاتٍ تَوْزينيّةٍ مُختلفة تُشكّلُ سببًا لجماليته وحسن تقبّله؛ فللحُروفِ ميزانٌ صوتيٌّ يَدرأُ عنها التَّكلُّفَ والاستثقالَ...



68

السّبيلُ إلى صناعة مَلَكَةٍ لُغويّةٍ مُبينة

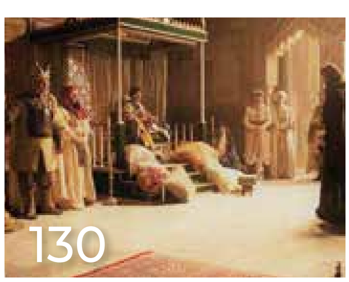
اللّغة لدى كل قوم، وفي كل مجتمع إنساني وسيلةُ التّواصل وأداة التفاهم وهي محل عناية الدّارسين وموضع تأمّل الباحثين على تعاقب العصور وتتابع الدهور...



92

تَحْقيقَاتٌ في المُعْجَمِ العَرَبيِّ

كنتُ أبحثُ في مُعجم لسانِ العربِ لشأنِ بحثٍ أكاديميٍّ، وساقني القدرُ إلى حديث أبي ذرّ رضي الله عنه: «خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَضَ»، ولفتَ انتباهي أنَّ الجذرَ اللّغويَّ (رع ض) غيرُ موجودٍ...



130

نَبْرَةُ الاسْتِعْلاءِ عَلى النَّكْبَةِ في شِعْرِ عَلِيِّ بْنِ الجَهْمِ

ذاقَ عَليُّ بْنُ الجَهْمِ مَرارَةَ السَّجْنِ مَرَّتَيْنِ، وقَدْ مَثَّلَتْ أشْعارُهُ في الحَبْسِ نَموذَجَيْنِ فَنِّيَّيْنِ مُخْتَلفَيْنِ، فَقَدْ رَسَمَتْ قَصائدُهُ خَطًّا بَيانيًا واضِحًا لِنَفسيّتِهِ مُنْذُ بدايَةِ دُخولِه السِّجْنِ وحَتّى وَفاتِهِ...

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

مجمع اللغة العربية بالشارقة في الصّحف

في مقرّه الجديد الّذي افتتح بمكرمة صاحب السّمو حاكم الشّارقة

مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا يناقش سبل تنسيق العمل وبناء الشراكات في خدمة اللّغة العربيّة

الشارقة-الفجر

في إطار جهوده لتعزيز اللغة العربية والحفاظ على هويتها وثقافتها، استضاف مجلس اللسان العربي بموريتانيا، الذي افتتح بمكرمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، ندوة بعنوان: "تنسيق العمل وبناء الشراكات في خدمة اللسان العربي"، بمشاركة 20 جهة من الهيئات والمؤسسات والجمعيات التي تعمل على دعم وتطوير اللغة العربية في موريتانيا والعالم العربي، وتناولت الندوة موضوعات متعددة تتعلق بالتحديات والفرص التي تواجه اللغة العربية، والمشاريع والبرامج والأنشطة التي تقوم بها الهيئات المشاركة في الندوة لتعزيز مكانة اللغة العربية وتنمية قدرات متحدثيها ومتعلميها، ... الخبرات والمعارف والمقترحات بين المشاركين، ومناقشة أفضل الممارسات المتبعة لإثراء أساليب تعليم اللغة العربية، وابتكار البرامج والأدوات التي تساهم في تيسير تعلمها وتعليمها بما يتلاءم مع التطورات التقنية والمعرفية المتقدمة.

وناقشت الندوة الطرق والوسائل المناسبة لتحسين التواصل والتفاعل والتعاون بين الهيئات العاملة في مجال اللغة العربية، والتي تضم أعضاء منضوية في "منصة اللغة العربية"، التي تضم العديد من الهيئات من أجل تمكين اللغة العربية، وتهدف إلى تنسيق الجهود والمشاريع المشتركة بين الهيئات المختلفة في خدمة اللسان العربي، إذ جاءت الندوة بهدف استعراض وتحليل الإنجازات والمبادرات التي تم تنفيذها خلال "شهر اللغة العربية"، الذي يوافق شهر ديسمبر من كل عام، يشار إلى أن المقر الجديد لمجلس اللسان العربي تم افتتاحه في العاصمة الموريتانية نواكشوط بمكرمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة، وبرعاية فخامة الرئيس محمد ولد الشيخ الغزواني، رئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية، ويضم المجلس نخبة من العلماء ويتولى مهمة النهوض بلغة الضاد في موريتانيا وخارجها.





«مجلّة مجمع اللّغة العربيّة» تضيء على الاستدامة اللّغويّة

الشارقة (الاتحاد)

وسلطت «مجلة مجمع اللغة العربية» بالشارقة في عددها الثامن موضوعات متنوعة تتعلق باللغة العربية وآدابها وتحدياتها، مؤكدة مكانة الشعر في الثقافة العربية والإسلامية، وأهمية البلاغة والإيجاز في النظم الشعري، كما أضاءت المجلة على أهمية الاستدامة اللغوية كمفهوم يهدف إلى حماية اللغة العربية والحفاظ على هويتها وسلامتها وتنوعها.



أبرزت إطلاق 31 مجلّداً جديداً من «المعجم التاريخي» تغطي 6 أحرف

الملف

المعجم التاريخي للعربية..



مناقشة تطوير مهارات المعلمين

الشارقة - «الخليج»





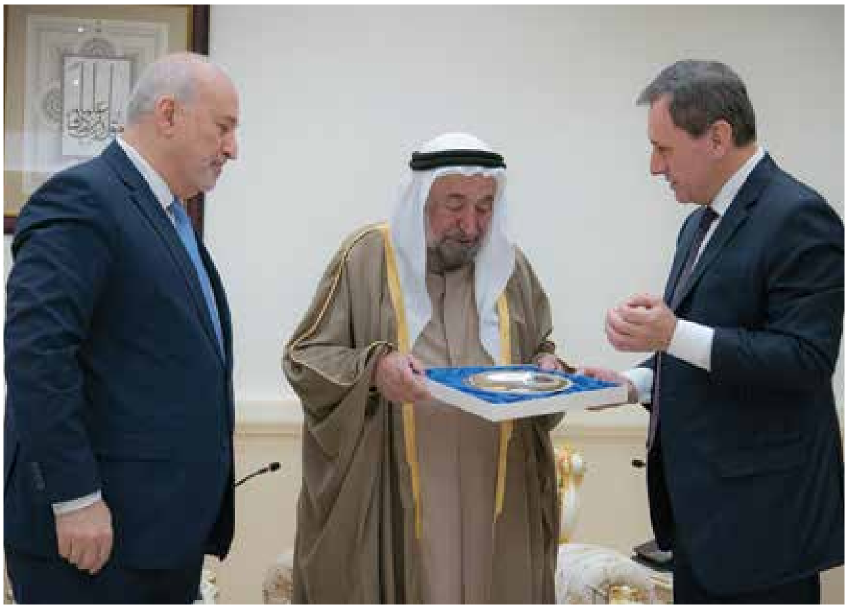
أخبار المجامع

- «مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة» يستضيف وفدًا أكاديميًا وطلّابيًا من النمسا في برنامج تعليميّ ثقافيّ مكثّف

- الشّارقة تجمع علماء العربيّة في نواكشوط تحضيراً لإطلاق «المعجم العربيّ الإفريقيّ»

«مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة» يستضيف وفدًا أكاديميًّا وطلّابيًّا من النمسا في برنامج تعليميّ ثقافيّ مكثّف

في إطار جهوده لنشر اللغة العربية عالمياً، استقبل مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة وفدًا أكاديميًا وطلابيًا برئاسة الدكتور فيليب هامربورغ رئيس مؤسسة هامربورغ شتال في النمسا، وضم الوفد 15 طالباً نمساوياً وأربعة أكاديميين متخصصين باللغة العربيّة والدّراسات الشرقيّة، في زيارة تعليميّة وثقافيّة استمرت عشرة أيام خلال الفترة من 11 إلى 20 فبراير 2024، إذ كان في استقبالهم الدكتور امحمد صافي المستغانميّ، الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وعدد من أعضاء الهيئة العلميّة والإداريّة.



رئيس الوفد النّمساوي في حديث مع صاحب السّمو حاكم الشارقة

أصبح مجمع اللغة العربية بالشارقة وجهة لدارسي اللّغة العربيّة والمؤسسات الأكاديميّة العالميّة، للتّعلم والتّعمّق في الفروع المعرفيّة وعلوم اللّسان العربيّ

وجهة عالميّة لدراسة اللغة والثّقافة العربيّة

وحول زيارة الوفد للشارقة، قال الدكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة: «يشهد التّعاون بين مجمع اللغة العربية بالشارقة ومؤسسة هامربورغ شتال النمساويّة تطوّراً مستمراً منذ انطلاقة (مؤتمر الشّارقة الأول لدراسات اللّغة العربيّة في أوروبا) الذي نظمه المجمع نهاية العام المنصرم، وتناول خلاله واقع اللّغة العربيّة في أوروبا ودورها في التّواصل الثّقافي بين الشّرق والغرب، حيث أصبح المجمع وجهة لدارسي اللّغة العربيّة والمؤسسات الأكاديميّة العالميّة، للتّعلم والتّعمّق في الفروع المعرفيّة وعلوم اللّسان العربيّ، والاستفادة من البرامج والأنشطة التي يقدّمها المجمع، والتّعرّف على الثّقافة والحضارة الإماراتيّة، وزيارة المعالم السّياحيّة والتّاريخية في الشّارقة».

بيئة داعمة للنّاطقين بغير اللّغة العربيّة

تأتي الزّيارة في إطار التّعاون العلميّ والثقافيّ بين المجمع و«مؤسسة هامربورغ شتال» النّمساويّة، لتوفير بيئة داعمة للطّلاب الناطقين بغير اللّغة العربيّة، وتمكّينهم من تعزيز مهاراتهم في التّواصل اللّغويّ من خلال الحوار والمحادثة، ضمن مسارين؛ الأوّل علميّ مع الأساتذة خلال الدّروس التّعليميّة، والثّاني ثقافيّ وترفيهيّ مع المرافقين من الناطقين باللّغة العربيّة خلال الجولات التي يتضمّنها برنامج الزّيارة.

واستهلّ الوفد الطلابيّ النّمساويّ برنامجه بزيارة «مجمع اللّغة العربيّة» حيث اطلع على مكتبته وجميع مرافقه العلميّة، وتعرّف على الصّفوف الدّراسيّة المجهّزة بأحدث الأدوات والوسائل التّعليميّة، وتعرف أيضًا على جهود المجمع في إنتاج المعجم التّاريخيّ للغة العربيّة ، تلتها زيارة إلى «مجمع القرآن الكريم بالشارقة» حيث تجوّل الوفد في مرافقه ومتاحفه السّبعة، ومركز البحوث والدّراسات الإسلاميّة الّذي يحتضنه، كما اطّلعوا على عدد من المخطوطات النّادرة، تلتها زيارة إلى «مسجد النّور».



من زيارة الوفد لمجمع اللغة العربية بالشارقة

مسار الدّروس العلميّة

ويتضمّن البرنامج توزيع الطّلاب على مجموعتين؛ الأولــى للمستوى المبتدئ، والثّانية للمستوى المتوسّط، في درسين منفصلين يوميًّا؛ الأوّل من السّاعة التّاسعة والنّصف حتّى الحادية عشرة صباحًا، والثّاني من الحادية عشرة والنّصف حتّى الواحدة ظهراً لكلٍّ منهما.

ويركّز المستوى المبتدئ على تعليم المشاركين في المجموعة الأولى ضبط مخارج الحروف العربيّة، وإمدادهم بمجموعة واسعة من المفردات والقواعد النّحويّة بهدف دعم حصيلتهم اللّغويّة واستخدامها عمليًّا أثناء الحصص الدراسيّة، في حين يدعم المستوى المتوسّط مهارات المشاركين في المجموعة الثانيّة في التّواصل اللّغويّ، من خلال تدريبهم على النّطق السّليم أثناء المحادثة والحوار، ونصوص القراءة والاستماع الّتي ستثري مفرداتهم وتنمّي مهاراتهم في التّحدث والكتابة،



صورة جماعية للوفد النمساوي مع صاحب السمو حاكم الشارقة

بالإضافة إلى مناقشة جملة من الموضوعات عن الثّقافة العربيّة والإماراتيّة.

مسار الجولات الثقافيّة

ولترسيخ المفاهيم والجوانب التي يناقشها الطّلاب في الدّروس العلميّة، يتضمّن البرنامج مجموعة من الزّيارات الثّقافيّة الصّباحيّة والمسائيّة إلى عدد من الوجهات والمعالم الأكاديميّة والثقافيّة في إمارة الشّارقة، أبرزها «دارة الدّكتور سلطان» و«القصباء»، و«الجامعة القاسميّة» و«السّوق المركزيّ»، و«أكاديميّة الشّارقة للفنون الأدائيّة» و«بيت الحكمة»، و«جامعة الشّارقة» و«مركز الزّاهية».

وانطلاقًا من إيمان المجمع بالطّرائق والوسائل التعليميّة الحديثة الّتي تؤكّد على أهميّة التّعليم من خلال التّرفيه، اشتمل البرنامج اصطحاب الطلبة النّمساويّين في رحلة إلى خورفكان، ورحلة سفاري قبل متابعة باقي الزّيارات إلى «مسجد الشّارقة»، ليختتم البرنامج مسار الجولات بزيارة إلى «أكاديميّة البحوث» و«جزيرة النّور».

وأشاد الوفد بالجهود التي يبذلها المجمع للحفاظ على اللغة العربيّة وتمكين النّاطقين بغيرها ونشرها، وبالفرص التي يوفّرها للمتعلّمين من مختلف الجنسيّات، معربًا عن رغبته في مواصلة التّعاون مع المجمع مستقبلاً، وتوسيع نطاق البرامج والأنشطة التي تهدف إلى تعليم اللّغة العربيّة وتعريف العالم بثقافتها وتاريخها وحضارتها.



زيارة الوفد للجامعة القاسمية



جولة في بيت الحكمة



جولة في أكاديمية الشارقة للفنون الأدائية



جولة في جامعة الشارقة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية



الوفد النمساوي خلال رحلة إلى خورفكان



خلال جولة في في السوق المركزي



الوفد النمساوي يتجول في الجادّة

انطباعات طلّاب الوفد



دنيا

«أسعد لحظات حياتي قضيتها هنا في الشّارقة، تعلّمت الكثير، وشعرت بالفخر والسرور بهذا البلد العربي، أودّ أن أشكر الشيخ الدكتور سلطان القاسمي وجميع الفريق في مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة... بارك الله فيكم وفي إمارة الشّارقة».



ستانلي

«أريد أن أشكركم على هذه الدّروس الرّائعة والممتعة والكلمات الجديدة والمفيدة جدًا في الحياة اليوميّة، أشكركم أيضًا لأنني اكتشفت العربيّة الفصحى من جديد وأنا سعيد بهذه التّجربة» .



فيليب

«أشكركم جميعًا على هذه الرّحلة الرّائعة تعلّمت الكثير من المفردات الجديدة وتذكّرت المفردات التي كنت قد نسيتها من جديد، وبالإضافة إلى ذلك كانت لدي الفرصة لأتكلّم بالفصحى وذلك بشكل ممتع جدًا».



أنتونيلا

«بفضل هذه الرّحلة أُتيحت لي الفرصة لتعزيز معرفتي باللغة العربيّة وزيارة إمارة الشّارقة والتّعرّف على أهلها الطّيبين».

تحت رعاية سلطان القاسمي

الشّارقة تجمع علماء العربيّة في نواكشوط تحضيراً لإطلاق «المعجم العربيّ الإفريقيّ»



مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا

د.امحمد المستغانمي:

في ظلّ التّطوّرات المعاصرة، تبرز الحاجة الماسّة للنّظر في جذور لغتنا العربيّة وتأثيرها العميق على اللّغات العالميّة؛ لهذا يعدّ مشروع (المعجم العربيّ الإفريقيّ) الذي نؤسّس له اليوم، خطوة مهمّة في هذا السّياق

برعاية كريمة من صاحب السّموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، رئيس مجمع اللّغة العربية بالشّارقة، نظّم مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، مؤخّراً، في العاصمة الموريتانيّة نواكشوط، النّدوة التّحضيريّة لإطلاق مشروع «المعجم العربيّ الإفريقيّ»، بمشاركة خبراء ومتخصّصين في صناعة المعاجم اللّغويّة، بهدف اكتشاف وتأصيل العلاقة بين اللّغة العربيّة واللّغات الإفريقيّة، التي بقي أكثرها حتى وقت قريب يستخدم الحرف العربيّ في كتابة النّصوص.

وتحدّث في النّدوة كلٌّ من الدكتور الخليل النحوي، رئيس مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا، والدكتور عبد الله محمد عبد المالك، الأستاذ بالمعهد العالي للدّراسات والبحوث الإسلاميّة، وأبو بكر الحاج محمود با، رئيس مجلس إدارة معهد ترقية وتدريس اللّغات الوطنيّة، والدكتور آبو آمادو با، أستاذ التّاريخ بجامعة نواكشوط.

مصدر إلهام وتواصل بين حضارات العالم

وفي حديثه حول النّدوة، قال الدكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العامّ لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة: «في ظلّ التّطوّرات المعاصرة، تبرز الحاجة الماسّة

للنّظر في جذور لغتنا العربيّة وتأثيرها العميق على اللّغات العالميّة؛ لهذا يعدّ مشروع (المعجم العربيّ الإفريقيّ) الذي نؤسّس له اليوم، خطوة مهمّة في هذا السّياق، حيث يكشف عن الرّوابط الوثيقة بين العربيّة واللّغات الإفريقيّة، ويؤكّد أنّ العربيّة لم تكن يومًا لغة محصورة في حدود جغرافيّة، بل كانت ولا تزال مصدر إلهام وتواصل بين حضارات العالم».

وأضاف: «يأتي اهتمام صاحب السّموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، باللّغة العربيّة ليعكس رؤية ثاقبة لأهمية اللّغة كركيزة أساسيّة في الحضارة الإنسانيّة؛ فهي بتاريخها العريق وتأثيرها البالغ، ساهمت في تشكيل الهُويّة الثّقافيّة للشّعوب الإفريقيّة، وما زالت تلعب دورًا محوريًّا في تعزيز التّواصل الحضاريّ بين الأمم، ومن هنا فإنّ النّدوة تؤسّس لا لمجرد مرجع لغويّ يضمّ كلماتٍ ومصطلحاتٍ، بل لجسر معرفيّ يربط بين الحضارات، ويعدّ خارطة تنير دروب المؤرّخين واللّغويّين والأنثروبولوجيّين، ويعزّز فهمنا للتّفاعلات الثّقافيّة والحضاريّة التي شكّلت عالمنا».

بحث تنظيم المادّة المعجميّة

وتبادل المشاركون في النّدوة التّحضيريّة لمشروع «المعجم العربيّ الإفريقيّ» وجهات النّظر حول أفضل السّبل لتنظيم المادّة المعجميّة، حيث تم طرح عدّة آليّات مثل التّرتيب حسب الحقول الدّلاليّة أو الأبجديّة، وكذلك اعتماد معجم الألفاظ. وعكست النّقاشات الجهود المبذولة لتعميق الصّلة بين اللّغة العربيّة واللّغات الإفريقيّة، مستفيدين من تجارب معجميّة متنوّعة وغنيّة.

وفي سياق متّصل، تناول المتحدّثون تجربة تدريس اللّغات الإفريقيّة في المناهج التّعليميّة الموريتانيّة، مشيرين إلى أهمّيّة هذه الخطوة في تكوين جيل جديد من مزدوجي اللّغات الذين يسهمون في إثـراء البحوث والدّراسات المتعلّقة بالعلاقة بين اللّغة العربيّة واللّغات الإفريقيّة.

كما بدأ مجلس اللّسان العربيّ في موريتانيا بتطبيق توصيات مؤتمر اللّغة العربية، الذي تم تنظيمه أخيراً في غامبيا، وكشف عن تراث إفريقيّ ثريّ، استخدم خلاله الأفارقة الحرف العربيّ في التّأليف والتّوثيق والمراسلات، على مدى قرون من الزّمن.





من النّدوة التّحضيريّة لإطلاق مشروع «المعجم العربيّ الإفريقيّ» في نواكشوط

مجلسُ اللّسانِ العَرَبيّ بموريتانيا ...
رَوْنقُ المَبْنى وأَلَقُ المَعْنى

بتدشين مقرِّ مجلس اللّسان العربيّ في موريتانيا، تنضاف معلمة أخرى إلى معلماتٍ كثيرةٍ يغتني بها سجلّ عطاءٍ قاسميٍّ حافلٍ بخدمة اللّغة العربيّة وآدابها وثقافتها؛ سجلٌّ تشرق به الشّارقة في مغرب الوطن العربيّ كما في مشرقه، وتنداح به في الأفق الفسيح مبادرات صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سُلطان بن محمّد القاسميّ عابرة لحدود الأقطار والقارّات. لهذا المجلس الذي سجّل حضورًا لافتًا في سوح العمل الثقافيّ، بالرّغم من حداثة سنّه، قصةٌ جديرة بأنْ تُروى.



مقر مجلسِ اللّسانِ العَرَبيّ بموريتانيا

في رَوْنقِ المَبنى ...

ولد مجلس اللّسان العربيّ في 9 شعبان 1438هـ/5 مايو 2017، بمبادرة مجتمعيّة من علماء اللّغة وباعتماد حكوميّ، وبرعاية خاصّة من صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسميّ الذي رحّب بميلاد المجلس في كلمته التي افتتح بها الاجتماع الثّاني لمجلس اتّحاد المجامع اللغويّة العلميّة العربيّة في دورته السّابعة والأربعين المُنعقدة بالقاهرة بتاريخ 13 شعبان 1438هـ / 9 مايو 2017. وفي الاجتماع ذاته وافق الاتّحاد بالإجماع على عضوية المجلس. وهكذا أصبح مقعد موريتانيا في اتّحاد المجامع اللّغويّة العلميّة العربيّة مشغولاً، بعد أن ظلّ شاغرًا عشرات السّنين.

وفي 3 **يناير** 2018، كان المجلس أوّل هيئة مجتمعيّة موريتانيّة تحصل، بقرار من وزير التّعليم العالي والبحث العلميّ، وبمقتضى القانون، على صفة «هيئة عالمة»، وهي صفة خوّلت المجلس الحقّ في إصدار الدّوريّات والبحوث المحكّمة.

وفي 13 **محرم** 1439**هـ/** 04 **أكتوبر** 2017، نظّم المجلس حفلاً رسميًّا لتدشين مقرّه المؤقّت، وذلك بإشراف وزير الثّقافة والصّناعة التّقليدية، النّاطق الرّسميّ باسم الحكومة، ووزير التّعليم العالي والبحث العلميّ وبحضور مستشار الوزير الأوّل، والأمين العامّ لوزارة العلاقات مع البرلمان والمجتمع المدنيّ، ووالي ولاية نواكشوط الغربيّة، ورئيسة المجموعة الحضريّة لمدينة نواكشوط، وحاكم مقاطعة لكصر.

كما حضر حفل التّدشين عدد من السّفراء وقادة المجامع اللغويّة في البلدان العربيّة، ومدير المركز التربويّ للمنظّمة الإسلاميّة للتربيّة والثّقافة والعلوم، ومدير معهد أحمد بابا التنبكتي للدراسات العليا والبحوث الإسلاميّة في مالي.

وكان في مقدمة الحاضرين سعادة الدكتور امحمّد صافي المستغانميّ الأمين العام لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة،

وفضيلة الشّيخ حسن الشافعي رئيس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية.

هذا وقد تشكّلت الهيئة التّأسيسية للمجلس من أربعين لغويًّا من ذوي العطاء المشهود في مجال البحث والتّأليف في علوم اللّغة العربيّة. ومن بينهم 3 سفراء من علماء اللغة العربيّة المقيمين خارج موريتانيا اعتمدتهم الهيئة التّأسيسية غيابيًّا أعضاء.

وتتكوّن هيئات المجلس، وفق نظامه، من منتدى عامّ هو الهيئة العليا، ويجتمع مرّة في العام، وديــوان هو الجهاز التنفيذيّ ويجتمع مرّة في الشّهر، وأمانة تنفيذيّة تتكوّن من رئيس المجلس وأمينه العامّ وأمين الماليّة، ومنسقَيْن اثنين لوحدات البحث والتّنظيم.

وقد تشكّل ديوان المجلس إبان تأسيسه من 10 أعضاء هم:

* **الخليل النحوي، رئيسًا:** وهو رئيس مؤسس لرابطة الأدبــاء الموريتانيين، واستشاري دولي في شؤون التربية والثقافة، وكان أول رئيس تحرير لأول صحيفة يومية في موريتانيا (الشعب)، وعمل أكثر من عشر سنوات في مراكز قيادية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأشرف على برنامج لنشر التعليم العربي ضمن أنظمة التعليم الثنائي في عدد من الدول الإفريقية، برعاية البنك الإسلامي للتنمية. وعمل كبير مستشارين برئاسة الجمهورية الإسلامية الموريتانية سابقا. وهو شاعر وباحث له مصنفات عديدة في مجال المعجمية وتاريخ الثقافة وغيرها.

* **المختار الجيلاني، أمينًا عامًّا:** وهو أستاذ جامعي، وباحث، ومتخصص في اللسانيّات وعلم النّص. مارس التّدريس في الجامعة الإسلامية بنيامي (النيجر) وفي جامعة نواكشوط، وله مؤلفات ودراسات لسانية في الأصوات والصرف والتركيب ولسانيات النص والنقد الأدبي، نائب رئيس اتحاد الأدبــاء والكتاب الموريتانيين سابقا، شغل منصب مدير المصادر البشرية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي قبل أن ينتقل للعمل مستشارا بالسفارة الموريتانية في مصر.

> **بتدشين مقرِّ مجلس اللّسان العربيّ في موريتانيا، تنضاف معلمة أخرى إلى معلماتٍ كثيرةٍ يغتني بها سجلٌّ عطاءٍ قاسميٍّ حافلٍ بخدمة اللّغة العربيّةِ وآدابها وثقافتها**

* **علي بكاري سيسي، أمين مالية:** وهو مــدرّس، وباحث، ومترجم، وصاحب كرسي تعليمي في التلفزة و الإذاعة، وخطيب جامع، وشاعر. له مؤلّفات عن المجتمعات الإفريقية المسلمة، تناول فيها جانبا من العلاقة بين اللغة العربيّة وبعض اللغات الإفريقية.

* **البكاي عبد المالك، عضوًا:** وهو أستاذ جامعي، وباحث، ومتخصّص في الفلسفة. مارس التّدريس في الجامعات الليبية وفي جامعة نواكشوط. له عدد من المؤلّفات والدراسات والترجمات في الفلسفة واللغة العربية. وهو وزير سابق للتعليم العالي والبحث العلميّ، يرأس





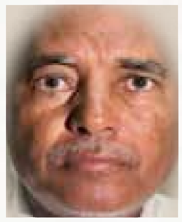
الآلية الوطنية للوقاية من التعذيب. آلت إليه الأمانة العامة للمجلس.

❋ **أحمد يرو كيدي، عضوًا:** هو قاض، وشاعر، وإعلامي. كان عضوا في المجلس الإسلامـيّ الأعلى. عمل على ترجمة صحيح البخاري ونصوص عربية أخرى إلى بعض اللغات الإفريقية. توفي في ربيع الآخر 1444هـ/ نوفمبر عام 2022

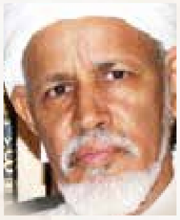
❋ **الشيخ سيدي عبد الله، عضوًا:** وهو أستاذ جامعي وإعلامي مميز، باحث، متخصص في النقد الأدبي واللغة العربية وآدابها. له مؤلفات ودراسات في الأدب والنقد وغيرهما. أمين عام سابق لاتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين. له برامج تلفزيونيّة مشهودة، يرأس تحرير مجلة الثقافة الموريتانية، وهو مستشار لوزير الثّقافة والشّباب والعلاقات مع البرلمان.

❋ **مباركة بنت البراء، عضوًا:** وهي أستاذة جامعية، وباحثة، وشاعرة. مارست التدريس في الجامعات السعودية وفي المدرسة العليا للتعليم بنواكشوط. لها مصنفات وأعمال بحثية عن الشعر والأدب وتدريس اللغة العربية. نائبة سابقة رئيس اتحاد الأدبـاء والكتاب الموريتانيين، وهي عضو في مجلس

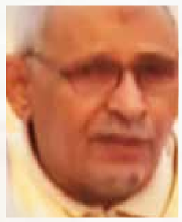

بونا عمر لي

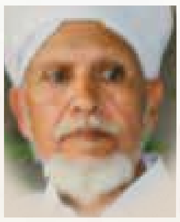

د. سيدي محمد


د. محمد الأمين الناتي


الخليل النحوي


محمد فال عبد اللطيف


د. ببهاء بديوه

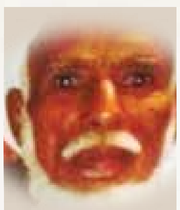

د. يحي الهاشمي


د. أحمد دوله محمد


البكاي عبد المالك


أحمد يرو كيدي


علي سيسى


د. محمد الحافظ اكاه

جائزة شنقيط.

❋ **محمد الحافظ اكاه، عضوًا:** وهو أستاذ جامعي، وباحث، وشاعر. مارس التدريس في بعض الجامعات السعودية واليمنية وفي جامعة نواكشوط وفي عدد من مؤسسات ومراكز التعليم المحضري والجامعي الأخرى في موريتانيا. له أعمال وأبحاث في مجال اللغة والأدب وأصول الفقه وقواعده وغيرها.

❋ **محمد فال عبد اللطيف، عضوًا:** وهو إداري، وشاعر، وكاتب. شغل مناصب إدارية سامية في قطاع الداخلية، حاكمًا وواليًا مساعدًا، وعمل مستشارًا للوزير الأول. له أعمال أدبية، وكتب وبحوث في اللغة والاجتماع والإدارة وغيرها.

❋ **محمد محفوظ بن أحمد، عضوًا:** وهو


الندوة المجمعية الأولى المشتركة مع مجمع اللغة العربية بالشارقة


جمع من الوزراء والمسؤولين السامين وقادة المجامع واللغويين إبان إزاحة الستار عن لافتة مقر المجلس


محمد الحافظ اكاه


يحي محمد حريمو


د. مختار الجيلاني


محمد محفوظ بن أحمد


الحسن مولاي علي


مباركة بنت البراء


د. محمد الأمين الناتي


د. محمدٌ أحظانا


الشيخ سيدي عبد الله


محمدو سالم جدو


د. بوميه ابياه

كاتب صحفيّ، وباحث، وناشر. عمل في عدد من الصحف والهيئات الإعلامية الموريتانية والإماراتية. له مؤلفات وأعمال في مجال اللغة والسيرة وأصول الفقه وغيرها. وهو أمين تحرير مجلة اللسان التي تصدر عن المجلس ومنسق وحدة تنظيم وبحث في الأمانة التنفيذية للمجلس.

وإثر انتقال الأمين العام الأول للمجلس الأستاذ المختار الجيلاني للعمل خارج البلاد، وبعد وفاة عضو الديوان القاضي أحمد يرو كده، وبمقتضى تعديل في النظام الداخلي، قرر المنتدى العام للمجلس اختيار الأستاذ د. البكاي عبد المالك أمينًا عامًا، وانتخاب الأساتذة التالية أسماؤهم أعضاء في الديوان:

❋ **د. محمد الأمين الناتي:** وهو أستاذ جامعي ووزير سابق، ورئيس سابق لقطاع اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، وأمين عام لاتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، وهو رئيس تحرير مجلة اللسان التي تصدر عن المجلس.

❋ **الأستاذ بونا عمر لي:** وهو شاعر وفقيه وداعية، ومدرس، وعضو في هيئة علماء موريتانيا، وفي مجلس جائزة شنقيط، وفي المجلس الأعلى للفتوى والمظالم، وهو رئيس لجنة العضوية في المجلس.

❋ **د. ببهاء بديوه:** وهو أستاذ في اللغة والصرف، وشاعر، وناقد، وباحث، فائز بجائزة ملتقى الشارقة التكريمي للأدباء. ويعمل خبيرًا في المعجم التاريخي للغة العربية ومنسقا لوحدة تنظيم وبحث في الأمانة التنفيذية للمجلس.

وقد انبثقت عن المجلس سبع لجان عمل دائمة هي: لجنة الثقافة والتراث والنشر، ولجنة التعليم والبحث العلمي، ولجنة الاتصال والتوثيق والمعلومات، ولجنة تبسيط القواعد وتحسين أساليب تدريس اللسان العربي، ولجنة تأصيل المصطلحات وتعريبها، ولجنة الأساليب والإفتاء اللغوي، ولجنة تهذيب العاميّة والتّمكين للسان العربي.


بمناسبة تدشين المقر الجديد لمجلس اللسان


خلال احتفاليات اليوم العالمي للغة العربية

وقد عهد المجلس بقيادة لجان عمله الأساسية السبع إلى الشخصيات التالية:

لجنة التعليم والبحث العلمي:

* **الرئيس: د. يحيى الهاشمي:** وهو أستاذ جامعي وباحث، يمارس التدريس في جامعات موريتانية وسعودية. وله عدد من المؤلفات والأبحاث في اللغة والأدب وغيرهما.

* نائب الرئيس، والمقرر: د. مباركة بنت البراء (تقدم التعريف بها).

لجنة الثقافة والتراث والنشر:

* **الرئيس: د. أحمد دوله محمد الأمين المهدي:** هو أستاذ جامعي، يدرّس في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، عميد كلية اللغة العربية بجامعة العلوم الإسلامية بالعيون سابقا. ورئيس مرصد اللغة العربية. عمل في هيئات ثقافية وعلمية في موريتانيا والإمارات العربية المتحدة، وهو نائب رئيس اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين.

* **المقرر: الأستاذ يحيى محمد حريمو.** وهو باحث، له أعمال عن اللهجة الحسانية، والأخطاء الشائعة، وأصول الفقه، وأحكام الشرع، وتراجم العلماء والتحقيق، ويعمل خبيرًا في المعجم التاريخي للغة العربية.

لجنة الاتّصال والتوثيق والمعلومات:

* **الرئيس: الأستاذ الحسن مولاي علي:** وهو من رواد الإعلام في موريتانيا، مدير إذاعة التنوير الخاصة. وقد عهد إليه المجلس برئاسة لجنة مرصد السلامة اللغوية في الإعلام.

* **نائب الرئيس، والمقرر: د. الشيخ سيدي عبد الله** (سبق التعريف به).

لجنة تهذيب العامية والتمكين للسان العربي:

* **الرئيس: د. محمد الأمين الناتي:** أستاذ جامعي، (سبق التعريف له)

* **المقرر: د. عبد الله عبد المالك، أستاذ جامعي**، متخصص في علم اللغة والمعجمية. له دراسات ومؤلفات في المعجمية، والصرف المقارن وقضايا اللغة العربية.

لجنة المصطلحات :

* **الرئيس: د. محمدُ أحظانا:** كاتب ومفكر وأستاذ، له بحوث ومؤلفات عن الفعل العربي والوعي العربي والحضارات المقارنة، وفلسفة اللغة. وله أعمال سردية. رئيس اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين سابقا، ومستشار لوزير الثقافة. وقد كان يرأس اللجنة من قبله د. البكاي عبد المالك.

* **المقرر: د. سيدي محمد حدمين. أستاذ جامعي يدرّس الأدب وطرق التدريس.** له بحوث في سير الرجال والنقد الأدبي وطرق تدريس اللغات.



القاعة القاسمية في مجلس اللسان العربي

> مما يميز البنية المادية للمجلس، مكتبته المتخصصة في الدراسات اللغوية، ولها تطبيق رقمي خاص يسهل البحث فيها ويضبط تنظيمها

لجنة تبسيط القواعد وتحسين أساليب تدريس اللسان العربي:

* **الرئيس: د. بوميه ابياه:** مكث نحو ثلاثة عقود يدرّس علوم العربية في دولة الكويت. له عدد من الكتب والأبحاث في المجال ذاته، وعمل مستشارا برئاسة الجمهورية.

* **المقرر: الأستاذ بونا عمر لي (سبق التعريف به).**

لجنة الأساليب والإفتاء اللغوي:

* **الرئيس: د. محمد الحافظ اكاه (سبق التعريف به).**

وكان يرأسها قبله الراحل الأستاذ أحمد فال أحمدُ الخديم، رحمه الله. وهو شاعر وباحث وأستاذ محضري. له مؤلفات وأعمال في النحو والصرف والبلاغة والسيرة والمنطق والأصول وتحقيقات لمصنفات تراثية.

* **المقرر: الأستاذ محمدو سالم جدو. أستاذ محضري، إعلامي. له أعمال أدبية ومؤلفات وأبحاث في اللغة والشرع والمعجمية والألسنية والقراءات والفقه.**

ومما يميز البنية المادية للمجلس، مكتبته المتخصصة في الدراسات اللغوية، ولها تطبيق رقمي خاص يسهل البحث فيها ويضبط تنظيمها. وقد أسس المجلس أيضا مكتبة رقمية، وبنى شبكة داخلية تتيح للعاملين في المجلس مراجعة وثائقه الأساسية ومشاركة الوثائق ومطالعة المكتبة الرقمية.

وفي الجانب العمراني، حصل المجلس بتوجيه من فخامة رئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية السيد محمد بن الشيخ الغزواني على قطعة أرض مساحتها 4000م2 في الحي الأكاديمي الذي يضم جامعة انواكشوط وجامعة شنقيط وعددا آخر من المؤسسات الأكاديمية والمدارس العليا.

وبمنحة كريمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسميّ شيد مقر المجلس على هذه الأرض، مكونا من مبنيين: مبنى إداري يضم مكاتب ومكتبة وقاعة اجتماعات، ومبنى ثان يضم مصلى كبيرا وقاعة ندوات (القاعة القاسمية) ومرافق، وملحقات أخرى. وقد دشن مقر المجلس يوم 25 ديسمبر/ كانون الأول 2023م ليكون أهم معلمة ثقافيّة تزدان بها العاصمة الموريتانية عام اختيارها عاصمة للثقافة في العالم الإسلامي. وقد شهد التدشين وفد منتدب من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي يرأسه الأستاذ محمد حسن خلف المدير العام لهيئة الشارقة للإذاعة والتلفزيون، ويضم الأستاذ محمد صافي المستغانمي الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة وعددا من شخصيات الإمارة. وحضر الحفل عدد من الوزراء والسفراء ونواب الشعب ورئيسة جهة نواكشوط وعمدة البلدية، وجمهور غفير

> **أسس المجلس أيضا مكتبة رقمية، وبنى شبكة داخلية تتيح للعاملين في المجلس مراجعة وثائقه الأساسية ومشاركة الوثائق ومطالعة المكتبة الرقمية.**





من الأساتذة والباحثين. وبمناسبة تدشين المقر، قدم السيد وزير الثقافة والشباب والرياضة والعلاقات مع البرلمان درع مجلس اللسان العربي شكرا لصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي.

هذا وقد استخدمت في بناء المقر تقنية التربة الطينية المحلية المضغوطة، الصديقة للبيئة، والتي توفر جدرانها «الطوبية» جوا لطيفا في أوقات الحر ودفئا مناسبا في الأجواء الباردة. كما استخدمت في بعض أجزائه تقنية القبو النوبي. وأدمج في المبنى مصدران للطاقة، أحدهما للطاقة الكهربائية والآخر للطاقة الشمسية، وصمم فيه نظام لتجميع مياه الأمطار والاستفادة منها في ريّ الحديقة وفي الأغراض الأخرى.

في ألق المعنى ...

حدد مجلس اللسان العربي بموريتانيا لنفسه مجموعة من الأهداف منها:

استخدمت في بناء المقر تقنية التربة الطينية المحلية المضغوطة، الصديقة للبيئة، والتي توفر جدرانها «الطوبية» جوا لطيفا في أوقات الحر ودفئا مناسبًا في الأجواء الباردة



1. تشجيع استعمال اللسان العربي الفصيح في منابر الإعلام والتربية والثقافة، وفي مناشط الإدارة، وفي سائر شؤون الحياة؛
2. تيسير قواعد اللسان العربي.
3. التعريف بمكانة اللسان العربي ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وطنيا وإفريقيا وإسلاميا ودوليا؛
4. استكشاف أسرار اللسان العربي والوحي الناطق به.
5. الإفتاء، مبادأة أو استجابة لطلب، بشأن الأساليب سلامة وفصاحة، وبشأن قضايا المصطلحات تعريبا وتأصيلا وتنسيقًا.
6. تشجيع تدريس العلوم والرياضيات والمعارف المبتكرة باللسان العربي.
7. تطوير أساليب تدريس العربية لأبنائها وللمستعربين.
8. استكشاف العلائق وتوثيقها فيما بين اللسان العربي واللغات الأخرى عامة واللغات الإفريقية خاصة.
9. التمكين للسان العربي في نظم المعلومات وتقانات التربية المعاصرة.
10. تشجيع البحث والتأليف والنشر والابتكار في أنظمة اللسان العربي وأنساقه ودلالاته وسائر علومه وقضاياه.
11. التعاون مع مجامع اللغة العربية وسائر الهيئات العاملة على ترقية اللسان العربي والنهوض به.
12. تنسيق الجهود من أجل خدمة اللسان العربي على المستويين الداخلي والخارجي.

ولتحقيق هذه الأهداف نشط المجلس في مجالات شتى منها البحث والنشر العلمي، والمؤتمرات والندوات والمحاضرات والمسابقات، والإفتاء اللغوي، وكان له حضوره البارز في صناعة المعجم التاريخي للغة العربية. كما كانت له مبادرات مميزة في خدمة اللسان العربي والتمكين له.

ففي مجال البحث والنشر العلمي، أطلق المجلس أول دورية موريتانية محكمة تحكيما دوليا متخصصة في الدراسات اللغوية هي (مجلة اللسان). وهي تتمتع برقم معياري دولي (ردمد). كما نشر المجلس نشرًا مستقلاً سلسة بحوث محكمة بلغ عددها لحد الآن 41 بحثا، ونشر بعض المصنفات الأخرى مثل ديوان الواردات لعضو المجلس الأستاذ محمد فال عبد اللطيف، و"ألفية

ابن مالك النحوية وأثرها في الحياة العلمية والثقافية الموريتانية" لعضو المجلس الأستاذ د. يحيى البراء، وكتيب «الخط العربي الإفريقي»، جمع الأستاذ محمدن أحمد سالم.

وقد نظم المجلس أكثر من 30 نشاطا من فئة الندوات والمؤتمرات، وكانت أولاها ندوة انتظمت يوم 29 رمضان 1438هـ/ 24 يونيو 2017م للإيذان بانطلاق عمل المجلس.

وبمناسبة تدشين المقر المؤقت للمجلس انتظمت في مدينة نواكشوط يوم الأربعاء 13 محرم 1439هـ/ 04 أكتوبر 2017م ندوة مجمعية تحت عنوان: "اللغة العربية بين التحديات الآنية والفرص الآتية"، شارك فيها عدد من قادة المجامع العربية والهيئات النظيرة في إفريقيا.

وفي أيام 05 - 07 محرم الحرام 1441هـ/ 4 - 6 سبتمبر 2019م، نظم المجلس، برعاية سامية من فخامة رئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية السيد محمد بن الشيخ الغزواني وبرعاية صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة الشارقة، أول مؤتمر من نوعه عن اللغة العربية في إفريقيا، وشهد افتتاح المؤتمر الوزير الأول ومجموعة من الوزراء الموريتانيين، ومندوب عن صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمي. وقد شارك في المؤتمر عشرات الباحثين من نحو 30 دولة إفريقية، وتناولت بحوثهم «العلاقات التقابلية بين اللغة العربية واللغات الإفريقية»، و«التعليم العربي في البلدان الإفريقية»، و«الأدب العربي

الحصيلة الإجمالية لعمل فريق المعجم (الشوط الأول)

تاريخ إنطلاقة العمل	20 يناير 2020 م
تاريخ إغلاق المنصة	الساعة 02:30 قبل الفجر 31 أغسطس 2020
نطاق العمل المعجمي	حروف الهمزة – الباء – التاء
العدد الكلي لأعضاء الفريق	56
المنسحبون من أعضاء الفريق	12 (منهم 3 لهم إنجاز جزئي)
العدد الضافي لأعضاء الفريق	44
المشاركون في التدقيق المركزي	10
جدول الإنجاز	
العدد الكلي للجذور	743
عدد الجذور العميقة	39
العدد الكلي للمداخل	1464
العدد الكلي للمعاني	3314
العدد الكلي للشواهد	5884

الحصيلة الإجمالية لعمل فريق المعجم (الشوط الثاني)

تاريخ إنطلاقة العمل	23 ديسمبر 2020 م
نطاق العمل المعجمي	حروف: الثاء – الجيم – الحاء – الخاء – الدال
العدد الكلي لأعضاء الفريق	31
المشاركون في التدقيق المركزي	10
جدول الإنجاز	
العدد الكلي للجذور	214
عدد الجذور العميقة	115
العدد الكلي للمداخل	704
العدد الكلي للمعاني	1856
العدد الكلي للشواهد	3157

في إفريقيا»، و«راهن اللغة العربية ومستقبلها في القارة».

وقد استقبل الرئيس الموريتاني وفدا من المشاركين في المؤتمر.

وعلى هامش مؤتمر اللغة العربية في إفريقيا، نظم المجلس أول معرض عن الخط العربي الإفريقي، تضمن نحو 100 لوحة مختارة تتحدث عن التطور التاريخي للخط الإفريقي، وأنواع وجماليات الخط الإفريقي، ونماذج من الخطوط الإفريقية العجمية، ونماذج من خطوط الأعلام الموريتانيين والأفارقة، وشواهد من عمليات تنميط وحوسبة الخط الإفريقي.



مشهد من زوار المعرض

وقد نظّم المجلس ندوة عن «جديد المكتبة اللغوية الموريتانية» كرم خلالها المؤلفين والمحققين الذين أثرت بهم المكتبة اللغوية الشنقيطية. كما نظم المجلس عددا من الندوات والدورات حول صناعة المعجم التاريخي للغة العربية.

> **كان العمل في المعجم التاريخي للغة العربية الرهان الأكبر للمجلس، فقد استنفرت له جُلّ الطاقات والجهود، وجُنّدَ له عشرات الباحثين**

وإضافةً إلى ما تقدم، نظم المجلس عددًا مهمًّا من الندوات والمحاضرات تناولت موضوعات كثيرة منها:

في تاريخ اللغة العربية وخصائصها: «إيمان اللغة»، و«الأبعاد الشرعية لتعلم اللغة العربية»، و«مزايا اللغة العربية وخصائصها»، و«اللغة والإبداع والتعليم»، و«مكانة اللغة العربية ودورها في تطور العلوم خلال الحقبة الوسيطة»، و«العلاقة بين العامية واللغة الفصحى: اللهجة الحسانية نموذجا»، و«تفصيح اللهجة العامية: الواقع والطموح»، و«قصة هجرة الأرقام العربية غربا نحو أوروبا»، و«إفريقيا واللغة العربية: محتويات مكتبة الحاج عمر تال بباريس نموذجا»، و«اللغة العربية في فوتا تورو»، و«المحضرة الفوتية وروافدها الشنقيطية»، و«وضع اللغة العربية في المشرق».

وفي ثقافات العربية ومستقبلها: «أسماء النطاق العربية المدولة»، و«اللغة العربية و رهانات المستقبل»، و«اللغة العربية وتحديات الرقمنة والترجمة»؛

وفي المعجمية واللسانيات: «المعالجة الدلالية في معجم مقاييس اللغة»، و«تجديد الصناعة المعجمية العربية، المستكشف نموذجا»، و«مساهمة موريتانيا في مشروع المعجم التاريخي للغة العربية: المكاسب والمصاعب».

وفي علوم اللغة العربية وقواعدها: «اللغة العربية بين الصرامة في التقعيد وثراء التوليد»، و«ملامح العبقرية في التدقيقات المحضرية»، و«الاتساق في الشعر»، و«الدرس النحوي بين التبسيط والتفريط»، و«فن المقامة في موريتانيا»، و«تقنيات التخميس في ديوان ابن مهيب ومكانته عند الشناقطة»، وملاحظات على «أساليب لغوية متداولة»؛

وفي السياسة اللغوية: «الجوانب القانونية لدستورية اللغة العربية»، و«ترسيم اللغة العربية»، و«الاستقلال واللغة»، و«سبل تنسيق العمل وبناء الشراكات في خدمة اللسان العربي».

كل ذلك بالإضافة إلى مشاركة المجلس

في عدد مهم من المهرجانات والملتقيات الوطنية والعربية والدولية، ومشاركته بوجه خاص في ندوة بعنوان «العربية لغة طب راقية» بالاشتراك مع الجمعية الموريتانية لعلوم الصحة، وندوة بعنوان «الدراسات اللغوية العربية في المجلات العلمية المُحكّمة: اتجاهاتها وآفاق تطويرها» بالاشتراك مع مجمع الملك سلمان الدولي للغة العربية.

وفي مجال تشجيع المبدعين واستكشاف المواهب، نظم المجلس مسابقة لاختيار أحسن قصيد عن اللغة العربية، شارك فيها عشرات الشعراء من الأردن والبحرين والسعودية وسوريا وفلسطين ومصر وموريتانيا، ونظم المجلس حفل تكريم للفتيات الفائزات في مسابقة «فصاحة» باللغة العربية.

عطاء معجمي مميز

كان العمل في المعجم التاريخي للغة العربية الرهان الأكبر للمجلس، فقد استنفرت له جل الطاقات والجهود، وجند له عشرات الباحثين. وتعرض الجداول أدناه أرقاما ومعطيات عن نشاط فريق المعجم التاريخي في بعض أشواط العمل، حيث كان عطاء الفريق الموريتاني، بوجه عام، متميزا من الناحيتين الكيفية والكمية.

> **كان عطاء الفريق الموريتاني، بوجه عام، متميزًا من الناحيتين الكيفية والكمية**

وكان من شواهد تقدير إدارة المعجم لعطاء الفريق أن اختارت في الشوط الثاني من عمل المعجم 11 خبيرا موريتانيا من أصل ما مجموعه 42 خبيرا عربيا كانوا أعضاء لجنة المراجعة والتدقيق في تلك المرحلة.

مبادرة وريادة

ولقد كانت للمجلس مبادرات أحرز بها قصب السبق في عدد من المجالات. وهذه نماذج من تلك المبادرات:

1 – **صمم المجلس مؤشرًا** يتكون من 11 معيارا لقياس مدى انتهاك حرمة اللغة العربية في الوسط الحضري (اللافتات ولوحات الإشهار وواجهات المحلات)، ووضعَ برنامجًا خاصًا يحمل اسم "لنا العربية" بهدف صيانة حرمة اللسان العربي في الوسط الحضري، وقد وقّع المجلس لهذا الغرض اتفاقًا إطاريا وخطة تنفيذية خماسية مع المجموعة الحضرية (حاليا المجلس الجهوي) لمدينة نواكشوط. وفي خطوة أولى لتنفيذ هذا البرنامج أجرى المجلس مسحا ميدانيا لشوارع مختارة من مدينة نواكشوط. وقد كشف المسح عن نسبة انتهاك لحرمة اللغة العربية، تتجاوز 50% في اللافتات واللوحات التعريفية والإشهارية للشركات والمحلات التجارية ونحوها، وبدأت الجهات المختصة في اتخاذ تدابير لتصحيح هذه الاختلالات.

2 – **مع ظهور وباء الفيروس التاجي**، أطلق المجلس «خدمة العمل الطيفي»، وذلك بعقد اجتماعات طيفية (عن بعد)، دشنت باجتماع لديوان المجلس، وبإطلاق إذاعة خاصة للمجلس على الشابكة، باسم "صدى اللسان"، تبث على مدار الساعة محاضرات وندوات ودروسا في علوم اللغة وشؤونها وقضاياها.

3 – **كان المجلس سبّاقا إلى الاستفادة من الفرصة التي أتاحتها هيئة الأنترنت (آيكان)** لكسر احتكار الحروف اللاتينية/ الجرمانية للشبكة، فقد كان أول هيئة مجمعية عربية تقتني اسم نطاق عربيٍّ لموقعها، حيث يمكن تصفح موقع المجلس بأسماء نطاق وبامتدادات عربية خالصة مثل: (اللسان.موريتانيا أو اللسان.موقع أو اللسان.شبكة) إضافة إلى الأسماء اللاتينية (.allissan com allissan.net allissan.org).

ونشير بالمناسبة إلى أن للمجلس قناة

الحصيلة الإجمالية لعمل فريق المعجم (الشوط الأول)

	المنجز الكلي	حصة المجلس	النسبة المئوية
الجذور	2034	895	%44
المداخل	8769	2660	%30
الشواهد	42143	11076	%26

يوتيوب عنوانها (مجلس اللسان العربي بموريتانيا)، يشترك فيها 2040 فردا، وتتضمن 139 مقطع فيديو (بداية عام 2024)، بلغ إجمالي مشاهداتها 129 ألفا؛ وله أيضا صفحة فيسبوك عنوانها مَعْلم (بتشكيل الحرفين الأولين)، بلغ عدد متابعيها 2400 وبلغت تسجيلات الإعجاب 2100.

ولكل من قناة اليوتيوب وصفحة الفيس بوك رابط مباشر على موقع المجلس.

4 - **بعيد تأسيسه، قاد المجلس مبادرة تنسيق احتفاليات اليوم العالمي للغة العربية**، فأصبحت نشاطا مشتركا ينسقه المجلس ويشارك فيه عدد متنام من الهيئات العاملة على التمكين للغة العربية. وبفضل هذه المبادرة تحولت احتفالية اليوم العالمي للغة العربية إلى احتفالية أسبوعية، امتدت من بعد إلى 10 أيام ثم أصبحت منذ عام 2023 شهرا كاملا يفتتح في ذكرى استقلال موريتانيا وتستمر نشاطاته طيلة شهر ديسمبر / كانون الأول. وقد بلغ عدد الهيئات المشاركة نحو 20 أنجزت نحو 30 نشاطا من ضمنها مؤتمرات وندوات استغرق كل منها يومين فأكثر.



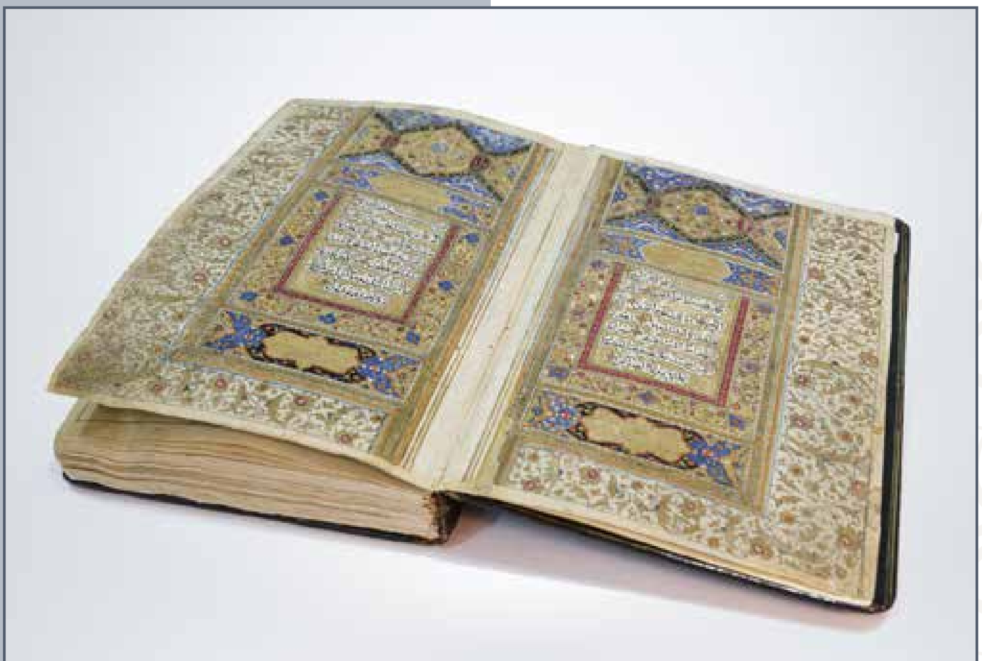
تكريم رئيس الجمعية الوطنية (البرلمان الموريتاني) بمناسبة منتدى اللغة العربية

5 -**بمبادرة من المجلس، انعقد أول منتدى نيابي موريتاني حول اللغة العربية**، وذلك بمشاركة جمع كبير من النواب وممثلي عدد من الهيئات العاملة على خدمة اللغة العربية، وبحضور بعض الوزراء وكبار المسؤولين في الدولة.

6 -**وبمبادرة من المجلس، انطلق الملتقى الوطني للسلامة اللغوية في الإعلام الموريتاني**، وانعقدت نسخته الأولى تحت عنوان: «عثرات الألسنة والأقلام في وسائل الإعلام» وشارك فيها ممثلون عن 25 هيئة إعلام عمومية وممثلون عن بعض شركات الاتصال.

أما النسخة الثانية فكانت بعنوان «لغة الإعلام.... سلامة المبنى ووجاهة المعنى». وعلى هامش هذا الملتقى وقّع المجلس اتفاقا مع السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية أعلنا بمقتضاه إقامة «مرصد السلامة اللغوية في الإعلام». وعقدت لجنة المرصد عدة اجتماعات ويتوقع أن يصدر عنها خلال عام 2024 التقرير الوطني الأول للسلامة اللغوية في الإعلام الموريتاني.





نظراتٌ في البيانِ القرآنيّ

- الأبعادُ الدّلاليّةُ للعُدولِ عنِ المُطابقةِ بينَ الضّميرِ ومرجعيّتِه في القرآنِ الكريمِ
- التّقَارُضُ الصَّرْفيُّ وبَلَاغَتُهُ في اسْمِ المَفْعُولِ سُورَةُ الإسْرَاءِ أنموذَجًا
- الإضمار على شريطة التفسير في القرآن الكريم



الأبعادُ الدّلاليّةُ للعُدولِ عنِ المُطابقةِ بينَ الضّميرِ ومرجعيّتِه في القرآنِ الكريمِ

إنَّ العُدولَ منَ الأساليبِ البلاغيّةِ التي جرت على ألسنةِ العربِ، وهو أسلوبٌ يَخرجُ فيه المُبدعُ أوِ المتكلّمُ عن أصلِ القاعدةِ إلى غيرِها؛ تحقيقًا لأغراضٍ دلاليّةٍ في الكلامِ في ضوءِ ما يَسمحُ له به النّظامُ اللّغويُّ. ولا يُؤدّي هذا العُدولُ إلى فسادِ المعنَى أو خللٍ في التّركيبِ بين أجزاءِ الجُملةِ، أوِ المعنَى النّحويِّ، ولا يَعني خروجًا عنِ الجادّةِ الصّحيحةِ؛ وإنّما يُؤتى به لتحقيقِ أبعادٍ دلاليّةٍ لا يتسنَّى للبُلغاءِ، وأربابِ الفصاحةِ تحقيقُها إلّا بالخروجِ عمّا هو مألوفٌ من قواعدَ وتراكيبَ؛ فقد يكونُ الغرضُ منَ العُدولِ تحقيقَ أبعادٍ دلاليّةٍ يتطلّبُها المقامُ، أو قد يكونُ لضرورةٍ يقتضِيها السّياقُ، وعلى كلِّ مُتكلّمٍ بليغٍ أن يتخيّرَ- في سبيلِ تحقيقِ ما يقصدُه من معانٍ ودلالاتٍ - الصّيغةَ التّركيبيَّةَ التي تمكّنُه منَ التّعبيرِ عمّا يريدُ.



علاء يونس فرج
باحث دكتوراه بكلية الآداب -
جامعة الفيوم - مصر

وقد ورد العُدولُ في لغة القرآنِ الكريمِ في أكثرَ من موضعٍ دالاًّ في كلّ سياقٍ على إعجازِ النّصِّ القرآنيِّ وبلاغتِه.

يُعدّ العُدولُ أحدَ الأساليبِ البلاغيّةِ التي استعملَها العربُ، وشاع استعمالُه في كلامِهم، وهو أسلوبٌ يخرجُ فيه المتكلّمُ عمّا هو مألوفٌ من قواعدِ النّظامِ اللُّغويّ إلى استعمالٍ خاصٍّ؛ لمعنى يقصدُه، وقد عرّفَه د/ تمام حسان بأنه: «خروجٌ عن أصلٍ، أو مخالفةٌ لقاعدةٍ، ولكنَّ هذا الخروجَ وتلك المخالفةَ اكتسبَا في الاستعالِ الأسلوبيّ قدرًا منَ الاطّراد رقَى بهما إلى مرتبةِ الأصولِ التي يُقاسُ عليها»(1)، وهو دليلٌ على اتّساعِ اللّغةِ العربيّةِ ومرونتِها. وتأسيسًا على أنَّ القرآن الكريمَ قد نزلَ بلُغة العربِ وجرَى البيانُ القرآنيُّ على مذاهبِها وأساليبِها وسننِها في الكلام، فإنّه يمكنُ القولُ إنَّ الأسلوبَ العُدوليَّ في القرآن الكريم يُعدُّ أحدَ وجوهِ الإعجازِ في النّظمِ القرآنيِّ، وآيةً من آيات التّأنّقِ في أسلوبِه.

ومن صُورِ العُدولِ الواردةِ في القرآن الكريم «العُدولُ عنِ المطابقةِ بين الضّميرِ ومرجعيّتِه»، وتُعرفُ المطابقةُ بأنّها: «مظهرٌ من مظاهرِ اللّغةِ اقتضَتْه الصّناعةُ اللّفظيّةُ في بعض الأبوابِ النّحويّةِ؛ لضبط العبارةِ لفظًا وتوضيحِها معنًى»(2)، وقد أشارَ النّحاةُ إلى وجوبِ المطابقةِ في الكلامِ؛ حتى لا يَحدثَ لَبسٌ فيه، وتتمثّلُ المطابقةُ في خمسةِ مظاهرَ؛ هي(3):

- العَلامةُ الإعرابيّةُ.
* الشّخصُ: (التّكلّمُ، والخطابُ، والغيبةُ).
* العددُ: (الإفرادُ، والتّثنيةُ، والجمعُ).
* النّوعُ: (التّذكيرُ، والتّأنيثُ).
* التّعيينُ: (التّعريفُ، والتّنكيرُ).

وتحقُّقُ المطابقةِ في هذه الأبوابِ يُسهمُ في ارتباطِ المعنى - كما يرى د/ تمام حسان- فيقولُ:

«ولا شكَّ أنَّ المطابقةَ في أيَّةِ واحدةٍ مِن هذه المجالاتِ الخمسةِ تُقوّي الصّلةَ بين المُتطابقَين، فتكونُ هي نفسُها قرينةً على ما بينَهما مِن ارتباطٍ في المعنى، وتكونُ قرينةً لفظيّةً على الباب الذي يقعُ فيه ويعبِّرُ عنه كلٌّ منهما. فبالمطابقةِ تتوثّقُ الصّلةُ بين أجزاءِ التّركيب التي تتطلّبُها، وبدونِها تتفكّكُ العُرى، وتصبحُ الكلماتُ المتراصّةُ منعزِلاً بعضُها عن بعضٍ، ويصبحُ المعنى عسيرَ المنالِ»(4).

وقد يُعدلُ عنِ المطابقة في الكلامِ، إلّا أنّ «النّظامَ اللّغويّ يسمحُ ببعضِ التّرخُّصِ في القرائنِ التي تعملُ متعاونةً على إحكامِ تماسُكِ الجملةِ، على أنَّ هذا التّرخُّصَ نفسَه جزءٌ مِنَ النّظامِ اللّغويِّ يُسمحُ به في الموضعِ المعيّنِ لأداءِ غرَضٍ مخصوصٍ، ومعنى هذا أنّه لم يَحدثْ عبثًا أو تلاعُبًا، ولكنْ يُؤتَى به عن قصدٍ وتعمُّدٍ بهدفِ إحداثِ أثرٍ معَيَّنٍ»(5).

وإنَّ مِنَ الثّابتِ أنَّ مجيءَ تركيبٍ لُغويٍّ بعينِه في موضعِه المناسبِ له، وتفضيلَ تركيبٍ على تركيبٍ آخرَ في موضعٍ ما، هو خصيصةٌ فريدةٌ للنّصّ القرآنيِّ الحكيمِ؛ فهو نصٌّ إلهيٌّ مُعجِزٌ يسوقُ الأحداثَ ويَعرضُها بأسلوبٍ فريدٍ متميّزٍ له طبيعتُه الخاصّةُ به، ويكونُ هذا «مع فصاحةِ لفظٍ، وبلاغةِ أسلوبٍ، تُبهرُ العقولَ، وتسلبُ القلوبَ، وإعجازِ نظْمٍ لا يقدرُ عليه إلّا علّامُ الغيوبِ»(6)، وكذلك ينبغِي أن يكونَ كلُّ كلامٍ بليغٍ مراعيًا تلك الدّقائقَ والفروقَ بين العباراتِ والتّراكيبِ، فإنَّ المتكلّمَ البليغَ "هو الذي يلتفتُ إلى تلك الدّقائقِ، ويراعِي هذه النّكاتِ البلاغيَّةَ، ويقدرُ على تطويعِ الكلامِ، وتكييفِ العباراتِ وصياغتِها على حسبِ ما يقتضِيه المقامُ»(7)، وقد جاء النّصُّ القرآنيُّ بأشرفَ مِن هذا وأَعظمِه وأَعجبِه، بأسلوبٍ بليغٍ مُعجزٍ، ولا شكَّ أنَّ «الأسلوبَ اختيارُ choice، أو Auswhal؛ فالمُنشىءُ يستطيعُ أن يختارَ من إمكانياتِ اللّغةِ ما يستطيعُ، وما يرَى أنّه الأقدرُ على خدمةِ رُؤيتِه وموقفِه، وما يمكنُ أن يكونَ قادرًا على خَلْقِ استجابةٍ معيّنةٍ عند المتلقّي»(8).

العدول أسلوبٌ يَخرجُ فيه المُبدعُ أو المتكلّمُ عن أصلِ القاعدةِ إلى غيرِها؛ تحقيقًا لأغراضٍ دلاليّةٍ في الكلامِ في ضوءِ ما يَسمحُ به النّظامُ اللّغويُّ

أشارَ النّحاة إلى وجوب المطابقة في الكلام حتى لا يحدثَ لبسٌ فيه

القرآن الكريم نصٌّ إلهيّ مُعجز يسوق الأحداثَ ويعرضها بأسلوب فريدٍ متميّز

---

(1) ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن "دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني"، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1413هـ/1993م، ص347.
(2) عوض إسماعيل عبد الله: المطابقة وأحكامها "دراسة نحوية تطبيقية"، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر بالقاهرة، العدد 28، 2010م، ج1/ص20.
(3) ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1427هـ/2006م ، ص 212،211.
(4) اللغة العربية معناها ومبناها: ص212-213.
(5) محمد حماسة عبد اللطيف: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، ط3، 1429هـ - 2008م، ص435.
(6) السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ط1، بدون تاريخ، ج1/ص4.
(7) بسيوني عبد الفتاح بسيوني: علم المعاني "دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني"، مكتبة وهبة، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ، ج2/ص123.
(8) موسى سامح ربابعة: الأسلوبية "مفاهيمها وتجلياتها"، دار الكندي، الأردن، ط1، 2003م، ص: 26.

وبالنّظرِ في آيِ الذّكرِ الحكيمِ نجدُ أنّه عُدِلَ في بعضِ السّياقاتِ عن أصلِ القاعدةِ لإرادةِ مَقْصِدٍ دلاليٍّ بعينه، فقد يتطلّبُ السّياقُ القرآنيُّ صورةً تركيبيّةً بعينِها دون سواها، تكونُ الدّلالةُ المُتوخّاةُ من التّركيبِ القُرآنيِّ أكثرَ وضوحًا فيها من غيرِها منَ الصّورِ التّركيبيّةِ الأخرَى؛ ففي قولِ الله تعالى:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾(9)

عُـدِلَ عنِ المطابقةِ بين الضّميرِ ومرجعيّتِه، وقدِ اختلف القُرّاء في هذه الآيةِ على قسمين(10)؛ إذ:

* قرأ الجمهورُ: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ على الجمعِ، وقد استُعمل ضميرُ الجمعِ للاثنين؛ أي لداوودَ، وسليمانَ.

* وقرأ ابنُ مسعود، وابنُ عباس، وابنُ أبي عبلة(11): ﴿لِحُكْمِهِمَا﴾ على التّثنية، وهو لداوودَ، وسليمانَ.

وقدِ اختلف المفسّرون في توجيهِ عَجُزِ هذه الآيةِ:

* فقال بعضُ المفسّرين إنّ المرادَ بضمير الجمع ثلاثـــةٌ؛ هم: داوودُ، وسليمانُ، والمحكومُ عليه(12).

* ويرى الزّمخشريُّ(13) أنّه جمعُ الضمير؛ لأنّ الله عزّ وجلّ أراد داوودَ، وسليمانَ، والمتحاكِمَين إليهما.

* ويرى بعضُهم أنّ اللّفظ جمعٌ والمرادَ به الاثنان، «واستدلّ بذلك مَن قال إنَّ أقلَّ الجمعِ اثنان، وجوّزَ أن يكونَ الجمعُ للتّعظيم»(14). وإطلاقُ لفظِ الجمعِ على الاثنين مذهبُ طائفةٍ من أهل العربيّة، كالفرّاء، والزّمخشريِّ، والرّضيّ(15).

* ومنهم من يرَى أنّ ضميرَ الجمعِ يعودُ على الحاكمَينِ (داوود، وسليمان)، والمحكومِ لهما وعليهما(16)، ويكونُ المعنى إذنْ: «وكنّا لحكمِ داوودَ وسليمانَ والقومِ الذين حكمَا بينهم فيما أفسدتْ غنمُ أهلِ الغنمِ مِنْ حرْثِ أهلِ الحرثِ شاهدينَ، لا يخفَى علينا منه شيءٌ، ولا يغيبُ عنّا عِلمُه»(17).

* ويرى ابنُ أبي الإصبع أنّ ضميرَ الجمعِ يعودُ على المثنّى (داوود، وسليمان) عليهما السّلامُ؛ وأنَّ هذا يُعَدُّ ضربًا من بلاغة القرآنِ، وإعجازِه اللُّغويِّ والبيانيِّ(18).

وأرى - والله أعلم - أنَّ القولَ بأنّ ضميرَ الجمعِ يعود على الاثنين هو الرّأيُ الأقربُ إلى تحقيقِ الدّلالةِ المقصودةِ في الآيةِ الكريمةِ؛ لأنَّ هذا العُدولَ من سَنن العربِ في كلامها - كما ذكر ابنُ فارس-

في قوله: «مِن سَنن العرب الإتيان بلفظ الجمع، والمرادُ واحدٌ، واثنان»(19)، وهو أمرٌ شائعٌ عندهم في لغتِهم؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ۝٤﴾ (20)، وكان ذلك المنادِي واحدًا، وقولُه سبحانه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۝٤﴾(21)، وهما قلبانِ فحسب. ومن ذلك أيضًا جملةٌ منَ الشّعر؛ منها قول عَبيد بنِ الأبرصِ في معلقتِه(22):

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ
فَالقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

«وإنّما القطبيّةُ ماءٌ واحدٌ معروفٌ»(23).

ومنه أيضًا قولُ الفرزدق(24):

وَإذا ذَكَرْتَ أَبَاكَ أَوْ أَيَّامَهُ
أَخْزَاكَ حَيْثُ تُقَبِّلُ الأَحْجارُ

فذكر (الأحجار) وهو يريد (الحجر)(25).

ويقولُ أيضًا (26):

وَيَا لَيْتَ زَوْرَاءَ المَدِينَةِ أَصْبَحَتْ

---

(9) سورة الأنبياء: 78.

(10) ينظر: أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ - 2001م، ج 6/ص307، وينظر: عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، دار سعد الدين، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ، ج6/ص38.

(11) ينظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1403هـ-1983م، ج 5/ص371.

(12) ينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ-1998م، ج3/ص493.

(13) ينظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ-2009م، ص 683.

(14) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1994م، ج9/ص71.

(15) ينظر: فتح القدير: 3/493.

(16) ينظر: البحر المحيط: 6/307.



بِأَحْفَارِ فَلْجٍ أَوْ بِسَيْفِ الكَوَاظِمِ

والمعنى: أنه «يريد (الحفر) و (كاظمة)؛ ووجْهُ ذلك أنَّ العربَ قد توقعُ على الجزء اسمَ الكلِّ؛ ألا ترى أنّك لو لمست ناحيةً منَ الحجرِ، أو منَ الصّهوة، أو منَ الجِيد، لقلت: لمستُ الحجرَ، ولمستُ الصّهوةَ، ولمستُ الجِيدَ!»(27).

ونحوُ ذلك قولُ أميرِ الشعراء مادحًا أشرفَ الخلقِ عليه أزكى الصّلاةِ، وأتمُّ التّسليم(28):

وَإِذا رَحِمْتَ فَأَنتَ أُمٌّ أَو أَبٌ
هَذانِ في الدُّنْيا هُما الرُّحَماءُ

فجاءت كلمةُ (الرحماء) جمعًا في وصف الوالدَينِ؛ وهما اثنانِ فقط.

وقد وردَ مثلُ هذا في لغة النّثرِ عند العربِ في مواطنَ كثيرةٍ؛ فجاءوا بالمثنّى وأرادوا به المُفردَ، وجاءوا بالجمع وأرادوا به المفردَ والمثنّى؛ فمنه ما جاء في قولِهم: (شابَتْ مفارقُه)(29)؛ وإنّما له مفرقٌ واحدٌ، وقولِهم: (ألقاه في لَهواتِ اللّيثِ)(30)؛ وإنّما له لهاةٌ واحدةٌ، «وقالت العرب: (قطعتُ رؤوسَ الكبشينِ)، وليس لهما إلاّ رَأْسَـانِ»(31)، وقالوا: «بعيرٌ ذو عثانِينَ»(32)؛ أي: «كأنه جعل كلَّ جزءٍ عثنونًا فجمعَه»(33)، وقولُهم: (هو رَجُلٌ عظيمُ المناكبِ)(34)؛ وإنّما له منكبانِ.

وقد عُدِلَ في الآيةِ الكريمةِ عنِ المطابقة بين المثنّى ومرجعيّتِه، وذلك لأبعادٍ دلاليّةٍ متعدّدةٍ؛ منها الإشارةُ إلى فخامة حكمِ داوود، وسليمانَ - عليهما السّلامُ - وعلُوِّ منزلتِهِ؛ ومن ثمّ فإنّه جديرٌ بأن يكونَ نبراسًا ومثالاً للعدل في أسمى معانِيه، وليس أَدَلَّ على ذلك مِن شهادة الله سبحانه له، وتشريفِهِ إياه، وفي هذا يقول ابنُ أبي الإصبع إنّه: «جمعَ الضّميرَ الذي أُضيفَ إليه الحكمُ، ومن حقِّه أن يكونَ مثنّى لعلمِه سبحانه أنّ الحكمَ مِن نوادرِ الأحكامِ المعادلةِ، ومِثْله يُتبعُ ويُعملُ به، فأخبر أنّه سبحانه شهدَ عليهما في هذا الحكمِ، وعلى كلِّ مَن يحكمُ به تشريفاً لحكمِ العدلِ، وإنْ كان شهيدًا على العدلِ والجورِ، ولكنّه سبحانه يخصّ العدلَ بشهادتِه تشريفاً للعدلِ»(35).

فلمّا كان الأمرُ كذلك جيءَ بالضّمير مجموعًا للإشارةِ إلى كونِه قد أصبح علمًا بارزًا، وآيةً بيّنةً في باب العدلِ، «كما قال تعالى:﴿تِلْكَ

(17) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرجر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف، وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1994م، ج5/ص270.

(18) ينظر: ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، ص348.

(19) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ-1997-م، ص 161.

(20) سورة الحجرات: 4.

(21) سورة التحريم: 4.

(22) الأبرص، عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر: ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ-1994-م، ص19، والبيت من مخلّع البسيط. وينظر: الجمحي، محمد بن سلّام بن عبيد الله: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، المملكة العربية السعودية، بدون طبعة، بدون تاريخ، ج1/ص139، وينظر: الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الشيباني: شرح القصائد العشر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، بدون تاريخ: ص 537.

حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴿١٣﴾ (36)؛ نظرًا إلى مَنْ يعملُ بحكمِ الله تعالى في الوصايا، ومن يتبعُه، وأنَّ حكمَ العدلِ يُقتدَى به، والخطأُ ليس بقدوةٍ، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾» (37) (38).

ولكنَّ أبا حيّان(39) يرى أنَّ ضميرَ الجمعِ في لفظةِ ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾ عائدٌ على كلٍّ مِنَ (الحاكمَين، والمحكوم لهما، وعليهما)، وهو رأيٌ – أراه – غيرَ مطابقٍ لسياق الآياتِ؛ لأنَّ الأصلَ في الضَّمير– كما هو معلوم – عَوْدُه إلى أقربِ مذكورٍ(40)، ولأنَّ الجمعَ في دلالة الضّميرِ العائدِ على الاثنين بين نبيّي الله –عليهما السّلامُ – وبين طرفَي الخصومةِ قد يُفَوِّتُ المرادَ من دلالةِ العُدولِ – التي ذكرتُها آنفًا – في مرجعيّةِ المثنّى، على الرّغم من أنّه أمْرٌ واردٌ في لغة العربِ شِعرًا ونثرًا، وليس هناك ما يمنعُ أن تكونَ الآيةُ الكريمةُ قد جاءت على هذه اللّغةِ. وقد نقل السّيوطيُّ في المُزهر قولَ ابن خالَويه في شرح الفصيح: «قد أجمع النّاسُ جميعًا أنّ اللّغةَ إذا وردتْ في القرآن فهي أفصحُ ممّا في غيرِ القرآن، لا خلافَ في ذلك»(41).

وبهذا يتّضحُ أنّ «هذا العدولَ لا يؤدّي إلى فساد المعنى، أو خللٍ في التّركيبِ بين أجزاءِ الجملةِ، أوِ المعنى النّحويِّ، فقد يكونُ هذا لأغراضٍ يتطلّبُها المقامُ ولا يتأتّى المعنَى بدونِها، أو قد يكونُ لضرورةٍ يقتضِيها السِّياقُ»(42). فالخطابُ يمكنُ ترجمتُه في قالبٍ لُغويٍّ، ويعني هذا أنّ ثمةَ ارتباطًا وثيقًا بين البِنيةِ اللُّغويّةِ (التّركيبيّةِ) والدّلالةِ التي تُرادُ مِنَ التّعبير بكلّ نمطٍ، أو تركيبٍ لُغويٍّ، وعلى كلِّ مُتكلّمٍ بليغٍ، أو مُبدعٍ حاذقٍ أن يتخيّرَ من هذه الأوْجُهِ ما هو أجودُ وأنسبُ في إيصال المعنى الذي يقصدُه، مُتوخّيًا في سبيلِ تحقيقِ ذلك الصّيغةَ التّركيبيَّةَ التي تمكّنُه مِنَ التّعبير عمّا يريدُ، وأن يَصطفيَ مِنَ الأساليبِ والتّراكيبِ ما يمكّنُه من تحقيقِ المعنَى المقصودِ لديه على أبلغِ وجْهٍ وأحسنِه.

---

(23) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، القاهرة، ط4، بدون تاريخ، ج2/ص420.

(24) الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة: ديوان الفرزدق، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ–1987م، ص 323، والبيت من بحر الكامل.

(25) ينظر: الخصائص: 2/422.

(26) ديوان الفرزدق: ص 611، وينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص 926، مادة (ح ف ر)، وينظر: إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية، دار الكتب العملية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ–1996م، المجلد السابع، ص 385، والبيت من بحر الطويل.

(27) ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي: ضرائر الشعر، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، القاهرة، ط1، 1980م، ص 256.

(28) أحمد شوقي: الشوقيات ..الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، 1988م، المجلد الأول، ص 36.

(29) ابن عقيل: عبد الله بهاء الدين بن عبد الرحمن: المساعد على تسهيل الفوائد، تحقيق: محمد كامل بركات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1402هـ–1982م، ج1/ص43.

(30) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ–1998م، ج2/ص171.

(31) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: 2/173.

(32) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبوعات سلسلة التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1421هـ–2001م، ج35/ص375، مادة: (ع ث ن).

(33) ابن سيده، الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، اعتنى بتحقيقه: مكتب المحققين بدار إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ–1996م، ج4/ص269.

(34) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: 2/171، والمخصص: 2/583.

(35) تحرير التحبير: 1/348.

(36) النساء: 13.

(37) النساء: 14.

(38) تحرير التحبير: 1/348.

(39) ينظر: البحر المحيط: 6/307.

(40) ينظر: الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات .. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ–1998م، ج1/ص569.

(41) المزهر: 1/168.

(42) أسماء محمد رفعت عبد الحكيم: العدول عن المطابقة بين الضمير ومرجعه .. دراسة نحوية تحليلية في القرآن الكريم، بحث منشور بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة قناة السويس، العدد 21، يونية 2017م، ص 91.

ذَاكِرَةُ الحَنِينِ

عبد الرحمن سبأ

طَلَلٌ وَأَشْجَانٌ وَكَأْسٌ حَافِلَهْ ... وَفَمٌ يُغَرْبِلُ في الضَّجِيجِ رَسَائِلَهْ
يَسْتَلُّ مِنْ تَرَفِ الكَلامِ تَسَاؤُلاً ... وَيُذِيبُ في جَمْرِ التَّسَاؤُلِ سَائِلَهْ
مَاذا بِكَأْسِكَ يَا رَفِيقَ طُفُولَتي؟ ... كَيْفَ اصْطفَى الدَّمْعُ الأَنِيقُ مَنَاهِلَهْ؟
في الكَأْسِ مِنْ وَجَعِ القَصِيدَةِ شَهْقَةٌ ... كَانَتْ لأَحْزَانِ الغِيَابِ "مُجايِلَهْ"
تَرْنِيمَةٌ لِلشَّمْسِ كَانَتْ قِبْلَةً ... تَحْتَلُّ مِنْ بَهْوِ الخُلُودِ مَدَاخِلَهْ
وَغَدَتْ عَلَى سَدِّ الحَنِينِ حِكَايَةً ... تَجْتَرُّ أَنْفَاسَ الغُرُوبِ الذّاهِلَهْ
تُصْغِي إلى الطِّينِ المُعَتَّقِ في دَمِي ... وَتَبُثُّ في سَمْعِ الزَّمَانِ شَمَائِلَهْ
تَشْكُو اغْتِرَابَ المَجْدِ عَنْ أَوْطَانِهِ ... مُذْ جَفَّفَ السَّيْلُ العَقِيمُ جَدَاوِلَهْ
وَتُسَائِلُ التَّارِيخَ أَجَفَلَ أَمْ طَغَى؟ ... أَمْ أَطْفَأَتْ تِلْكَ الدُّرُوبُ مَشَاعِلَهْ؟
في الكَأْسِ تَارِيخُ الحَنِينِ مُجَرَّحًا ... كَمْ أَثْقَلَتْ تِلْكَ الطُّلُولُ كَوَاهِلَهْ
يَرْجُو المَعَاجِمَ أَنْ تُنَكِّرَ "حُزْنَنَا" ... فَإِلَى مَتَى تَبْقَى الإِضَافَةُ فَاعِلَهْ؟
وَجَعَانِ مُحْتَشِدَانِ في آفَاقِنَا ... وَالأَرْضُ يَا بَرْقَ السَّعِيدَةِ ذَابِلَهْ
الوَقْتُ مَصْبُوغٌ بِلَوْنِ جِرَاحِنَا ... وَالوَعْيُ مَسْكُونٌ بِشَمْسٍ آفِلَهْ
أَحْدَاقُنَا لِلتِّيهِ تَنْذُرُ مَاءَهَا ... كَالفَرْضِ يَسْقُطُ في جَلَالِ النَّافِلَهْ
يَا سَيِّدَ الحُزْنِ النَّبِيلِ أَمَا تَرَى ... أَنَّ احْتِمَالَ الحُزْنِ يَقْتُلُ حَامِلَهْ؟
غَادِرْ رَمَادَكَ وَانْبَعِثْ أُسْطُورَةً ... كُنْ جَوْهَرَ القَوْلِ العَظِيمِ وَقَائِلَهْ
وَأَسِلْ حُرُوفَكَ في نُدُوبِ طَرِيقِنَا ... إِنَّ القَصِيدَةَ دَمْعَةٌ مُتَفَائِلَهْ



الإضمار على شريطة التفسير في القرآن الكريم

تَرِدُ في كتب التفسير وإعراب القرآن عبارةُ «الإضمار على شريطة التفسير»، أو «المضمَر على شريطة التفسير»، وهذا الاصطلاح استعمله المتقدِّمون والمتأخِّرون على حدٍّ سواءٍ، وليس له باب خاصٌّ به في كتب النحو يجمع مسائله وصُوَره، لذا قد يكتنفه نوع من الغموض. والمعنى العامُّ للإضمار على شريطة التفسير: أن يُؤتى بالضمير قبل الاسم الظاهر المفسِّر له، أو أن يُحذَف من صَدْرِ الكلام لفظٌ على أن يؤتى بما يدلُّ عليه في آخره، وهذا اللفظ المحذوف إمَّا أن يكون فِعْلاً عاملاً أو اسمًا بمنزلته، وعبَّروا عنه بالإضمار على شريطة التفسير؛ لأنّ شرط إضمار هذا اللفظ أن يأتي بعده ما يُفسِّره، وفي ذلك يقول ابن السَّرَّاج (ت: 316هـ): «واعلم أنّهم لا يُضْمِرون شيئًا قبل ذِكْرِه إلاّ على شريطة التفسير وإنّما خَصُّوا به أبوابًا بعَيْنِها، وحَقُّ المضْمَر أن يكون بعد المذكور» (1).



د. معتز المحتسب
باحث لغوي

ومن أوائل مَن استعمل مصطلح الإضمار على شريطة التفسير إمامُ النَّحْويِّين سيبويه (ت: 180هـ)، إذ يقول: «ولا يجوزُ لكَ أن تقول نِعْمَ ولا رُبَّه، وتَسْكُتَ؛ لأنّهم إنّما بدؤوا بالإضمار على شريطة التفسير، وإنّما هو إضمارٌ مقدَّمٌ قَبْلَ الاسم، والإضمار الذي يجوزُ عليه السُّكوت نحوُ: زيدٌ ضربتُه، إنّما أَضْمَر بعد ما ذَكر الاسمَ مُظْهَرًا، فالذي تقدَّم من الإضمار لازمٌ له التَّفسير حتى يُبيِّنَه، ولا يكون في موضع الإضمار في هذا الباب مُظْهَرٌ»(2).

ومن خلال ما سبق يظهر أنّ للإضمار على شريطة التفسير صورتين رئيستين؛ إحداهما: إضمار العامل على أن يُذكَر بعدَه ما يدلُّ عليه، والأخرى: استعمال الضمير مع تأخُّر مفسِّره لفظًا وتقديرًا. وفيما يأتي بيان هاتين الصورتين، وما ورد منهما في القرآن الكريم:

الصورة الأولى: إضمار العامل على أن يُذكَر بعدَه ما يدلُّ عليه، سواءٌ أكان الاسم المعمول مرفوعًا أم منصوبًا؛ أمَّا إضمار العامل مع كون المعمول مرفوعًا فيكون ذلك إذا ولِيَ أداةَ الشرط اسمٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6]، فلفظ «أَحَدٌ» فاعل لفعل محذوف تقديره «استجارَكَ» يُفسِّره ما بعده؛ أي: وإنِ استجارك أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء:128]؛ والتقدير: وإنْ خافتِ امرأة خافتْ من بعلها نشوزًا، وقولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء:176]؛ أي: إن هلكَ امروٌ هلكَ، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ [الإســـراء:100]؛ أي: لو تملِكون خزائنَ رحمة ربي، والفاعل هو الضمير المتصل (الواو)، ولكنّه حين كان العامل في الآية مقدَّرًا وقع الضمير منفصلاً، وهو (أنتم). ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات:8-9]؛ أي: إذا طُمست النجوم، وإذا فُرجت السماء، وأمثال هذا كثير في القرآن الكريم، وهذا التقدير جارٍ على قول البصريين، فهم يقرِّرون أنّ أداة الشرط تختصُّ بالدخول على الفعل، فإذا دخلت على الاسم في الظاهر فإنّ هذا الاسم معمولٌ لفعل مقدَّر يدلُّ عليه الفعلُ المذكور بعدُ، وليس هذا عندهم على التقديم والتأخير(3).

وأمَّا إضمار العامل مع كون المعمول منصوبًا، فهو ما يُعرَف عند النَّحويِّين بالاشتغال، وهو أن يتقدَّم اسمٌ ظاهر وبعده عاملٌ مشتغلٌ عنه بنصب ضمير ذلك الاسم المتقدِّم، أو مشتغلٌ في محلّ ضميره، أو في مضافٍ إلى ضميره، كما هو مقرَّرٌ في باب الاشتغال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:49]، فلفظ «كُلَّ» منصوب بفعل مضمَر تقديره «خَلَقَ»، يُفسِّره ما بعده؛ أي: إنَّا خلقنا كلَّ شيء خلقناه بقَدَر، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠] فلفظ «ٱلۡأَرۡضَ» منصوب بفعل مضمَر تقديره «دَحا»، يُفسِّره ما بعده؛ أي: ودحا الأرض بعد ذلك دحاها، وكما في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان:31]، فلفظ «ٱلظَّٰلِمِينَ» منصوب بفعل مُضمَر يفسره قوله: «أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا»، والتقدير: ويعذِّب الظالمين. وأمثلة الاشتغال في القرآن كثيرة.

إنّ للإضمار على شريطة التفسير صورتين رئيستين؛ إحداهما: إضمار العامل على أن يُذكَر بعدَه ما يدلُّ عليه، والأخرى: استعمال الضمير مع تأخُّر مفسِّره لفظًا وتقديرًا

إضمار العامل على أن يُذكَر بعدَه ما يدلُّ عليه، سواءٌ أكان الاسم المعمول مرفوعًا أم منصوبًا

إضمار العامل مع كون المعمول مرفوعًا فيكون ذلك إذا ولِيَ أداةَ الشرط اسمٌ

والصورة الثانية للإضمار على شريطة التفسير: استعمال الضَّمير من غير أن يتقدَّمه مُفسِّره، على أن يأتي مُفسِّرُه بَعْدَه، والأصل في مفسِّر الضمير أن يكون قبل الضمير لفظًا ورُتبةً، أو رُتبةً دون اللفظ، ويجوز استعمال الضمير دون ذِكر مفسِّره إذا دلَّ السياق عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:1]، فقد جاء الضمير في (أنزلْنَهُ) من غير أن يتقدَّم مرجع لهذا الضمير يوضِّح المراد منه، والسياق يدلُّ على أنّ الضمير راجع إلى القرآن الكريم، أمّا أن يرد مفسِّر الضمير متأخرًا عنه في اللفظ والرُّتبة فهذا على خلاف الأصل في استعمال الضمير، وهو من الإضمار على شريطة التفسير، ويدخل في هذه الصورة: ضمير الشَّأن والقِصَّة، وهو الضمير المفسَّر بجملة بعدَه، فإنْ كان ضميرَ مذكَّر سُمِّي ضمير الشَّأن، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد:1]، فالضمير «هُوَ» تُفسِّره جملة «ٱللَّهُ أَحَدٌ»، وإن كان ضميرَ مؤنَّث سُمِّي ضمير القِصَّة، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:46]، فالضمير في «فَإِنَّهَا» تُفسِّره جملة: «لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ».

ويدخل في الصورة الثانية أيضًا فاعل (نِعْمَ وبِئسَ) وما جرى مجراهما إذا كان الفاعل ضميرًا، نحو قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف:177]، فالفعل «سَآءَ» فاعله مُضمَر، تقديره «هو»، وهذا الضمير يُفسِّره قوله: «ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ»، ونحو قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف:3]، فالفعل «كَبُرَ» فاعله مُضمَر، تقديره «هو»، وهذا الضمير يُفسِّره قوله: «أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ».

> **الاشتغال، هو أن يتقدَّم اسمُ ظاهر وبعده عاملٌ مشتغلٌ عنه بنصب ضمير ذلك الاسم المتقدِّم**

وذكر المفسِّرون والمعربون في الصورة الثانية أيضًا الإضمارَ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:77]، فالضمير في «فَأَسَرَّهَا» راجع إلى مقالةٍ تفسيرُها: «أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ»، فهو إضمار على شريطة التفسير.

ويدخل في الصورة الثانية أيضًا معمول العامل الأول في باب التنازُع، عند إعمال الثاني في الاسم الظاهر، والمراد بالتنازُع عند النَّحويِّين أن يتقدَّم في اللَّفظ عاملان فأكثَرَ، ويتأخَّر عنهما معمول مطلوب لكلِّ واحد منهما، سواء أكان هذا المعمول مرفوعًا أم منصوبًا أم مجرورًا، فحينئذٍ يعمل أحد العاملين في هذا المعمول الظاهر، ويعمل الآخر في ضمير هذا الظاهر، والذي ورد في القرآن الكريم من أسلوب التنازع كان العمل فيه للعامل الثاني، وعمل الأول في الضمير، إلاّ أنّ الضمير جاء محذوفًا، فلم يرد على سبيل الإضمار على شريطة التفسير، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف:96]، فالمعمول «قِطۡرًا» تنازعه العاملان «ءَاتُونِي» و«أُفۡرِغۡ»، فعمل فيه الثاني، وعمل الأوّل في ضميره، إلاّ أنّ هذا الضمير حُذف لكونه فضلة، ولو كان مثبَتًا لقيل: (آتونيه أفرغ عليه قطرًا)، فلو كان كذلك لكان من الإضمار على شريطة التفسير.

فهذا مفهوم الإضمار على شريطة التفسير، وصورُه الواردة في القرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين.

(1) الأصول في النحو، تح: الفتلي (1/114).
(2) الكتاب، تح: هارون (2/176).
(3) التذييل والتكميل، تح: هنداوي (6/349).

عَثْرَةُ القولِ وعَثْرَةُ الرِّجْل



قالَ ثعلَب: أَجمَعَ أَصحابُنا أَنَّهُ لم يَكُنْ بَعْدَ ابنِ الأَعرابيِّ أَعلَم باللُّغةِ مِنْ يعقوبَ بنِ السّكّيت، وكانَ المُتوكِّلُ قدْ ألزَمَهُ تأديبَ وَلَدِهِ المُعتَزّ بالله، فلَمّا جلسَ عِندَهُ قالَ له: بِأيِّ شيءٍ يُحِبُّ الأَميرُ أَنْ نبدَأَ - يُريدُ مِنَ العُلوم - فَقالَ المُعتَزُّ: بِالانْصراف. قالَ يَعقوبُ: فَأقوم؟ قالَ المُعتَزّ: فَأَنا أَخَفُّ نُهوضًا مِنْكَ، وقامَ فَاسْتَعْجَلَ فَعَثَرَ بِسَراويلِهِ فَسَقَطَ، والتَفَتَ إِلى يَعقوب خَجِلاً وقد احمَرَّ وَجهُهُ، فَأنشدَ يَعْقوب:

يُصابُ الفَتى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسانِهِ
وَلَيْسَ يُصابُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

***

فَعَثْرَتُهُ في القَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ
وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَا عَلَى مَهْلِ

فَلَمّا كانَ الغَد دَخَلَ يعقوبُ على المُتَوَكِّلِ فأَخبَرَهُ بِما جَرى، فَأَمَرَ لهُ بِخَمْسينَ أَلْف دِرهَم وَقالَ: قَدْ بَلَغَني البَيْتان.

التّقَارُضُ الصَّرْفيُّ وبَلَاغَتُهُ في اسْمِ المَفْعُولِ

سُورَةُ الإسْرَاءِ أنموذَجًا

يُعدُّ نزولُ القرآنِ الكريمِ نقطةَ التّحوُّلِ الكبرَى على صعيدِ الثّقافةِ العربيّةِ ولُغتِها، فقد أحدثَ تدفُّقًا معرفيًا في الوعْي، وشكَّلَ حافزًا إلى البَحْثِ والدّراسةِ، فكان المِحْوَرَ الذي دارت حولَه العلومُ الدّينيّةُ والدّنيويّةُ، وهذا ما جعلَ لغةَ القرآنِ الكريمِ المصدرَ الأوّلَ لدارسي اللّغةِ، فساروا في مساربِ بحْثٍ شتّى من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وتفسيرٍ، وفصاحةُ القرآنِ لا تُدانَى، وثقةُ نصّه لا يرقَى إليها الشّكُّ؛ ولذا كان قُطبًا للاستقراءِ ومضمارًا للتّنافس. والتّقارضُ أسلوبٌ من أساليبِ لُغةِ العربِ يَستنبتُ في أديمِها قيمًا بلاغيّةً وجماليّةً، وهو يتشعَّبُ في شعابٍ كثيرةٍ كالتّقارُضِ بينَ الأبْنِيَةِ والأفعالِ والأدواتِ واللّهجات.



د. خليل سويحل
كاتب وباحث

التّقارضُ لغةً:

جاءَ في لسانِ العرب: «القرضُ: القطعُ... وفي حديث أبي الدّرداء: ((وإن قارضتَ النّاس قارضُوك، وإن تركتَهم لم يتركوك)) أي: إن فعلتَ بهم سُوءًا؛ فعلوا بك مثلَه، وإن تركتَهم؛ لم تسلمْ منهم، ولم يَدَعوكَ».

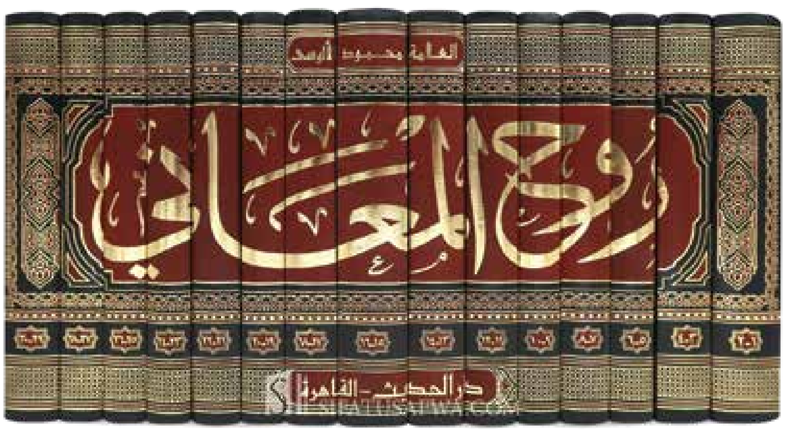
وفي المعجمِ الوسيطِ: «تقارضَا الشّيءَ أوِ الأمرَ: تبادلاه» .

ويلاحَـظُ المتتبِّعُ التَّطوُّرَ الدِّلاليَّ للتّقارُضِ من معنى: (القطع)، إلى معنى: (التّبادلِ)، وهذا شأنُ مُفرداتِ العربيّةِ في تغيُّرِ دلالاتِها تبعًا للسّياق.

التّقارُضُ اصطلاحًا:

لعلَّ أوّلَ من استعملَ مصطلحَ التّقارضِ في التّراثِ النّحويِّ الزّمخشريُّ (ت 538هـ) في قوله: «واعلم أنَّ (إلَّا) و (غيرَ) يتقارضَان ما لكلِّ واحدٍ منهما».

وشرحَ ابنُ يعيش (ت 643هــ) هذا المصطلحَ بقولِه: «يعني: أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يستعيرُ منَ الآخرِ حُكمًا، هو أخصُّ به».



واستطاع ابنُ هشام (ت 761هــ) رصْـدَ بعضِ ظواهرِ التّقارُضِ في النّحوِ، فخصَّصَ القاعدةَ الحاديةَ عشرة من كتابهِ (مُغني اللّبيب) للحديثِ عنِ التّقارُضِ، وممَّا قاله: «من مُلَحِ كلامِهم تقارضُ اللَّفْظَيْنِ فِي الأَحْكَام».

ويُلاحظُ في كلامَي ابنِ يعيش وابنِ هشام التَّرْكِيزُ على استعارةِ الأحكامِ، ويَقصدان بذلك أحكامَ النّحوِ؛ لكون حديثِهما جاء في سياقِ التّقارضِ النّحويِّ.

أمَّا التّقارُضُ الصّرفيُّ؛ فليس فيه استعارةُ أحكامٍ تُغيِّر بنيةَ الكلامِ، وإنَّما فيه اتِّساعُ دلالاتِ الصّيغةِ وإغْنائِها بتضمينِها وَظائِفَ أسلوبيّةً يَشِي بها سياقُ النّصّ.

فالتّقارضُ الصّرفيُّ يفيدُ التّشاركَ الوظيفيَّ والتّفاعُلَ الدّلاليَّ، فاسمُ الفاعلِ ـ مثلًاـ قد يُقصدُ به النِّسبةُ، نحو: تامرٌ، لابنٌ، أي: صاحبُ تمرٍ وصاحبُ لبنٍ ، وقد يقصدُ

به اسمُ المفعول، نحو قولِ الحطيئة :

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتِها
واقعدْ فإنَّك أنت الطّاعمُ الكاسِي

أي: المطعومُ والمكسوُّ، واختيارُ اسمِ الفاعلِ بدلَ اسمِ المفعولِ للمبالغةِ في الهجاءِ.

فالتّقارضُ الصّرفيُّ: هو صِيغةٌ صرفيّةٌ تَنطوِي على دلالةٍ ضمنيَّةٍ لصِيغةٍ صرفيّةٍ أخرَى مع الجمعِ بين دلالتَيْهما.

وهو مصطلحٌ أدقُّ معنًى منَ الاقتراضِ والعُدولِ والانحرافِ لكوْنِ هذه المصطلحاتِ لا تدلُّ على الجمعِ بين معنيَي الصّيغتَين في سياقٍ واحدٍ .

وينوبُ عنِ المفعول في الدَّلالةِ على معناهُ أربعةُ أوزانٍ، وهي:

(1) فَعيلٌ: بمعنى: مفعول، مثلُ: قتيلٍ وذبيحٍ وكحيلٍ وحبيبٍ وأَسيرٍ وطريحٍ، بمعنى مقتولٍ ومذبوحٍ ومكحولٍ ومحبوبٍ ومأسورٍ ومطروحٍ.

(2) فِعْلٌ: مثلُ: ذِبْحٍ وطِحْنٍ وطِرْحٍ ورِعْيٍ، بمعنى مذبوحٍ ومطحونٍ ومطروحٍ ومرعِيٍّ.

(3) فَعَلٌ: مثلُ قَنَصٍ وجَزَرٍ وعَدَدٍ وسَلَبٍ وجَلَبٍ، بمعنى منقوصٍ ومجزورٍ ومعدودٍ ومسلوبٍ ومجلوبٍ.

(4) فُعْلةٌ: كأُكْلةٍ وغُرفةٍ ومُضغةٍ وطُعمةٍ، بمعنى مأكولٍ ومغروفٍ وممضوغٍ ومطعوم.

أمَّا إطلاقُ المصدرِ مُرادًا به المفعولُ؛ فهو كثيرٌ مطَّردٌ، نحو: هذا ضربُكَ وأكلُكَ وكتابتُكَ وعِلمُكَ، بمعنى مضروبِكَ ومأكولِكَ ومكتوبِكَ ومعلومِكَ.

وعمليّةُ التّقارضِ في الصّرفِ تشملُ اسمَ الفاعلِ واسمَ المفعول والصّفةَ المشبّهةَ والمصدرَ، وكي لا تكونَ الدّراسةُ سطحيَّةً سَيُركِّزُ على دراسةِ التّقارضِ في اسمِ المفعول، أي: الصِّيغ التي تُعبِّرُ عن معنى اسمِ المفعولِ من غير صِيَغِه القياسيّةِ، ورصْدِ شواهدِه وبيانِ القيمِ البلاغيّةِ له، وهذا مدارُ البحثِ في سورة الإسراءِ.



الشّـــواهدُ التّطـبـيقيّـــةُ في ســـورةِ الإسراءِ:

﴿حَصِيرًا﴾ :

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ (الإسراء:8).

«قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، فيه قولان: أحدُهما: سِجنًا، قاله ابنُ عباس، والضَّحَّاكُ، وقتادةُ، وقال مجاهدٌ: يُحصرون فيها، وقال أبو عبيدة، وابنُ قتيبة: مَحْبِسًا، وقال الزَّجَّاجُ: ﴿حَصِيرًا﴾: حبْسًا، أُخذ من قولك: حصرتُ الرَّجلَ؛ إذا حبستَه، فهو محصورٌ، وهذا حصيرُه، أي: محبسُه، والحصيرُ: المنسوجُ، سمِّيَ حصيرًا؛ لأنَّه حُصرتْ طاقاتُه بعضُها مع بعضٍ، ويقال للجَنْب: حصيرٌ؛ لأنَّ بعضَ الأضلاع محصورٌ مع بعضٍ، وقال ابنُ الأنباريّ: حصيرًا، بمعنى: حاصِرة، فصُرف من حاصِرة إلى حصير، كما صُرف (مؤلِم) إلى أليم، والثّاني: فراشًا ومهادًا، قاله الحسنُ، قال أبو عبيدة: ويجوزُ أن تكون جهنَّمُ لهم مهادًا بمنزلة الحصيرِ، والحصيرُ: البساطُ الصَّغيرُ»، «فهو إمَّا فَعيلٌ بمعنى: فاعِل، وإمَّا بمعنى: مفعول، على تقدير مُتعلَّقٍ، أي: محصورٌ فيه».

وتكمنُ الدّلالةُ السِّياقيّةُ للتّقارضِ الصّرفيِّ في صِيغة: ﴿حَصِيرًا﴾ في تصوير التّداخلِ والحبكِ والشِّدَّةِ لعذابِ جهنَّم، فلا راحةَ فيها مطلقًا، فهو عذابٌ أبديٌّ دائمٌ، وعلى مستوَى الدّلالةِ الصّوتيّةِ حققتِ الصّيغةُ التّناسُبَ الإيقاعيَّ في الفواصلِ القُرآنيّةِ.

﴿مُبْصِرَةً﴾ :

﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ (الإسراء:12).

«﴿مُبْصِرَةً﴾ : مصدرٌ مفعولٌ له، أي: تَبْصِرَةً»، «وهو اسمُ فاعلٍ بمعنى اسمِ المفعول».

وقــد دلَّــتِ الصِّيغةُ الصّرفيّةُ

﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ بما فيها من تقارُضٍ على شدَّةِ الوضوحِ والانكشافِ لآياتِ الله تعالى في الأكوانِ وسُطوعِ نورِ دلائلِ الحقِّ في ظاهرِها وباطنِها.

﴿رُفَٰتًا﴾:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ (الإسراء:49).

«الرُّفاتُ: ما بُولِغَ في دَقِّه وتَفْتيتِه، وهو اسمٌ لأجزاء ذلك الشّيءِ الـمُفَتَّتِ»، و«الرُّفَاتُ: الأشياءُ المرفوتةُ، أي: المُفَتَّتَةُ، يقال: رَفَتَ الشَّيءَ؛ إذا كسره كِسَرًا دقيقةً، ووزنُ (فُعَالٍ) يدلُّ على مفعول أفعالِ التّجزئة، مثل: الدُّقَاقِ والحُطَامِ والجُذَاذِ والفُتَاتِ».

ومن ذلك ندركُ دلالةَ التّقارُضِ في صيغةِ ﴿رُفَٰتًا﴾ للتّعبيرِ عن شدَّةِ تفتيتِ العظامِ حتى تكادَ تصبحُ ذرَّاتٍ من ترابٍ من جهة، وعظمةِ القُدرةِ الإلهيّةِ في إعادة تكوينِها وإرجاعِها إلى الحياة من جديدٍ من جهة أخرى.

﴿جَزَآءٗ﴾ :

﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ (الإسراء:63).

«الجَزَاء: مصدرُ جزاء على عمل، أي: أعطاه عن عملِه عِوضًا، وهو هنا بمعنى: اسمِ المفعول».

وقد أفادَ التّقارضُ في هذا السّياقِ التّأكيدَ على معاقبةِ المخالفين لأمرِ الله تعالى ترهيبًا وتهديدًا وتحذيرًا لهم وتنفيرًا من أفعالهم، فاستعملَ صيغة ﴿جَزَآءٗ﴾ إمضاءً على تحقّقِ الوعدِ الإلهيِّ، فلا مناصَ منه لمنِ اتّبع أهواءَ إبليسَ، وقد تُليتِ الصّيغةُ باسمِ مفعولٍ قياسيٍّ ترسيخًا للمعنَى وتأكيدًا لَهُ.

﴿نَّصِيرٗا﴾ :

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ (الإسراء:80).

قولُه تعالى:﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندِك سُلْطانًا، وفيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه التّسلُّطُ على الكافرين بالسّيفِ، وعلى المنافقين بإقامةِ الحدودِ، قاله الحسنُ، والثّاني: أنَّه الحُجَّةُ البيّنةُ، قاله مجاهدٌ، والثّالثُ: المُلك العزيزُ الّذي يُقهَرُ به العصاةُ، قاله قتادةُ، وقال ابنُ الأنباريّ: وقولُه تعالى: ﴿نَّصِيرٗا﴾ يجوزُ أن يكونَ بمعنى: مُنْصَرًا، ويصلحُ أن يكونَ تأويلُه ناصرًا» .

وهذا التّقارُضُ الصّرفيُّ في صِيغةِ ﴿نَّصِيرٗا﴾ أفادَ المبالغةَ في النُّصرةِ والحفظِ منَ المكروه وضرورةَ الاستعانةِ بالله عزّ وجلّ والالتجاءِ إِلَيْهِ في جميع الحوائجِ، فهو النّصيرُ لا غيرُه، وجندُ الله تعالى مُؤيَّدون منه سبحانه، ومُؤيِّدون لمن أراد الله نصرتَه.

﴿ظَهِيرٗا﴾ :

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ (الإسراء: 88).

«ظهرَ: الظَّهرُ: الجارحةُ، وجمعُه: ظهورٌ، قال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ - ﴿أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾، والظَّهرُ ههنا استعارةٌ تشبيهًا للذّنوب بالحِمْل الذي ينوءُ بحاملِه، واستُعيرَ لظاهرِ الأرضِ، فقيل: ظهرُ الأرض وبطنُها، قال تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ ورجل مُظهَّرٌ: شديدُ الظَّهر، وظَهِرَ: يشتكي ظَهْرَه، ويُعبَّرُ عنِ المركوب بالظَّهرِ، ويُستعارُ لمن يتقوَّى به... وقال أبو عبيدة: الظَّهيرُ هو المظهورُ به».

وأفادَ التّقارُضُ الصّرفيُّ في ﴿ظَهِيرٗا﴾ المبالغةَ في تصويرِ المعاونةِ والمساعدةِ والتّلاحُمِ والتّكاتُفِ بين الجنّ والإنسِ للإتيان بمثلِ القرآنِ الكريم، وأنّى لهم ذلك؟ وهذا إظهارٌ لعظمةِ كتابِ الله تعالى وقداستِه ومبلغِ إعجازِه.

﴿كِسَفًا﴾:

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ (الإسراء:92).

كِسَفًا: «هو فِعلُ صفةٍ، بمعنى: مفعول، كالطَّحن، بمعنى: المطحون، أي: شيئًا مكسوفًا، أي: مقطوعًا» ، واختيارُ صيغةِ ﴿كِسَفًا﴾ في هذا السّياقِ بما تنطوي عليه من تقارُضٍ بيانٌ لشدَّةِ جحودِهم ونزقِهم ومحاولتِهم التّعجيزَ في الطَّلبِ.

وبعدَ هذا الرّصدِ للشّواهدِ في سورةِ الإسراء نجدُ أنَّ القرآنَ الكريمَ كان دقيقًا في استثمارِ التّقارُضِ الصّرفيِّ لاقتناصِ المعاني، هادِفًا إلى غاياتٍ بلاغيّةٍ إبلاغيّةٍ، تنطوي على إيجازٍ دلاليٍّ مكثَّفٍ، ومجازٍ مُفعمٍ بالإشاراتِ السّياقيّةِ قلَّ نظيرُه، فتنوعّت دلالاتُ التّقارُضِ الصّرفيِّ بين المبالغةِ والتّأكيدِ والتّرغيبِ والتّرهيبِ والتّصويرِ وغيرِها.



لغويّات

- النَّحْوُ والمَجَازُ رُؤيَةٌ نقديّةٌ
- المُنادَى المُخَصَّصُ، وانفصالُ الشَّيْئَيْنِ لفظًا ومَعنًى بلاغةً في التَّبايُنِ
- اللّسَانِيَّات الإِشْهَارِيَّةُ

النَّحْوُ والمَجَازُ رُؤيَةٌ نقديّةٌ

إن سلّمنا بأنّ علمَ النَّحْوِ علمٌ وُضعت قواعدُه لحفْظِ العربيّةِ منَ اللَّحْنِ والخَطأ بعد دخولِ الأعاجمِ في الإسلام، واختلافِ اللّسانِ العربيِّ واخْتِلالِه، فهذا يَجعلُنا نؤمنُ بأنّ النّحوَ علمٌ ينزِعُ إلى الحقيقةِ دون أن يَعترضَ مسارَه الخيالُ، فالنَّحوُ أخُو المنطقِ يجمعُ الحقائقَ دون أن يُمازجَه فنٌّ أو إبداعٌ ... ألا نقولُ: (علمٌ وفنٌّ)؛ فنفصلُ بين العلومِ والفنونِ؟!

ويطيبُ لي أن أنظُرَ إلى النّحوِ بمِنظارِ الإبداعِ النّحويِّ، ولا أَنْطَلِقَ من معيارِ الصّوابِ والخطأ، كما يقولُ الدّكتور مصطفى ناصف: "فالنّحوُ ليس موضوعًا يَحفلُ به المُشتغلون بالمُثُلِ اللُّغويّة، والذين يَروْنَ إقامةَ الحدودِ بين الصّوابِ والخطأ، أو يَروْنَ الصّوابَ رأيًا واحدًا. النّحوُ مَشغلةُ الفنّانينَ والشُّعراءِ، والشّعراءُ والفنّانونَ هُم الذين يَفهمُون النّحوَ، أو هم الذين يُبْدعون النّحوَ، فالنَّحوُ إبداعٌ» (1).

د. خلود إبراهيم النازل
أستاذة النحو والصرف
المساعدة بجامعة حفر الباطن

والإبداعُ النَّحويُّ يربطُ بين النّظامِ الثّابتِ والأداءِ المُتغيّرِ، ويحقُّ للمرءِ أن يتساءَلَ بإخلاصٍ شديدٍ: هل يكونُ النَّحوُ إبداعًا لدَى بعضِ الباحثين الذين يَحصرون أنفُسَهم في غاية النَّحوِ الضَّيّقةِ منَ الإعرابِ والبناءِ فحسب؟ ولا يُشغلون أنفُسَهم بغير القاعدةِ دون كشْفِ طاقتِها وتفاعُلِها في النّصِّ اللّغويِّ، من غير أن يُبيّنُوا كيف يكونُ النّحوُ إبداعًا(2)؟

إنّ العنايةَ بالنّصِّ وتفكيكِه، ومراعاةَ عناصرِ العمليّةِ الاتّصاليّةِ من مُتكلّمٍ ومُخاطَبٍ ومُلابساتٍ مُحيطةٍ هي الطّريقةُ التي تناولَ بها سِيبَويه في كتابِه قواعدَ النّحوِ العربيِّ وسارَ على نهجِه العلماءُ من بعدِه فكان النَّحوُ كما قال ابنُ جنّي (ت 392هـ): «انتحاءُ سمْتِ كلامِ العربِ في تصرُّفِه من إعرابٍ وغيرِه»(3). ولكنّ كثيرًا منَ العلماءِ المُتأخّرينَ انْحرفُوا به من زاويةِ الدِّراساتِ الوصْفيّةِ، إلى الزَّاويَةِ المعياريّةِ، ولم يكنِ النَّحوُ العربيُّ في بدايتِه معياريًّا.


عبد القاهر الجرجاني

وعندما نبحثُ في بطونِ المظانِّ النّحويّةِ، ونُنقّبُ في أحْشَاءِ القواعدِ نجدُ النَّحوَ يرفضُ الانصياعَ للحقائقِ دائمًا، وينزعُ إلى الخيالِ في بعضِ قواعدِه، والرَّابطُ بين النَّحوِ والخيالِ هو المجازُ، فماذا نَعني بالمَجازِ؟

يقول ابنُ جنّي: «الحقيقةُ: ما أُقرّ في الاستعمالِ على أصلِ وضْعِه في اللّغةِ، والمجازُ: ما كان بضدِّ ذلك، وإنّما يقعُ المجازُ، ويُعدلُ إليه عنِ الحقيقة لمعانٍ ثلاثةٍ، وهي: الاتّساعُ، والتّوكيدُ، والتّشبيهُ، فَإنْ عَدِمَ هذِهِ الأوصافَ كانتِ الحقيقةُ البتّةَ» (4).

وقال الشّريفُ الجُرجانيُّ (ت: 816 هـ) في تعريفاتِه: «المجازُ ما جاوزَ، وتعدَّى عن محلِّه الموضوعِ له إلى غيره لمناسبةٍ بينَهما، إمّا من حيثُ الصّورةُ، أو من حيثُ المعنى اللّازمُ المشهورُ، أو من حيث القُربُ أوِ المُجاورةُ»(5).

وفي المُزهر للسّيوطيّ (ت: 911 هـ): «المجازُ كلُّ كلامٍ تُجوّزَ به عن موضوعِه الأصليّ، إلى غيرِ موضوعِه الأصليّ لنوعِ مقارنةٍ بينَهما في الذّاتِ أوِ المعنى»(6).

وقال صاحبُ الكلّيات (ت 1094 هـ): «كلُّ جملةٍ أخرجتِ الحكمَ المُفادَ بها عن موضوعِه في العقل لضرْبٍ منَ التّأويلِ، فهي مجازٌ»(7).

فالمجازُ منَ التّعريفات السّابقةِ عُدولٌ وخروجٌ، ومن صُوَرِ المجازِ اللّغويِّ الذي يدورُ في فلكِ استعمالِ اللّفظةِ في غيرِ ما

وُضعت له التّغليبُ، والتّغليبُ ليس في كلّ حالاتِه مجازًا(8)، ولعلّ ما يُعدُّ من باب هذه الظّاهرةِ يدورُ في فلكِ الخروجِ عن مقتضَى الظّاهرِ، الذي لا بدَّ له من تأويلٍ لئلّا يُوسمَ بالغلطِ أوِ الشّذوذِ، على الرّغمِ من توفّرِه في شواهدَ كثيرةٍ في القرآنِ الكريم، والحديثِ الشّريفِ وكلامِ العرب نظْمِه ونثْرِه، وله مُسوِّغاتٌ كثيرةٌ منها: الشُّهرةُ، والكثرةُ، والقُربُ، وغيرُها... (9) ومن صُـوَرِه تغليبُ المذكّر على المؤنّثِ كقولك: هذا شاةٌ قياسًا على قوله تعالى: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [سورة الكهف:98]...(10). ولا شكّ أنّ هذا التّغليبَ منَ التّوسّعِ في لغة العرب.

ويمثّلُ ابنُ جنّي للتّوسّعِ بقوله: «فمن ذلك قولُ النّبي صلّى الله عليه وسلّم في الفَرَس: (هو بحرٌ)(11). فالمعاني الثّلاثةُ موجودةٌ فيه، أمّا الاتّساعُ، فلأنّه زاد في أسماء الفرس التي هي فرسٌ وطِرْفٌ وجوادٌ ونحوُها (البحرَ)، حتّى إنّه إنِ احتيج إليه في شعرٍ أو سجعٍ أوِ اتّساعٍ استُعملَ استعمالَ بقيّةِ تلك الأسماء؛ لكن لا يُفضَى إلى ذلك إلّا بقرينةٍ تُسقطُ الشُّبهةَ، وذلك كأن يقولَ الشّاعرُ:

عَلَوتَ مَطا جَوادِكَ يَوْمَ يَوْمٍ
وَقَدْ ثَمِدَ الجِيادُ فَكَانَ بَحْرا(12)

وكأنْ يقولَ السّاجعُ: «فرسُك هذا إذا سما بغرّتِه كان فجرًا، وإذا جرى إلى غايتِه كان بحرًا، ونحوَ ذلك، ولو عَرِيَ الكلامُ من دليلٍ يُوضّحُ الحالَ لم يقع عليه بحرٌ؛ لِما فيه منَ التّعجرُفِ في المقالِ من غير إيضاحٍ ولا بيانٍ، ألا ترى أن لو قال: رأيتُ بحرًا، وهو يريدُ الفرسَ لم يُعلمْ بذلك غرضُه، فلم يَجُز قولُه؛ لأنّه إلباسٌ، وإلغازٌ على النّاسِ»(13).

فابنُ جنّي هنا يشترطُ في التّوسّعِ شرْطًا، وهو عدمُ الإلباسِ، ألا ترى أن لو قال: (رأيت بحرًا)، وهو يريد الفرَسَ لم يُعلمْ بذلك غرضُه، فلم يَجُزْ قولُه؛ لأنّه إلباسٌ، واللّبسُ في اللّغةِ يُفقدُ التّواصُلَ الذي هو غايةُ اللّغةِ.

إنّ هذا الخروجَ عنِ الحقيقة في اللّغةِ هو لوْنٌ منَ المَجازِ؛ لذلك كما يرَى ابنُ جنّي، فإنّنا نَعدلُ عنِ الحقيقةِ اتّساعًا، ولعلّ ابنَ جنّي من أكثرِ العلماءِ الذين نظَرُوا إلى التَّوسّعِ والمجازِ نظْرةً شُموليّةً، تدلُّ على سَعةِ أُفُقِه، بل إنّه يرَى أنّ اللّغةَ مَجازٌ في مَجازٍ.

ويرَى ابنُ جنّي أيضًا أنّ أكثرَ كلام العربِ مَجازٌ لا حقيقةٌ، وله تحليلٌ جميلٌ في ذلك يقولُ: «وكذلك قولُك: (ضربتُ عمرًا) مَجازٌ أيضًا... وذلك أنّك إنّما فعلتَ بعضَ الضّربِ لا جميعَه ولكنْ من جهةٍ أُخرى، وهو أنّك إنّما ضربْتَ بعضَه لا جميعَه، ألا تراكَ تقولُ: (ضربتُ زيدًا) ولعلّك إنّما ضربْتَ يدَه أو إصْبَعه أو ناحيةً من نواحِي جسدِه، ولهذا إذا احتاطَ الإنسانُ، واستظْهرَ جاء ببَدَلِ البعضِ، فقال: (ضربتُ زيدًا وجْهَه أو رأسَه). نعم، ثمّ إنّه مع ذلك مُتجوّزٌ، ألا تراه قد يقولُ: (ضربتُ زيدًا رأسَه)، فيبدلُ للاحتياطِ، وهو إنّما ضربَ ناحيةً من رأسِه لا رأسَه كلَّه، ولهذا بات يحتاطُ بعضُهم في نحوِ هذا، فيقولُ: (ضربتُ زيدًا جانبَ وجهِه الأيمنَ)، أو (ضربتُه أعلى رأسِه الأسمقَ)؛ لأنّ (أعلى رأسه) قد تختلفُ أحوالُه، فيكون بعضُه أرفعَ من بعضٍ»(15).

إنّ هذا التَّحليلَ اللّغويَّ منِ ابنِ جنّي ذو قيمةٍ كبيرةٍ في إدراكِ وجوهِ المجازِ

إنّ هـذا الـخـروجَ عنِ الحقيقةِ في اللّغةِ هو لونٌ منَ المَجازِ؛ لذلك كما يرَى ابنُ جنّي، فإنّنا نَعدلُ عنِ الحقيقةِ اتّساعًا

لعلّ ابنَ جنّي من أكثرِ العلماءِ الذين نظَرُوا إلى التَّوسّعِ والمجازِ نظْرةً شُموليّةً، تدلُّ على سَعةِ أُفُقِه، بل إنّه يرَى أنّ اللّغةَ مَجازٌ في مَجازٍ

إنّ تأمّلَ التّراكيبِ ودلالاتِها، بحيث يتغيّرُ المعنى لأبسَطِ تغييرٍ بالتّركيبِ؛ لَيدُلُّنا على براعةِ اللّغةِ وإبداعِ النّظمِ

في العربيّةِ، ونجدُه بتفصيلٍ وتمثيلٍ أكبرَ في بابِ المَجازِ إذا كثُرَ لحِقَ بالحقيقةِ( )، فمزيدٌ منَ التّأمّلِ للتّراكيبِ يُجلّي لنا نظرةَ العلماءِ، ومرونةَ العربيّةِ بين الحقيقةِ والمجازِ؛ ممّا يُفسحُ لنا المجالَ لتحليلاتِ النّحويّين وفهْمِها. إنّ التّأمّلَ في الفكرِ النَّحويِّ ودراستَه هو عملٌ يلحقُ بغايةِ وجودِنا، وهي التّفكّرُ في آياتِ الله، واللُّغةُ آيةٌ عجيبةٌ يُمتعُ الباحثَ التّفكّرُ فيها.

وللمجاز صُوَرٌ كثيرةٌ متناثرةٌ في كتبِ النّحويّين، ولا نُبْعِدُ الحقيقةَ إذا قلنا بأنّ المَجازَ هو في بعضِ صُوره تفنّنٌ في القولِ، وإبداعٌ في استعمالِ اللّغةِ بوجْهٍ غيرِ الوجْهِ المألوفِ.

ومن أنواعِ المَجازِ النَّحويِّ:

التّضمينُ:

ممّا يدخلُ تحت هذه القضيّةِ موضوعُ التَّضمينِ، ويرى كثيرٌ منَ العلماءِ أنّ التَّضمينَ النّحويَّ من أبوابِ المَجازِ، وليس من بابِ الحقيقةِ.

لقد ذكرَ سِيبَويهِ التَّضمينَ ولم يُصرّحْ به، إذ يقول: "(ودعوتُه زيدًا)، إذا أردتَ (دعوته) التي تجري مجرَى سَمَّيْتُهُ، وإن عنيتَ الدّعاءَ إلى أمر لم يُجاوزْ مفعولاً واحــدًا»(16). فقد نبّه في هذا المثالِ إلى تضمينِ الفعل (دعا) دلالةَ الفعلِ (سمّى)، فيتعدّى تعديتَه، فسِيبَويه لم يذكرْ مصطلحَ التَّضمين بصريحِ اللّفظ، لكنّه واضحٌ من لازمِ معناه، هذا النَّصُّ الذي ذكره سِيبَويه كان هو النّواةَ لظهورِ مصطلحِ التّضمين الذي ظهرَ بعد ذلك عند العلماء، وأبْرزُهم ابنُ جنِّي.

قال ابنُ جنِّي «اعلم أنّ الفعلَ إذا كان بمعنى فعْلٍ آخرَ، وكان أحدُهما يتعدَّى بحرفٍ، والآخرُ بآخرَ، فإنّ العربَ قد تتّسعُ، فتُوقعُ أحدَ الحرفَين موقعَ صاحبه؛ إيذانًا بأنّ هذا الفعلَ في معنى ذلك الآخرِ، فلذلك جيءَ معه بالحرف المُعتادِ مع ما هو في معناه»(17).

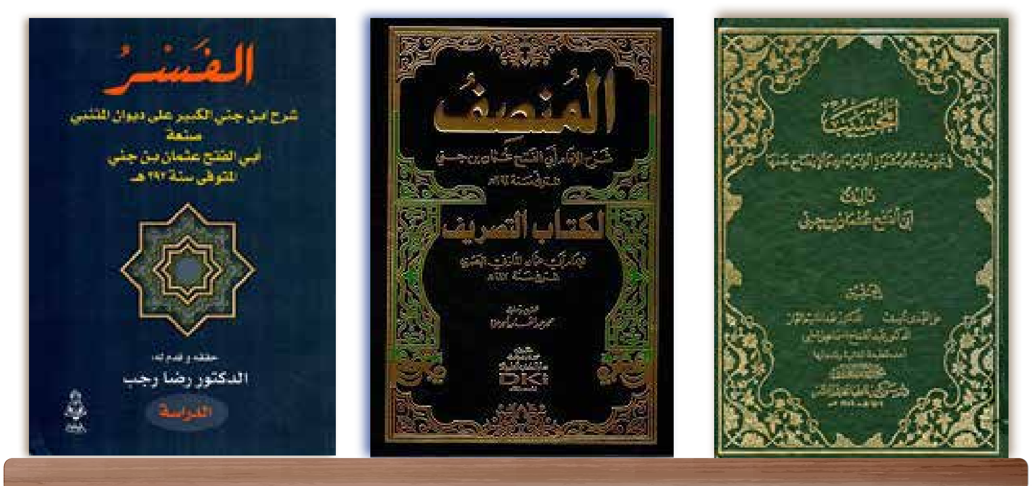
ويقول الأشمونيُّ (ت 929هـ) في التّضمين:«إشرابُ اللّفظِ معنى لفظٍ آخرَ، وإعطاؤه حكمَه لتصيرَ الكلمةُ تُؤدّي مُؤدّى الكلمتَين»(18).

وعرّفه الكفويُّ: بقوله: «هو أن يُحمّلَ اللّفظُ معنًى غيرَ الذي يستحقُّه بغيرِ آلةٍ ظاهرةٍ»(19).

ويرى الصّبّانُ (ت 1206هـــ): أنّ الأولى أن يقالَ: «التَّضمينُ إلحاقُ مادّةٍ بأخرَى في التّعدّي واللُّزومِ؛ لتناسُبٍ بينهما، أوِ اتّحادٍ»(20)

وقد وردتْ كثيرٌ منَ التّعريفاتِ لمجموعةٍ منَ العلماءِ منهم: ابنُ هشامٍ، والزّركشيُّ والسّيوطيُّ، إلى الصّبّانِ، وتعريفُ الصّبّان عليه دارت معظمُ تعريفاتِ المُحْدثين وهو: «إلحاقُ مادّةٍ بأخرَى في التّعدّي واللّزوم»(21). ولكنَّ الاختلافَ بين العلماءِ يدورُ في نوعِه، من حيثُ الحقيقةُ والمجازُ، والحكمُ عليه بالقياسِ أوِ السَّماعِ.

وأثرُ التّضْمينِ في اللّغة ظاهرٌ لأنّه يجعلُ الكلامَ أخْصرَ، فتُؤدّي الكلمةُ معنى كلمتَين، وفي ذلك جمْعٌ بين الحقيقةِ والمَجازِ لدلالةِ المذكورِ على معناه بنفسه، ومن أمثلتِه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ [سورة المطففين:2]، فمُقتضَى السّياقِ في غيرِ القرآن (اكتال من، وليس اكتال



على)، والفعلُ (اكتال) عُدّيَ في الآية بحرف الجرّ (على) للدّلالةِ على التّسليطِ؛ لأنّ هؤلاء المُطفّفين لم يكتالُوا منَ النّاس، بل بالاكتيالِ تسلّطُوا عليهم، ولو كان الاكتيالُ أمرًا طبْعيًّا لقال: (اكتالوا منَ النّاس)، فالفعل (كال)، يتعدَّى بنفسه في الأصلِ، أو باللّام، ولكنْ في القرآن لم تردْ (كالوا لهم)؛ لأنّ اللّام تفيدُ الاستحقاقَ، فقال: (كالوهم)؛ لأنّهم ظلمُوا النّاس في الكيل، وفي تعدِّي الفعل (اكتال) بالحرف (على) إفادةُ التّسلّطِ والظّلم(22).

وفي قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الإنسان:6]، فالفعل (يشربُ) ضُمِّن معنى (يروي)؛ لأنّه لا يتعدّى بالباء، فأريد به الشّرب والرّيُّ معًا، وهذا اختصارٌ للّفظِ وتوسيعٌ للمعنَى(23).

وللتَّضمينِ صُورٌ متعدّدةٌ، فيكونُ بين فعلَيْن، وبين الأسماءِ والأفعالِ، وبين أسماءِ الأفعالِ والحروفِ وغيرِ ذلك.. ومن صُوَرِه: تضمينُ فعلٍ لازمٍ دلالةَ فعْلٍ متعَدٍّ مثل قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ ، فقد تضمّنَ الفعلُ (استبق) معنى (ابتدرَ) فتعدّى تعْدِيتَه(24). وقد يكونُ بتضمينِ فعلٍ مُتَعَدٍّ دلالةَ فعْلٍ لازم مثل: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ ، فقد تضمّنَ الفعلُ (أصلح) معنى (بارك)(25).

إنّ التّضمينَ النّحويَّ لونٌ منَ التّوسّعِ في قوانينِ اللّغةِ، ولكنّه كما نرَى لا يسيرُ اعتباطًا، وإنّما وَفْقَ قوانينَ ضابطةٍ له، فلا بدَّ لفهمِ المعنَى من معرفةِ الدّلالةِ، وهذه الدّلالةُ لا تتّضحُ إلّا بالقرائنِ، وفي كلِّ مثالٍ للتَّضمينِ لا بدَّ من قرينةٍ تُحدّدُ المعنَى، وهذا دليلٌ على أنّ التَّضمينَ توسُّعٌ خرجَ من دائرةِ الحقيقةِ إلى دائرةِ المجازِ(26).

فهَلِ التَّضمينُ حقيقةٌ أم مجازٌ؟

تعدّدتِ الأقــوالُ والآراءُ في كونِ التَّضمينِ حقيقةً أم مجازًا، وقد ذكرَ عبّاس حسن في بابِ أقوالِ العلماءِ في التَّضمينِ، الذي عرَضَ فيه لأقوالِ القُدامَى والمُحْدَثين أنّ:«التَّضمينَ إيقاعُ لفْظٍ موقعَ غيرِه لِتضمُّنِه معناه، وهو نوعٌ منَ المجازِ» (27). فإن كنّا اتّفقنا على أنّ التَّضمينَ كلمةٌ تُؤدّي مُؤدَّى كلمتَين، مثل: ﴿يُؤْلُونَ﴾ تضمّنت معنى (يمتنعون) من نسائهم بالحلِفِ، فالإيلاءُ هو الحلِفُ، وضمّنَ معنى الامتناعِ، فالحلِفُ معنى حقيقيٌّ، واستعمالُه بمعنى الامتناعِ مجازٌ، وذلك جمعٌ بين الحقيقةِ والمجازِ. وقيل: «إنّ التّضمينَ من بابِ المَجازِ، ويُعتبرُ المعنى الحقيقيُّ قيدًا، وهذا هو الذي اعتبرَه الزّمخشريُّ»(28). وتعليقًا على قول ابنِ جنِّي: "إنّ العرب قد تتّسعُ، فتُوقعُ أحدَ الحرفَين موقعَ صاحبِه..."(29). فالتَّضمينُ مجازٌ مرسلٌ؛ لأنّه استعمالُ اللّفظِ في غير معناه لعلاقةٍ بينَهما وقرينةٍ... وقد تعدّدتِ الآراءُ، واختلفت في كونه حقيقةً، أو مجازًا مرسلًا، أو يجمعُ بين الحقيقة والمجازِ لدلالةِ المذكورِ على معناه بنفسه، وعلى معنى المحذوفِ بالقرينةِ...(30).

إنّ تأمّلَ التّراكيبِ ودلالاتِها، بحيث يتغيّرُ المعنى لأبسَطِ تغييرٍ بالتّركيبِ؛ لَيدُلّنا على براعةِ اللُّغةِ وإبداعِ النّظمِ



الذي أشار إليه الجُرجانيُّ، «فالجُرجانيُّ يربطُ المعنَى بطُرقِ الأداءِ ربْطًا لا يجوزُ بعدَه الحديثُ عنِ المعنَى، كلٌّ على انفرادٍ، فإذا تغيّرت صُورةُ التّركيب، تغيّرَ المعنَى بمقدارِ تغيُّرِ الصُّورةِ، فهي لغةٌ تؤخذُ ولا تُقاسُ، وإنّما يُفتّشُ عن صحّة استعمالاتِها ومواقعِها. فإذا قيلَ: جلسَ على يمينِي يعني مُتمكّنًا مُستعْليًا، وإذا قيلَ عن يمينِي يعنِي مُنحرفًا مُتجافيًا، وشأنُ النّظمِ في الكلامِ كشأنِ الأصباغِ تُحدثُ ضُروبًا مِنَ الألوانِ حين يدخلُ بعضُها في بعضٍ«(31).

الحَذفُ:

الحذفُ في كلامِ العربِ سِمَةٌ من سِماتِ العربيّةِ، وقد يُحذفُ مِنَ الكلامِ أجزاءٌ، فنجدُ في حذفِها خصوصيّةً، فكثيرًا ما يردُ مجازُ الحذفِ في الاستعمال أبلغَ مِنَ الحقيقةِ، فهو يكسبُ الكلامَ حلاوةً، ويكسُوه رشاقةً. ويقول فيه عبدُ القاهر الجُرجانيُّ: «هو بابٌ دقيقُ المسْلكِ، لطيفُ المَأخذِ، عجيبُ الأمرِ، شبيهٌ بالسّحرِ، فإنّك ترَى به ترْكَ الذّكرِ، أفصَحَ مِنَ الذّكرِ، والصّمتَ عنِ الإفادةِ، أزْيَدَ للإفادة، وتجدُك أنطَقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ، وأتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تُبِنْ»(32). إنّ هذا القولَ للجُرجانيِّ يكشفُ لنا عنِ القيمةِ البلاغيّةِ للحذفِ، ولعلّ من أبْرَزِ صُوَرِه عند النَّحويّين: حذْفَ الفعلِ، وحذفَ المفعولِ به، وله قيمةٌ بلاغيّةٌ هيَ الاختصارُ، ويشيرُ الجُرجانيُّ إلى قِيمَةِ هذا الحذْفِ في الكلامِ كما سبقَ، ثمّ يشيرُ إلى شَرْطِه في باب حذفِ المفعولِ به قائلًا: «إلّا أنّه يحذفُ مِنَ اللّفظِ لدليلِ الحالِ عليه»(33). ومن صُوَرِها:

حذفُ الفعلِ: ويتَّضحُ ذلك عند سِيبَويه، من ربْطِ الجُملِ المُختزلةِ لُغويًّا التي لا يُفهمُ معناها إلّا بسياقِها كما في قولِه: «وحدّثنا بعضُ العربِ، أنَّ رجُلًا من بني أسدٍ، قال يومَ جَبَلَةَ، واستقبلَه بعيرٌ أعْوَرُ؛ فتطيَّر منه، فقال: يا بني أسد، أعْوَرَ وذا نابٍ!(34)، فلم يُرِدْ أن يَسترشِدَهم ليُخبِروه عن عَوَره وصحّتِه، ولكنّه نَبَّهَهم، كأنّه قال:

---

(1) النحو والشعر: قراءة في دلائل الإعجاز، مصطفى ناصف، ص36، مجلة فصول، ع3، 1981م.
(2) انظر: النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف، القاهرة، دار غريب، 2006م، ط2، ص 34– 35.
(3) الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجّار، المكتبة العلمية، د.ت، ج1، ص34.
(4) الخصائص، ابن جني، ج2، ص442.
(5) التعريفات، الشريف الجرجاني، بيروت، دار الكتب العلمية، 2013م، ص202.
(6) المزهر، السيوطي، تحقيق محمد جاد المولى وآخرين، القاهرة، مكتبة دار التراث، د.ت، ج1، ص 365.
(7) الكليات، الكفوي، القاهرة، دار الحديث، 2014م، ص 361.
(8) انظر: ظاهرة التغليب في العربية، عبد الفتّاح الحموز، الكرك، جامعة مؤتة، 1993م، ط1، ص14.
(9) انظر: ظاهرة التغليب في العربية، عبد الفتّاح الحموز، ص29.
(10) انظر: الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2004م، ط4 ج3، ص–562 563.
(11) في كتاب الأدب من صحيح البخاري: "عن أنس بن مالك قال: كان فزع بالمدينة، فاستعار النبي صلّى الله عليه وسلّم فرسًا لنا يقال له: مندوب. فقال: ما رأينا من فزع، وإن وجدناه لبحرًا" صحيح البخاري، تحقيق عبد السلام علّوش، الرياض، دار الرشد، 2014، ط5، ص864، رقم الحديث: 6212.
(12) قال محقق الخصائص تعليقًا على نسبة هذا البيت: "يبدو أنّ هذا البيت من نظمه، ذكره مثالًا لما أراد. والمطا: الظّهر. وقوله: (يوم يوم) أي يوم اليوم الذي تعرفه، وانظر في هذا سيبويه ج2، ص53، وقوله: (ثمد الجياد) أي: أعيين من قولهم: ماء ثمود: كثر عليه النّاس حتّى فني ونفد إلّا أقلّه". الخصائص، ابن جني، ج2، ص442.
(13) الخصائص، ابن جني، ج2، ص442.
(14) الخصائص، ابن جني، ج2، ص450.
(15) الخصائص، ابن جني، ج2، ص447.
(16) الكتاب، سيبويه، ج1، ص37.
(17) الخصائص، ابن جني، ج2، ص308.
(18) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، محيي الدين عبد الحميد، تحقيق عادل عبد المنعم، دار الطلائع، 2014م، ج2، ص257.
(19) الكليّات، الكفوي، ص640.
(20) حاشية الصبّان على شرح الأشموني، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مصر، المكتبة التوفيقية، د.ت، ج2، ص138.
(21) انظر: التضمين النحوي صوره وأغراضه، الزيتوني عبد الغني، بومرداس، جامعة أمحمد بوقرة، ص166–167.
(22) انظر: من وجوه التوسّع في العربية عرضًا وتتبعًا، حنان بالنور، ليبيا، مجلة التربوي، 2014م، ع4، ص348.

أتستقْبِلون أعورَ وذا نابٍ! فالاستقبالُ في حالِ تنبيهِه إيّاهم كان واقعًا، كما كان التّلوُّنُ والتّنقّلُ عندك ثابتَينِ في الحال الأوّل، وأراد أن يثبِّتَ لهمُ الأعورَ ليحذرُوه«(35). فسِيبَويه هنا يُـحلِّل الكلامَ حسبَ الموقفِ، وهكذا يُقدِّرُ الحذفُ في ضوءِ التَّفسير الدّاخليّ، ثمَّ يلاحظُ كيف ينصرفُ الاستفهامُ إلى التَّوبيخ والتَّقرير في ضوءِ مُعطياتِ الموقفِ(36).

حذْفُ المفعولِ به: يشيرُ الجُرجانيُّ إلى بلاغتِه وقيمتِه بقولِه: "فاعلمْ أنّ أغراضَ النّاسِ تختلفُ في ذكْرِ الأفعالِ المُتعدّيةِ، فهم يذكرونَها تارةً، ومرادُهم أن يقتصِرُوا على إثباتِ المعاني التي اشتقّتْ منها للفاعِلين، من غير أن يتعرّضُوا لذكرِ المفعولِين، فإذا كان الأمرُ كذلك كان الفعلُ المُتعدّي كغيرِ المُتعدّي، مثلاً في أنّك لا ترى له مفعولاً لا لفظًا ولا تقديرًا، ومثالُ ذلك قولُ النّاس: فلانٌ يحلُّ ويعقدُ، ويأمرُ وينهَى، ويضرُّ وينفعُ، وكقولِهم: هو يُعطِي ويجزلُ، ويَقري ويضيفُ..."(36). إنّ عبدَ القاهر يقفُ في باب الحذْفِ على بلاغتِه، فحذفُ المفعول به فيما سبقَ كان يرمِي لغايةٍ هي إثباتُ الفعل للفاعل، ويُمثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [سورة النجم:43]، والحذفُ للعلّةِ السّابقةِ وهي إثباتُ المعنَى، ولا تصحُّ تعدِيتُه؛ لأنَّ تَعديتَه تنقضُ المعنى(37).

وخلاصةُ القولِ: إنّ التَّوسّعَ يتداخلُ مع المَجازِ في وجوهٍ كثيرةٍ كما رأينا في الحذْفِ، والتّضمينِ، وهو بابٌ منَ العربيّةِ يُشعرُنا بجمالِ اللُّغةِ والتّصرّفِ فيها، بشرْطِ وجودِ القرينةِ التي تمنعُ اللّبسَ، وعادةً تكونُ هذه القرينةُ حالَ المخاطَبِ منَ العلمِ والفهمِ أوِ الجهلِ، ولا يَفهمُ المخاطبُ ذلك إلّا إذا كان كسَرَ الاختيارَ منَ العُرفِ اللُّغويِّ؛ أي: من سَليقةِ المُتكلّم والمُستمعِ معًا وكفايةِ كلٍّ منهما اللّغويّةِ، وهذا هو الجانبُ الإبداعيُّ في اللّغةِ.(38).

---

(23) انظر: من وجوه التوسّع في العربية عرضًا وتتبعًا، حنان بالنور، ص348.

(24) انظر: التضمين النحوي صوره وأغراضه، الزيتوني عبد الغني، ص169.

(25) انظر: التضمين النحوي صوره وأغراضه، الزيتوني عبد الغني، ص169.

(26) القرائن: جمع قرينة وقد عرّفها الشريف الجرجاني بقوله: "أمر يشير إلى المطلوب" التعريفات، ص175، وعندما نرجع لمصنفات النحو ونتتبع أصل المصطلح، ونبدأ بأوّل مصنّف نحوي وهو الكتاب، لا نجد اسم قرينة بلفظه الحالي، وإنّما وجدنا ما يقوم مقامه، وهو: الدليل، وقد تابعه في استعمال المصطلح المبرّد، وابن السرّاج، ويمكن القول أنّ مصطلح القرينة قد نشأ في الدرس الفقهي، والقرائن أنواع: معنوية أو لفظية... ينظر: القرائن وأثرها في التوجيه النحوي عند سيبويه، لطيف الزّاملي، بيروت، دار الانتشار العربي، 2014م، ص15–19.

(27) النحو الوافي، عبّاس حسن، مصر، دار المعارف، د.ت، ط3، ج2، ص522.

(28) النحو الوافي، عبّاس حسن، ج2، ص525.

(29) الخصائص، ابن جني، ج2، ص308.

(30) قال السيوطي في الأشباه والنظائر: "قال الزمخشري: من شأنهم يضمّنون الفعل معنى فعل آخر؛ فيجرونه مجراه، ويستعملونه استعماله، مع إرادة معنى المتضمن. قال: والغرض في التضمين إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى" ج1، ص241 وقال ابن جني: "ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئا كثيرًا لا يكاد يحاط به، ولعلّه لو جمع أكثره لا جميعه لجاء كتابًا ضخمًا، وقد عرفت طريقه، فإذا مرّ بك شَيْءٌ منه، فتقبله، وآنس به، فإنه فصل من العربية لطيف حسن" الخصائص، ج2، ص310.

(31) التضمين النحوي في القرآن الكريم، محمد نديم فاضل، المدينة المنوّرة، دار الزمان، 2006م، ص46.

(32) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، بيروت، دار المعرفة، 1981م، ص112.

(33) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص120.

(34) المثل من الأمثلة النحوية التي أوردها النحاة، وقد ورد في شرح التسهيل لابن مالك، ج2، ص195.

(35) الكتاب، سيبويه، ج1، ص343.

(36) انظر: سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة، أسعد العوادي، الأردن، دار الحامد، 2011م، ط1، ص55.

(37) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص119.

(38) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص119.

(39) انظر: سيبويه والمدرسة التوليدية التحويلية، عبدالله جاد الكريم، القاهرة، مجلة كلية دار العلوم، 2010م، ص18.

المُنادَى المُخَصَّصُ، وانفصالُ الشَّيْئَيْنِ لفظًا ومَعنًى بلاغةً في التَّبايُنِ

يمكنُ الإشارةُ إلى المنادَى المُخصَّصِ من خلال ما جاء في ردِّ البَطَلْيَوْسيِّ على سؤال السَّائل عن كيفيَّةِ القولِ في قولنا: يا حليمًا لا يَعْجَلُ، ويا جوادًا لا يبخلُ، في صفات الله: إنَّه مُنَادًى منكورٌ، والقصدُ به الله تعالى، وإنْ كان معرفةً، فكيف انتصبَ، وخرج مخرجَ التّنكير؟ والمعلومُ أنَّ المنادَى المعرفةَ مبنيٌّ.

فقال البَطَلْيَوْسيُّ: "إنَّ الوجهَ في هذا، وما أشبَهَهُ من صفاتِ الله أنْ يُقال فيه: إنَّه مُنَادًى مُخصَّصٌ، وهذه عبارةٌ غيرُ معتادةٍ عند النَّحْويِّين...ومعنى قولنا: إنَّه مُنَادًى مُخصَّصٌ: أنَّ حليمًا، وجوادًا، وعالمًا، ونحوَه صفاتٌ يوصَفُ بها الباري، جلَّ جلالُه، ويُوصَفُ بها المخلوقون، وهي وإنِ اتّفقت ألفاظُها مُتباينةٌ في المعاني، كما أنَّنا إذا قُلنا في البارئ تعالى: إنَّه سميعٌ بصيرٌ، وقلنا في زيد: إنَّه سميعٌ بصيرٌ، فالمعنى مختلِفٌ.



أ.د. فايز صبحي تركي
أستاذ النَّحو والصَّرف
-جامعة السلطان قابوس

وإنِ اتَّفقت العبارةُ؛ لأنَّ زيدًا سميعٌ بأذُنٍ، بصيرٌ بحدَقةٍ؛ لأنَّه ذو جوارحَ وأبعاضٍ مُجتمعةٍ، والله تعالى مُنزَّهٌ عن مِثْلِ هذه الصِّفات، جلَّ عمَّا يصفُه به الجاهلون، وتقدَّس ممَّا يقوله فيه المُبطلون...وليس بين الباري- تعالى- وبين مخلوقاته اشتباهٌ في معنًى مِنَ المعاني، فإذا أرادوا أنْ يجعلوا هذه الصّفاتِ مُختصّةً به تعالى زادوا عليها ألفاظًا تُخصِّصُها، وتجعلُها مقصورةً عليه، فقالوا: يا حليمًا لا يعجَلُ، ويا جوادًا لا يبخلُ، وياعالمًا لا يجهلُ، ونحوَ ذلك، فصارت هذه الصِّفاتُ خاصّةً به، لا يصحُّ أنْ يوصف بها غيرُه؛ لأنَّ كلَّ حليم فلابدَّ له من طيشٍ وهفوةٍ، وكلَّ جوادٍ فلابدَّ له من بُخْلٍ وعِلَّةٍ، وكلَّ عالمٍ فلابدَّ له من جهلٍ وحيرةٍ.

فأمَّا الحلمُ المحضُ الذي لا يلحقُه طيشٌ، والجودُ المحضُ الذي ليس فيه بُخلٌ، والعِلمُ المحضُ الذي لا يقترن به جهلٌ فإنَّها صفاتٌ خاصّةٌ به تعالى، لا حظَّ فيها لغيره، وهذه الزّيادةُ التي زيدت عليها في موضع نصبٍ على الصِّفة، كأنَّه قيل: يا حليمًا غيرَ عجولٍ، وياجوادًا غيرَ بخيلٍ، وياعالمًا غيرَ جهولٍ، فالفائدةُ في هذه الألفاظ المزيدةِ على هذه الأسماء ما ذكرناه منَ التَّخصيص(1).

ففي هذا النَّصِّ ردَّ البَطَلْيَوْسِيُّ على استنكار السّائل أنْ يُقال في المنادَى من قولنا: يا حليمًا لا يعجل: إنَّه منادى نكرةٌ، مع العلم أنَّ المقصودَ به المولى، عزَّ وجلَّ، وإنْ كان معرفةً، فكيف انتصبَ، وخرج مخرجَ التَّنكير؟ والمعلومُ أنَّ المنادَى المعرفةَ مبنيٌّ على ما كان يُرفَع به قبل النِّداء(2).

وقد تضمن ردُّه أنَّ هذا من ضَرْب المنادَى المُخصَّص، أي المُخصَّص بوصْفٍ بعدَه؛ ومن ثَمَّ كانتِ الزِّيادةُ التي زِيدَت على قولنا: (ياحليمًا) ونحوِه في محل نصبٍ، على أنَّها صفةٌ لكلمة (حليمًا) للتَّخصيصِ؛ ومن ثَمَّ فهو مُنادًى شبيهٌ بالمضاف، على نحو ما أشار البَطَلْيَوْسِيُّ ، وهو ما أؤيِّده، من جهة أنَّ«الشّبيه بالمضافِ أوِ المُضارع له» هو ما يتعلَّقُ بشيءٍ، هو من تمام معناه، نحو: يا خيرًا من زيدٍ، ألا تَرى أنَّ «من زيدٍ» من تَمَامِ معنى خيرًا، كما كان المضافُ إليه من تمامِ معنى المضافِ»(3)، والشَّبيه بالمضاف حُكْمُه النَّصْبُ؛ ومن ثَمَّ بدأ البَطَلْيَوْسِيُّ ردَّه بالجزم بكونه منادًى شبيهًا بالمضاف، من خلال كلمة (الوَجْه) حيثُ قولُه: «إنَّ الوجه في هذا، وما أشبهَه من صفاتِ الله أنْ يُقال فيه: إنَّهُ مُنادًى مُخصّصٌ»، وهو مصطلحٌ من مصطلحاتِه التي استخدمَها في ردوده على مدارِ كتابِه«المسائلُ والأجوبةُ».

ولم يتركِ الأمرَ غُفلًا من تعليلٍ، بل كانت



مِثل هذه الألفاظِ التي يُوصَف بها المخلوقون، ويُوصَف بها الباري مُتباينةٌ في المعاني مُتّفقةٌ في اللّفظ

تسميتُه بالمُخصَّص بالإشارةِ إلى أنَّ مِثل هذه الألفاظِ التي يُوصَف بها المخلوقون، ويُوصَف بها الباري مُتباينةٌ في المعاني مُتّفقةٌ في اللَّفظ، على نحوِ ما في جُملتَي: الله سميعٌ بصيرٌ، وزيد سميعٌ بصيرٌ؛ لأنَّ زيدًا سميعٌ بأُذن، فهو ذو جوارحَ، والله مُنزَّه عن مثل هذه الصّفات، «وإنَّما نريد بقولنا: فيه: إنَّه سميعٌ، وإنَّه بصيرٌ، أنَّه لا يغيبُ عنه شيءٌ من أمرِ خَلْقِه... وليس بين الباري- تعالى- وبين مخلوقاته اشتباهٌ في معنًى منَ المعاني»(4).

ولمَّا كان ذلك كذلك كان لنا أنْ نتساءلَ: لماذا جيءَ بجملة (لا يعجل) بعد قولنا: (ياحليمًا) وهي صفاتٌ لله تعالى مخالفةٌ لصفات البشر؟

لقد أجاب البَطَلْيَوْسِيُّ عن ذلك قائلًا: «فإنْ قال قائلٌ: قد علمت أنَّا إذا قُلْنا: يا حليم، ويا جواد، ويا عالم، فقد فُهِمَ أنَّ هذه الصِّفاتِ مُخالفةٌ لصفات البشر، فإذا كان ذلك مفهومًا من أنفُس هذه الصِّفات فما الفائدةُ في زيادة هذه الألفاظِ عليها؟ فالجواب: أنَّ الفائدة في ذلك أنَّا إذا قلنا: ياحليم، ويا جواد ويا عالم، فإنَّما يقع التّباينُ والخلافُ بالمعاني، لا بالألفاظ. وإذا قلنا: يا حليمًا لا يعجلُ، ويا جوادًا لا يبخلُ، ويا عالمًا لا يجهلُ، وقع التَّباينُ والخلافُ بالمعاني والألفاظ معًا، وإذا انفصل الشّيئان لفظًا ومعنًى كان أبلغَ في التَّبايُنِ من أنْ ينفصلا معنًى لا لفظًا، ويدلُّكَ على أنَّ الغرَضَ في ذلك ما ذكرتُه من قولِ عَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ في: بسم الله الرحمن الرحيم، كان الباري – تعالى- يوصَفُ بالرَّحمن، فلمَّا تسمّى به المخلوقون زِيدَ عليه: الرَّحيم، فهذا نصٌّ جليٌّ على أنَّهم قصدوا تخصيصَه – تعالى- بلفظٍ لا يُوصَفُ به سواه؛ ولذلك قال المفسّرون في (الله): إنَّه اسمٌ ممنوعٌ؛ فلأجل هذا قلتُ: إنَّ مثل هذا ينبغي أنْ يُقال فيه: مُنادًى مُخصَّصٌ، وإنَّما وجب أنْ يُنصَبَ هذا النَّوعُ منَ المُناديات، وإنْ كان غيرَ منكورٍ؛ لأنَّ اللّفظ الأوّلَ لمَّا كان مُحتاجًا إلى اللّفظ الثّاني؛ لأنَّه الذي يُتمِّمُ معناه، ويُخصِّصُه أشبهَ المنادَى المضافَ الذي لا يتمُّ إلَّا بالمُضاف إليه، فانتصبَ كانتصابِه، وصار بمنزلة قولك: ياخيرًا من زيد، وياضاربًا رجلًا؛ ولذلك سمَّى النّحويّون هذا النّوعَ: المنادَى المُشبَّهُ بالمضافِ» (5).

وهو ما يتَّضحُ من خلالِه مراعاةُ وقوع التَّبايُنِ والخلافِ بالمعاني والألفاظ معًا، فإذا انفصلَ الشّيئان لفظًا ومعنًى كان أبلغَ في التَّبايُنِ من أنْ ينفصلا معنًى لا لفظًا، على نحوِ ما سبقَ في قول عطاءٍ الخُراسانيِّ، فبان أنَّ اللَّفظَ الأوّلَ (حليمًا) مُحتاجٌ إلى ما بعده (لا يعجلُ) مُخصِّصًا إيَّاه، فعُدَّ منَ المنادَى الشّبيهِ بالمضاف، فكان حُكمُه النَّصْبَ(6)، وهو ما يُدلِّلُ على وجود علاقةٍ بين النَّحوِ والمعنى، في إطارِ مُرادِ المتكلِّم، ذلك المرادُ أوِ القَصْدُ هو ما قال عنه أبو هلالٍ العسكريُّ: «القصدُ هو إرادةُ الفعل في حال إيجاده»(7)، وقال:«المَعْنى هو القَصْدُ الَّذِي يَقع بِهِ القَوْلُ على وَجهٍ دون وَجهٍ، وَقد يكونُ معنى الكَلَام فِي اللُّغَة ما تعلّق بِهِ القَصْدُ»(8)؛ ومن ثَمَّ قال ابنُ القيّمِ:«الألفاظُ لم تُقصدْ لذواتِها،

وإنَّما هي أدلةٌ، يُستدلُّ بها على مرادِ المتكلّم»(9) في عملية الإنجازِ الكلاميِّ؛ من ثمَّ حُقَّ لمتساءلٍ أن يقول: «ولنا أن نتساءلَ هنا عن موقع (القصْدِ) في عملية الإنجازِ الكلاميِّ، وعن أي مرحلةٍ إنجازيّةٍ تحتويه، على اعتبارِ أنّ عمليّةَ الكلام تمرُّ بمرحلتَين: الأولى ذهنيّةٌ، والثّانيةُ إنجازيّةٌ، وبقليل منَ التّمعُّنِ يتّضحُ لنا أنَّه ينتمِي إلى المرحلةِ الأولى، تلك المرحلةِ التي يكونُ مُحرِّكُها الأساسُ هو (الوعيَ) ومنتجاتُه هي: المعنَى والقصدَ، ويتحوّلُ هذان المُنتجان إلى عُنصرَين مُشرفَين على عملية الإنجازِ في المرحلة الثّانيةِ، التي تتمُّ فيها الصِّياغةُ اللُّغويّةُ بجميع مُستوياتِها، حتى يتحقَّقَ الانسجامُ بين المرحلتَين»(10).

كما يُلاحظُ تنبّهُ البَطَلْيَوْسِيُّ إلى الفائدةِ، من خلال إشارتِه إلى الفائدةِ منَ الألفاظ التي بعدَ المُنادَى، فمنَ المعلوم أنَّه «ما لا فائدةَ فيه، فلا معنى للتّكلُّمَ به»(11).



() المسائل والأجوبة، أبو محمد عبدالله بن السيد البَطَلْيَوْسِيُّ (ت 521 هـ)؛ تحقيق: مصطفى عدنان العيثاوي، النادي الأدبي، المدينة المنورة، السعودية، 1440 هـ، 1/-95 99.

(2) ينظر: المقتضب، المبرد، محمد بن يزيد(ت 285هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1994م، 4/204، والأصول في النّحو، لابن السرَّاج ت 316 هـ، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1420 هـ 1999- م، 1/330، وشرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش، محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، (ت 778 هـ)، دراسة وتحقيق: علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام ،القاهرة، مصر، ط 1، 1428 هـ، 7/ 536.

(3) شرح المفصل في صنعة الإعراب، الموسوم بـ "التخمير"، صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (555 - 617 هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ودار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط 1، 1990 م، 2/326. وينظر: الإيضاح العضدي، أبو علي الفارسيّ (288 – 377 هـ)، تحقيق: حسن شاذلي فرهود، جامعة الرياض، السعودية، ط 1، 1389 هـ – 1969 م، صـ 234 ، و شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، الأشموني، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (ت 900هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ– 1998م، 3/23.

(4) المسائل والأجوبة، أبو محمد عبدالله بن السيد البَطَلْيَوْسِيُّ (ت 521 هـ)؛ تحقيق: مصطفى عدنان العيثاوي، النادي الأدبي، المدينة المنورة، السعودية، 1440 هـ، 1/ 96 – 98.

(5) السَّابق، 1/99-100.

(6) يُنْظَر في ذلك: شرح أبيات سيبويه، السيرافي، يوسف بن أبي سعيد (ت 385هـ)، تحقيق: محمد علي الريح هاشم، راجعه: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1394هـ - 1974 م، 1/334.

(7) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت نحو 395هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر، 1997م، صـ 126.

(8) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، صـ 33.

(9) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، ابن القيم الجوزية، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1973، 1/350

(10) القصد ودوره في الأحكام النحوية، بلقاسم محمد حمام، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، 2017م، صـ 12.

(11) الأصول في النحو، ابن السرَّاج 1/59، وينظر: دلائل الإعجاز صـ 452، والفائدة التخاطبية في نظرية النحو العربي، أحمد حسن إسماعيل الحسن، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، الأردن، 2009م، صـ -6 97 حيث حديثه عن الفائدة التَّخاطبية: المفهوم والحقيقة.

وافَقَ شَنٌّ طَبَقَة



يُحْكى أنَّ رَجُلًا اسْمُهُ شَنٌّ خَرَجَ لِيَبْحَثَ عَنِ امْرَأَةٍ للزَّواجِ فَرافَقَهُ رَجُلٌ في الطَّريقِ إلى القَرْيَةِ الّتي يَقْصِدُها، فَقالَ لَهُ شَنّ: أَتَحْمِلُني أَمْ أَحْمِلُكَ؟ فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ: يا جاهِل! أَنا راكِبٌ وَأَنْتَ راكِبٌ فَكَيْفَ تَحْمِلُني وَأَحْمِلُكَ؟ فَسَكَتَ شَنٌّ، ثُمَّ قابَلَتْهُما في الطَّريقِ جَنازَةٌ، فَقالَ شَنٌّ: صاحِبُ هَذِهِ الجَنازَةِ حَيٌّ أَمْ مَيِّتٌ؟ فَقالَ الرَّجُلُ: ما رَأَيْتُ أَجْهَلَ مِنْكَ، تَرى جَنازَةً وَتَسْأَلُ عَنْ صاحِبِها أَحَيٌّ أَمْ مَيِّتٌ؟ فَسَكَتَ شَنٌّ، ثُمَّ أَرادَ شَنٌّ مُفارَقَةَ الرَّجُلِ فَأَبى وَأَخَذَهُ إلى مَنْزِلِهِ، وَكانَتْ لَهُ ابْنَةٌ تُسَمّى: طَبَقَة، فَسَأَلَتْ أَباها عَنِ الضَّيْفِ فَأَخْبَرَها بِما كانَ مِنْهُ، فَقالَتْ: يا أَبَتِ ما هذا بِجاهِلٍ، فَإِنَّهُ أَرادَ بِقَوْلِهِ: تَحْمِلُني أَمْ أَحْمِلُك، أَتُحَدِّثُني أَمْ أُحَدِّثُكَ؟، أَمّا سُؤالُهُ عَنْ صاحِبِ الجَنازَةِ فَإِنَّهُ سَأَلَكَ فيما إذا تَرَكَ عَقِبًا يُحْيي ذِكْرَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ وَجَلَسَ مَعَ شَنٍّ وَفَسَّرَ لَهُ كَلامَهُ، فَقالَ شَنٌّ: ما هذا بِكَلامِكَ، فَصارَحَهُ الرَّجُلُ بِأَنَّهُ قَوْلُ ابْنَتِهِ طَبَقَة، فَطَلَبَ شَنٌّ يَدَها وَتَزَوَّجَ بِها.

يُضْرَبُ هذا المَثَلُ في كُلِّ اثْنَيْنِ أَوْ زَوْجَيْنِ مُتَوافِقَيْنِ يُكْمِلُ أَحَدُهُما الآخَرَ.

اللّسانيات الإشْهَارِيَّةُ

يُعدُّ الإشهارُ ضرورةً إنسانيّةً منذ القديم، لكنّه ارتبطَ أخيرًا بالدّراساتِ العلميّةِ المختلفةِ: الاجتماعيّةِ والإعلاميّةِ والاقتصاديّةِ واللّغويّةِ. ولكنّ الإشهارَ في جوهرِه هو خطابٌ لُغويٌّ مِنَ الدّرجةِ الأُولى، من أجلِ ذلك تحاولُ اللّسانيّاتُ الحديثةُ أن تجعلَ منَ الخطابِ الإشهاريِّ عامّةً - مهما كان ميدانُه وتخصّصُه- موضعَ دراسةٍ، ترومُ الإجَابَةَ عَنْ أَهَمِّ الإشكالياتِ التي تعترضُه، وكذا تذليلُ العقباتِ من أجلِ الوصولِ إلى خطابٍ إشهاريٍّ مُقنعٍ ومُؤثّرٍ، مُعتمدةً في ذلك اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ على علومٍ كثيرةٍ، كعلمِ الاجتماعيّاتِ وعلمِ الاقتصادِ والإعلامِ والاتّصالِ وغيرِها.



د.محمد حراث
أستاذ محاضر في علوم اللّغة
-جامعة الشّلف - الجزائر

منذُ «المليحةُ ذاتُ الخمارِ الأسودِ»، و«بائعُ الخلِّ والعسَلِ»، أدركَ العربيُّ أهمّيّةَ الإشهارِ والتّسويقِ لفكرته أوّلًا، ولسلعتِه آخِرًا. كلُّ ذلك قائمٌ على حسنِ تَبَعُّلِ اللّغةِ لمُتلقِّيها، وكذا تغليفُها بالبهاراتِ والمُبْهراتِ التي تجذبُ المُتلقّي إلى النّقطةِ التي استهدفَها «المُشْهِرُ» بَداءَةً. لِذَا نُزْمِعُ استجلاءَ ملامحِ نظريّةٍ لِسانيّةٍ مُبطّنةٍ داخلَ الخطابِ الإشهاريِّ، يمكنُنا الاصطلاحُ عليها، إن سمحَ المقامُ، بـ«اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ!» حتّى نؤسّسَ لخطابٍ إشهاريٍّ قائمٍ على أُسُسٍ استقرائيّةٍ منَ التّراث رأسًا، كَالحِجَاجِ، والمقامِ، والإقناعِ، وما سوَى ذلك من وسائلَ يستوسلُها «المُشْهِرُ» ليوصلَ الفكرةَ عبْرَ قوالبِ اللّغةِ كما أرادَ لها أن تكونَ من روافدَ علميّةٍ ومعرفيّةٍ أخرَى في الاقتصادِ والتّسويقِ والاجتماعِ والاتّصالِ وغيرِها.



عالم اللسانيات الإشهارية: ليو سبيتزر

1 - الإشْهَارُ تاريخيًا:

ليس الإشْهارُ ظاهرةً طارئةً في المجتمعاتِ الحديثةِ، بل هي ضاربةٌ في التّاريخِ الإنسانيِّ، قِدمَ الوجودِ الإنسانيِّ على هذه الأرضِ. بل قيلَ إنّ الإشهارَ كان قبْلَ نزولِ آدم – عليه السّلامُ – إلى الأرض، إذْ غوَى إبليسُ أبانا آدمَ، بشجرةِ الخُلدِ، ومُلكٍ لا يبلَى، فزيّن له الممنوعَ مرغوبًا، فكان ما كان. وقيل إنَّ الإشهارَ ظهرَ قبل ثلاثةِ آلاف سنة قبل الميلادِ، وَيَعُودُ لحفرياتٍ ورسومٍ عُثِرَ عليها بمدينةِ بومبي الإيطاليّةِ.

كما روَوْا أنّه قدمَ المدينةَ تاجرٌ يبيعُ الخُمُرَ، فباعَها خلا السُّود منها، وكان صديقًا للدّارميّ الشَّاعرِ. وكان الدّارميُّ قد تابَ مِنَ الشّعرِ والغناءِ. فقال له: فإنّي سأحتالُ لك. فقال شعرًا، وسأل سِنانًا الكاتبَ أن يغنّيَ فيه، ففعل وهو:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الخِمَارِ الأَسْوَدِ
مَاذَا أَرَدْتِ بِنَاسِكٍ مُتَعَبِّدِ
قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ إِزَارَهُ
حَتَّى قَعَدْتِ لَهُ بِبَابِ المَسْجِدِ
رُدِّي عليه صَلَاتَه وصِيَامَهُ
لا تقتُلِيه بحقِّ دينِ محمّدِ

فلم تبقَ بالمدينة ظريفةٌ إلّا طلبتْ خمارًا أسودَ، فباع التّاجرُ الخُمُرَ، وانصرفَ، ورجع الدّارميّ إلى التّنسك. وهذا إشهارٌ أو بدايةٌ إشهاريّةٌ واضحةٌ وبارزةٌ في تاريخِ تراثِنا العربيِّ.

ويُعدُّ هذا المثالُ من أبرزِ أمثلةِ الإشهارِ في تراثِنا العربيِّ، ولكن إذا ما أردْنا تبيُّنَ بعضِ المساراتِ التّاريخيّةِ التي عاشَها الإشهارُ حتّى وصلَ إلى الصّورةِ التي عليها في هذا العصرِ، فإنّنا نلاحظُ أنّ الإشهارَ قديمًا كان رموزًا وصُورًا بدائيّةً محدودةَ الانتشار، وبعد ظهورِ الطّباعةِ، بدأ الإشهارُ يبرزُ قليلاً في كتاباتٍ مُختصرةٍ على بعض الصّحفِ والمجلّاتِ، وأصبحَ الطّلبُ على الإشهارِ في تزايدٍ مُستمرٍّ بسببِ سوقِ المبيعاتِ المُنتشرِ. ثمّ بتطوُّرِ وسائلِ النّشرِ والإعلام، كالتّلفزيون والإذاعةِ والمواقعِ الإلكترونيّةِ ووسائلِ التّواصُلِ الحديثةِ، فإنّ الإشهارَ انتقلَ نقلةً نوعيّةً وقفزَ قفزةً كبيرةً جدًّا، بل صارتْ له مؤسّساتٌ وشركاتٌ خاصّةٌ بالإشهارِ، وأسْهُمٌ بنكيّةٌ كبيرةٌ عائداتُها منَ الإشهارِ فقط.

2 - إرْهاصَاتُ اللّسانيَاتِ الإشهاريَّة:

تشهدُ الحياةُ المعاصرةُ تسارُعًا رهيبًا في ميادينَ ضروريّةٍ على غرارِ الحياةِ الاقتصاديّةِ، الّتي تُعدُّ عصبَ الحياة، ولا يَستغني الاقتصادُ عمومًا عن آليّةِ الإشهارِ، بتمظْهُراتِه العديدةِ، في مجال المنافسةِ والعرْضِ والتّسويق، وما يَجْرِي على الاقتصادِ يَجْرِي كذلك على قطاعاتٍ وأصعدةٍ أخرى.

من أجـلِ ذلـك، كـان لـزامًـا، على اللّسانيّاتِ والدّراساتِ الدّلاليّةِ والتّداوُليّةِ والاجتماعيّةِ، وكذا الاقتصاديّةِ والإعلاميّةِ، أن تتضافرَ من أجل تحقيقِ غايةِ الإشهار: التّأثيرِ والإقناعِ. ولمَ لا يَكُونُ الوصولُ إلى تأسيسٍ، أو شبْه تأسيسٍ لنظريّةٍ لسانيّةٍ إشهاريّةٍ، تضعُ خارطةَ الطّريقِ أمامَ كلِّ مُشَهِّرٍ، يستندُ إليها في خطابِه الإشهاريِّ.

وليستِ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ عَدَمًا في الدّراساتِ القديمة، بل إنّ عناصرَها المفكّكةَ مبثوثةٌ كما أسلفْنا في دراساتٍ مختلفةٍ متباينةٍ، فالدّراساتُ الاقتصاديّةُ تحملُ في بعض تخصّصاتِها بذورَ آليّاتِ الإشهارِ، وكذا الدّراساتُ الإعلاميّةُ، التي تشتغلُ كثيرًا على تأسيسِ الخطابِ الإشهاريِّ الفعّالِ. وكذلك الدّراساتُ التّداوليّةُ التي تنوءُ بحمولةِ المجتمعاتِ الثّقافيّةِ والفكريّةِ لسانيًّا ودلاليًّا. لذا فإنّ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةَ تنطلقُ من كلِّ هذه المجالاتِ لتؤسّسَ لخطابٍ إشهاريٍّ مُقنعٍ ومُؤثّرٍ، مبنيٍّ على أسُسٍ علميّةٍ متينةٍ ومدروسةٍ.

3 - الإشْهارُ: مفاهيمُ وتعريفاتٌ:

قبْلَ التّأسيسِ لتعريفٍ لمفهومِ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ، نُعرّجُ على ما هو معروفٌ في السّاحةِ الإشهاريّةِ من مُصطلحاتٍ مَفْصِليَّةٍ:

أ- الإشْهارُ:

الإشْهارُ قد يدلُّ في اللّغةِ على الانتشارِ والوضوح، وهذا يرتبطُ بغايةِ الإشهارِ: وهي طلبُ الذّيوعِ والصّيتِ، وإيصالِ الفكرةِ ونشرِها إلى أكبرِ عددٍ ممكنٍ منَ المتلقّين المُستهدَفين، على الرّغمِ منِ ارتباطِ مُصطلحِ التّشهيرِ بما يدلُّ على نقيضِ المعنى منَ الفضيحةِ وغيرِها.

ومن أشهرِ التّعريفاتِ للإشهارِ، التي دأبتِ الدّراساتُ العربيّةُ أن تستشهدَ بها تعريفُ الفرنسيِّ (أرماند سلاكرو Armand Salacrou) الّذي يقولُ في تعريفِ الإشهارِ بأَنَّهُ "تقنيّةٌ تُسَهِّلُ عمليّةَ نشْرِ الأفكارِ مِنْ جهة جملةِ العلاقاتِ



الّتي يمكنُ أن تُبْرَم بين أشخاصٍ على الصّعيدِ الاقتصاديِّ في التّرويجِ لسِلَعِهم وخدماتِهم من جهةٍ أخرى» . وكذا يقول (داستو Dasto): «مجموعةُ العلاماتِ ذَوَاتِ البِنيةِ الإيحائيّةِ الّتي تحملُ قِيمًا معرفيّةً حول حاجةٍ أو فكرةٍ ما» .

والتّعريفان يجمعان بين فكرة النّشرِ والتّأثيرِ، هما غايتَا الإشهارِ الأساسيّتَين. ويقول أهلُ الاختصاصِ بأنّ الإشهارَ «يُوظّفُ عـددًا منَ العلومِ والمعارفِ اللّغويّةِ والنّفسيّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصاديّةِ والفنّيّةِ والفلسفيّةِ وغيرِها، مُرتكزًا في ذلك على النّظريّاتِ العلميّةِ والتّطبيقيّةِ لتلك المجالاتِ، لتشكيلِ علاماتِ التّواصُلِ». وهذا ما أشرنا إليه آنفًا، بأنّ ما سنُسمِّيه باللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ، هو تضافرٌ لقطاعاتٍ معرفيّةٍ عدّةٍ.

وكما لاحظ الدّارسون، لم يَعدِ الإشهارُ اليومَ مُرتبطًا فقط بالسّلعِ التّجاريّةِ، ولا حكرًا على المجالِ الاقتصاديِّ دون غيرِه منَ المجالات، بل غزا الإشهارُ الفنونَ والدّراساتِ الأخرَى، على غرارِ الدّراساتِ اللّغويّةِ والأدبيّةِ والنّقديّةِ، بوصْفِه خطابًا له خصوصيّاتُه التي تُميّزُهُ وَتُخضِعُه لِلدِّراسَةِ والنّقدِ.

ب- الخِطَابُ الإشْهاريُّ:

قيلَ في تعريفِ الخطابِ الإشهاريِّ بأنّه «يُقصَدُ من ورائِه التّأثيرُ الذي تتحوّلُ فيه العمليّةُ التّخاطبيّةُ إلى عمليّةٍ تواصُليّةٍ لا تنفصلُ عن حيثيّاتِها المقاميّةِ وأبعادِها الاجتماعيّةِ، حيث تهدفُ إلى التّفاعُلِ الإيجابيِّ المبنيّ على الإقناعِ المبثوثِ في ثنايا البنَى اللّغويّةِ تبعًا للموقفِ التّواصُليِّ المشتركِ بين المخاطِبِ والمخاطَبِ».

معنى ذلك أنّ الخطابَ أوِ الكلامَ، قولًا كان أو فعلًا، يتحوّلُ مِنْ صفتِه السّرديّةِ الخطابيّةِ، ذاتِ القُطبِ الواحدِ، إلى العلاقةِ التّواصُليّةِ بين المُرسِلِ والمُرسَلِ إليه، فيصبحُ الخطابُ رسالةً تَصِلُ القُطْبَيْنِ: المُتكلّمَ والسّامعَ.

ت- أنظِمَةُ الخِطَابِ الإشْهَاريِّ:

ويعتمدُ الخطابُ الإشهاريُّ على نظامَين اثنَين: النّظامِ اللِّسَانيِّ والنّظامِ الأيقونيِّ. فالنّظامُ اللّسانيُّ، أو ما يسمَّى باللّغةِ الإشهاريّةِ، وهي لُغةٌ تتطلّبُها خصوصيّاتُ الإشهارِ، من عباراتٍ مختصرةٍ، دقيقةِ المعنى، مؤثِّرةِ الدّلالةِ، واضحةٍ مباشرةٍ. وأمّا النّظامُ الأيقونيُّ فيندرجُ ضمْنَ النّظامِ السّيميائيِّ، لآلياتٍ أيقونيّةٍ كثيرةٍ: كالصّوتِ والصّورةِ، والألوانِ، والرّموزِ والإشاراتِ، والإيحاءاتِ والإيماءاتِ، ممّا يعضّدُ الصّورةَ اللّغويّةَ واللّسانيّةَ للإشهارِ.

ويكتسِي النّظامُ الأيقونيُّ للخِطابِ الإشهاريِّ أهمّيّتَه بالنّظرِ إلى الوظائفِ الكثيرةِ التي يُؤدّيها داخلَ الرّسالةِ الإشهاريّةِ، منها الوظيفةُ الجماليّةُ التي تجذبُ المتلقّي وتُغريه وتستميلُ ذوقَه ورغبتَه في الاستجابةِ، وكذا الوظيفةُ التّوجيهيّةُ وهذا تقومُ به بعضُ الصّورِ والشّعاراتِ والرّموزِ التي قد تُوجّهُ وتُحيلُ إلى فكرةٍ أو موضوعٍ معيَّنٍ.

كما يمتازُ النّظامُ الأيقونيُّ كذلك بوظيفةٍ تمثيليّةٍ مهمَّةٍ، فاللّغةُ قد تعجزُ أحيانًا في تقديمِ الأشياءِ بحجْمِها وشكلِها الحقيقيِّ، فتنوبُ الصّورةُ وغيرُها عن ذلك، بتمثيلِ الموضوعِ وتجسيدِه في صورةٍ تقريبيّةٍ. وغيرُ بعيدٍ عن هذه الوظيفةِ، تأتي

يمتازُ النّظامُ الأيقونيُّ بوظيفة تمثيليّة مهمَّة، فاللّغةُ قد تعجزُ أحيانًا في تقديم الأشياءِ بحجْمِها وشكلِها الحقيقيِّ، فتنوبُ الصّورةُ وغيرُها عن ذلك بتمثيل الموضوع وتجسيده

الوظيفةُ الإيحائيّةُ، بِوَصْفِهَا وَظِيفَةً من وظائفِ الأيقونةِ داخلَ الرّسالةِ الإشهاريّةِ، فالصّورةُ كما يقالُ تغازلُ المشاعرَ والعواطفَ وتسرحُ بالذّهنِ والخيالِ وترسمُ الخيالاتِ والإيحاءاتِ التي ترمِي إليها الرّسالةُ الإشهاريّةُ.

ويجمعُ بين النّظامَين دراساتٌ لسانيّةٌ كثيرةٌ، على غرارِ الدّراساتِ السّيميائيّةِ الّتي تهتمُّ بالدّلالاتِ اللّغويّةِ وغيرِ اللّغويّةِ، وكذلك الدّراساتُ التّداوليّةُ التي تهتمُّ بدراسةِ «العلاقاتِ التي تنشأُ بين اللّغةِ والسّياقِ، والمُتكلّمِ والسّامعِ، وتراعي بذلك مقاصدَ المُتكلّمِ، وظروفَه وكيفيّةَ وصولِ الكلامِ إلى السّامعين، وظروفَهم المحيطةَ بهم، فهي تهتمُّ بدراسةِ العواملِ التي تؤثّرُ في اختيارِ الشّخصِ للّغة، وتأثيرِ هذا الاختيارِ في الآخرين». فالتّداوليّةُ تتقاطعُ مع البلاغةِ في قضيّةِ مطابقةِ الكلامِ لمقتضَى الحالِ، فإنّ التّأثيرَ لن يتحقّقَ إلّا بتحقُّقِ هذا الشّرطِ البلاغيِّ الأساسيِّ، وتأتي التّداوليّةُ لتساعدَ في تحقيقِ هذا الشّرطِ البلاغيِّ، بِتَعَرُّفِ ملابساتِ السّياقِ ومُتطلّباته.

ث- عناصرُ التّواصُلِ الإشهاريِّ:

يعتمدُ الخطابُ الإشـهـاريُّ إذن



على ثلاثةِ عناصرَ جوهريّةٍ: المُشْهِر، والمُسْتَهْدَف، والإشهار. فالمُشْهِرُ أوِ المُتَكلِّمُ أوِ المخاطِبُ هو صاحبُ الرّسالةِ الإشْهَاريّةِ، والمُسْتَهْدَفُ وهو المُخاطَبُ أوِ المُتلقّي للرّسالةِ الإشهاريّةِ، ثُمَّ الإشهارُ أوِ الرّسالةُ الإشهاريّةُ التي تعتمدُ على النّظامَين السّابقَين: اللّسانيّ والأيقونيّ لتحقيقِ الغايةِ. ولا يتمُّ هذا التّواصلُ إلّا عبْرَ ما يُسمّى بقناةِ التّبليغ، التي قد تكون ورقيّةً، أو صوتيّةً، أو مرئيّةً، أو غيرَ ذلك من وسائلِ الإشهار.

ولا يمكنُ أن تكونَ الرّسالةُ الإشهاريّةُ ناجحةً في التّأثيرِ والإقناعِ وتحقيقِ الأهــدافِ التي وُضعتْ من أجلِها إلّا إذا اتّسمتْ ببعضِ الصّفاتِ المهمّةِ، كجذبِ الانتباهِ، وإثارةِ الاهتمام، وتحفيزِ الرّغبةِ في نفس المُستهلك، والحثِّ على الاستجابةِ، والرّسوخِ في الذّاكرةِ.

ج- أقسامُ الخطابِ الإشْهاريّ:

والخطابُ الإشهاريُّ يَنقسمُ إلى أنواعٍ باعتباراتٍ كثيرةٍ؛ فباعتبارِ جمهورِ التّلقّي، هو إشهارٌ دوليٌّ عالميٌّ، وهذا عندما تتجاوزُ الرّسالةُ الإشهاريّةُ حدودَ الدّولةِ الواحدةِ إلى مَجْموعَةٍ دوليّةٍ مختلفةٍ، وربّما إلى العالَم بأسره، إذا كانت القضيّةُ إنسانيّةً أو أخلاقيّةً مشتركةً بين البشر، أو بعضِ مُنتجاتِ الشّركاتِ العالَميّةِ المشهورةِ. وإشهارٌ قوميٌّ وهو أشبهُ بالنّوعِ السّابقِ إلّا أنّه أقلُّ انتشارًا، فهو يشملُ المجتمعاتِ والــدُّوَلَ التي يجمعُها مُشْتَرَكٌ هُوياتيٌّ واحدٌ كاللّغةِ أوِ الدّين. ويقابلُ الأنواعَ السّابقةَ: الإشهارُ المحلِّيُّ، الذي لا يتجاوزُ المُجْتَمَعَ الواحدَ أو حدودَ الدّولةِ الواحدةِ، فهو موجّهٌ خصِّيصَى إلى مجتمعٍ بعيْنِه.

ومن حيثُ الأهــدافُ التي تتضمّنُها الرّسالةُ الإشهاريّةُ، فيمكنُ تقسيمُ الخطابِ الإشهاريِّ إلى أنواعٍ: إشهارٌ أوّليٌّ يهدفُ إلى الإقناعِ بفكرةٍ عامّةٍ لا تتعلّقُ بمنتوجٍ دون آخرَ. ثمّ إشهارٌ تذكيريٌّ، يأتي بعد إشهارٍ سابقٍ مُسجِّلِ التَّراجُعِ عنِ الاستجابة له. وإشهارٌ تعليميٌّ، يتعلّقُ بمنتوجٍ جديدٍ في السّوقِ، لم يكن معروفًا من قبلُ، فيقومُ الإشهارُ بالتّعريفِ به وإعطاءِ المعلوماتِ الكافيةِ عنه. وكذا إشهارٌ تنافسيٌّ، يهدفُ إلى المقارنةِ بين منتوجَيْنِ وَتَرْجيحِ أَحَدِهما، وقريبًا منه نوعانِ آخرانِ: الإشهارُ الدّفاعيُّ، والإشهارُ المقارنُ، وهي إشهاراتٌ معروفةٌ في الدّراساتِ الاقتصاديَّةِ أكثرَ.

وهناك تقسيماتٌ كثيرةٌ أخرى، فمن حيث التّأثيرُ فالإشهارُ نوعان: إشهارٌ ذو تأثيرٍ مباشرٍ، وإشهارٌ ذو تأثيرٍ غيرِ مباشرٍ، ومن حيث الوسيلةُ: فإشهارٌ مسموعٌ، أو مكتوبٌ، أو مرئيٌّ، مختلطٌ بينها.

4 - اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ:

أ- إرْهاصَاتُ اللّسانيّاتِ والإشْهَار:

في بادئ الأمرِ نتساءلُ: لماذا نُقحمُ اللّسانيّاتِ في الإشهارِ؟ ولماذا ندعُو إلى اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ؟ نجيبُ باختصارٍ فنقولُ: إنّ اللّسانيّاتِ التّطبيقيّةَ تفيدُ منَ اللّسانيّاتِ النّظريّةِ من أجلِ إيجادِ الحلولِ وتذليلِ العقباتِ والإجابةِ على الإشكالاتِ والتّساؤلاتِ التي يمكنُ أن تَطرحَها الحقولُ المعرفيّةُ الأخرَى. «والإشــهــارُ واحــدٌ منَ الحقــولِ التي يَتَجَلّى فيها الحضورُ اللّسانيُّ، وذلك من خــلالِ اقتــحامِ اللّســانيّاتِ التّطبيقيّةِ له، لِحَــلِّ المُشْـكلاتِ اللُّغــويّةِ المفترضِ اعتراضُها سبيلَ وصولِ الرّسالةِ الإشهاريّةِ إلى غايتِهــا، إذ يتدخّلُ اللّسانيُّ لوضعِ النّصِّ، بالتّعاونِ مع المُختصّين في الحقولِ الأخرى، نظرًا إلى كــونِ الخاصِّيَّةِ المميّزةِ لهــذا الحقلِ تتمثّلُ في تداخُلِ الاختصاصاتِ».

وإذا أردْنــا التّأسيسَ التّاريخيَّ للدّراساتِ اللّســانــيّةِ للإشهــار، فإنّنــا نجدُ أنّ أولَى المقاربــاتِ لهــذا الحقلِ تعــودُ إلى سنة 1949، إذْ خَصّص عالِمُ اللّســانيّاتِ ليو سبيتزر Leo Spitzer بحثًا لتحليلِ وثيقةٍ إشهاريّةٍ ضمْنَ عملٍ من أعمالِه، التي اعتبرَ

فيها الخطابَ الإشهاريَّ فنًّــــــا شعبيًّا، وقــد وسمَ فيه إعلانًا لأحـدِ المُنتــــجاتِ بالصّـــورةِ والنّصّ، خَلَصَ فيها إلى كونِ الإشهارِ زهرةَ الحياةِ المعاصرةِ، وأنّه تأكيدٌ للتّفاؤلِ والرّفاهِيَــةِ، وإمتاعٌ للبصرِ وللرّوحِ .

ب- مباحثُ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ:

ولن نأتيَ بجديدٍ في هذا المقامِ، فنظريّةُ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ متحقّقةٌ فيما تقدّمَ من دراساتٍ عَنِ الخطابِ الإشهاريِّ، إلّا أنّ المصطلحَ الجامعَ لقضيّةِ الإشهارِ: اللّسانيّاتِ الإشهاريّةَ، لم يأخذ حقَّه منَ التّعبيرِ عن هذا الموضوعِ إجمالاً وتفصيلاً. وهو أغنَى من قولِهم: الخطابُ الإشهاريُّ، الذي قد يمسُّ في شكلِه الرّسالةَ الإشهاريّةَ فقط.

وإذ ندعُو إلى استعمالِ مصطلحِ: اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ فإنّنا نرومُ جَمْعَ شتاتِ كلِّ مباحثِ الإشهارِ وآلياتِه التي يعتمدُها، وخصائصِه وعناصرِه المكوّنةِ له، وأغراضِه التي يهدفُ إليها، وكلِّ ما له من صلةٍ بالإشهارِ وصاحبِ الإشهارِ والمستهدَفِ منَ الإشهارِ يدخلُ ضِمْنَ الإطارِ الذي تدرسُه اللّسانيّاتُ في شقِّها الإشهاريِّ، فحقٌّ أن يُصطلحَ عَلَى تَسْمِيَتِها باللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ، على غرارِ ما يقابلُها من مجالاتٍ أخرى رُشِّحَتْ إلى سطحِ الدّراساتِ اللّسانيّةِ الحديثةِ، من مثلِ: اللّسانيّاتِ الجنائيّةِ، واللّسانيّاتِ الأحيائيّةِ، واللّسانيّاتِ الجغرافيّةِ وهلمّ جرًّا.

إنَّ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةَ تجمعُ بين مجالاتٍ إشهاريّةٍ كثيرةٍ، يتألّف منها الإشهارُ، بدءًا منَ المُعْطَياتِ الاقتصاديّةِ والتّجاريّةِ التي ينطلقُ منها الإشهارُ أساسًا في الغالبِ، فَتَطَّلِعُ اللّسانيّاتُ على أهمّ قوانينِ الاقتصادِ في الإشهارِ للسّلعِ ونحوِها، والتّرويجِ لها، وما تطرحُه أشهرُ وأحدثُ النّظريّاتِ في المجالِ الاقتصاديِّ، ثمّ تعرّجُ بعد ذلك اللّسانيّاتُ عَلَى المجالِ الإعلاميِّ الّذي يضمنُ لهذه الرّسالةِ الاقتصاديّةِ أن تتضمّخَ بروحٍ إعلاميّةٍ أخرى، تسمحُ لها بتعبيدِ الطّريقِ نحوَ الذّيوعِ والشّيوعِ والانتشارِ، وهي الوسيلةُ الضّروريّةُ لكلّ رسالةٍ إشهاريّةٍ. بعد ذلك تُصبُّ هذه القوالبُ الإشهاريّةُ في قالبِ المجتمعِ الذي يُرادُ بثُّ الرّسالةِ الإشهاريّةِ فيه، فما يَصْدُقُ في مجتمعٍ قد لا يصدقُ في مجتمعٍ آخرَ، وهنا تتدخّلُ أهمُّ النّظريّاتِ الاجتماعيّةِ الّتي يجبُ أن تُراعَى في هذا الطّرحِ الإشهاريِّ الذي لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ خارجَ بوتقةِ المجتمعِ الذي يُصبُّ فيه.

كما أنّنا لا نستطيعُ أن ننكرَ أنّ الإشهاراتِ تُعدّ مرآةً عاكسةً لما يحدُثُ ويجري في المجتمعِ، فهي تنقلُ وبطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ إيديولوجيّةَ المجتمعِ ونظرتَه ومبادئَه واهتماماتِه. كما أنّ الخطابَ الإشهاريَّ يحظَى باهتمامٍ كبيرٍ من قِبَلِ المجتمعاتِ الرّاقيةِ والمتقدّمةِ، لِما يشكّلُ الإشهارُ لديها من صناعةٍ فعّالةٍ للوعيِ العامِّ في المجتمعِ وبلورةِ الرّأيِ وتوجيهِ العديدِ منَ السّلوكاتِ والتّأثيرِ في الكثيرِ منَ الثّقافاتِ والأفكارِ.

وبالنّظرِ إلى العواملِ الاجتماعيّةِ التي تُؤثّرُ في الرّسالةِ الاجتماعيّةِ فإنّ الدّراساتِ التّداوليّةَ تُلقي بظلِّها على العمليّةِ الإشهاريّةِ بالضّرورةِ، وكثيرًا ما يُلاحظُ على الدّراساتِ الإشهاريّةِ الحديثةِ ارْتباطَها بالأبعادِ التّداوليّةِ، وهذا غيرُ منفصلٍ عنِ العاملِ السّابقِ: العاملِ الاجتماعيِّ، فَمَنْظُومَةُ كلِّ مجتمعٍ الفكريّةُ والتّفكيريّةُ، والعقليّاتُ والدّلالاتُ السّائدةُ، وحتّى العاداتُ والتّقاليدُ والأعــرافُ، والمسموحُ به والمرغوبُ والممنوعُ، والطّابوهاتُ [المَحْظُورُ فِي نَظَرِ المُجْتَمَعِ]، كلّ أُولَئِكَ تطرحُه الدّراساتُ التّداوليّةُ وتذلّلُــه أمامَ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ من أجلِ أن تحقّقَ الغايةَ الإشهاريّةَ الأسمَى: الإقناعُ والتّأثيرُ، فلا يمكنُ البتّةَ أن تنفصلَ الرّسالةُ الإشهاريّةُ عنِ البعدِ التّداوليِّ لها.

وغيرُ بعيدٍ عنِ المجالِ التّداوليِّ، تستعيرُ اللّسانيّاتُ الإشهاريةُ كما سبقَ منَ الدّراساتِ الإعلاميّةِ في علومِ الإعلامِ والاتّصالِ أهمَّ النّظريّاتِ ومُخرجاتِ الأبحاثِ، التي بيّنتْ أنّ الإشهارَ وسيلةٌ مهمّةٌ من وسائلِ الاتّصالِ، تمسُّ في الإنسانِ عاطفتَه ومشاعرَه، وتستميلُه وتوجّهُه إلى سلوكاتٍ معيّنةٍ مقصودةٍ. ودراساتٌ في علومِ الاتّصالِ تؤكّدُ أنّ مراحلَ الاتّصالِ الإشهاريِّ تقومُ عبرَ أَرْبَعِ مراحلَ: إثارةُ الانتباهِ أوّلاً، ثمّ توليدُ فكرةِ المنفعةِ، ثمّ إثارةُ الرّغبةِ، والحثُّ بعد ذلك على الاستجابةِ. وقد صرّحَ الإعلاميّون في الاتّصالِ الإشهاريِّ أنّ اللّغةَ بالنّسبةِ إِلَيْهِمْ هي وسيلةٌ لتوصيلِ الفكرةِ وتبليغِ

> **كثيرًا ما يلاحظ على الدراسات الإشهارية الحديثة ارتباطها بالأبعاد التداوليّة**

الرّسالة، ولا يهمُّ المستوَى اللّغويُّ المستعملُ في ذلك.

ولا تستبعدُ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ الاستفادةَ من علوم النّفس، التي تستثمرُ أبحاثَها فيما يُشبهُ محاولةَ السّيطرةِ النّفسيّةِ على المتلقّي المستهدَف، فتصبغُ الرّسالةُ الإشهاريّةُ بأدواتِ الاستمالةِ والإغراءِ التي تجذبُ النّفسَ البشريّةَ، والتّشويقِ، وبعضِ التّهويلِ والمبالغةِ للفت الانتباه، ودغدغةِ المشاعرِ والعواطفِ.

بعد ذلك كلِّه، أي بعد هذه المجالاتِ غيرِ اللّغويّةِ في معظمِها، وقد تضافُ لها مجالاتٌ أخرَى بحسبِ السّياقِ، كالمجالاتِ العلميّةِ المختلفةِ، بحسبِ موضوعِ الرّسالةِ الإشهاريّةِ، تختمُ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ تغليفَ الرّسالةِ الإشهاريّةِ بالشّروطِ اللّغويّةِ الواجبِ توفّرُها في لغة الإشهارِ، من أدوات الاحتجاجِ والإقناعِ والتّأثيرِ وغيرِها ممّا تطرحُه البلاغةُ القديمةُ والحديثةُ. لذا فقد شاع في بعض الدّراساتِ اللّسانيّةِ الإشهاريّةِ مُصطلحُ: لُغَةُ الإشهارِ، وهذا يهدفُ إلى تمييزِ الإشهارِ بلُغتِه الخاصّةِ والمميّزةِ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ، ولغةُ الإشهارِ هي عنصرٌ مهمٌّ من عناصرِ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ كما أشرنا آنفًا.

هذه المجالاتُ المتباينةُ والمتّصلةُ التي لا يمكنُ للإشهارِ التّخلّي عنها، لا تجمعُها المُصطلحاتُ المتداوَلةُ والشّائعةُ والمبثوثةُ في الدّراساتِ الإشهاريّةِ الحديثةِ، إلّا أن يجمعَها المصطلحُ العلميُّ الضّروريُّ: اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ، ليُفهمَ من هذا المصطلحِ أنّ الإشهارَ من غاياتِ اللّسانيّاتِ الحديثةِ، الّذي صارَ لزامًا عليها أن تضطلعَ بتقنين آليّاتِه وإجراءاتِه، ليُصبحَ الإشهارُ بذلك علمًا قائمًا بذاتِه.

ت- لغةُ الإشهارِ:

واللّسانيّاتُ تضعُ للإشهارِ لغتَه الخاصّةَ، التي تُبنى على آليّاتٍ عديدةٍ تهدفُ إلى تحقيقِ غاياتِ الإشهارِ حين التّسويقِ لأمرٍ ما، وذلك بما يناسبُ المقامَ منِ اختيار الألفاظِ المناسبةِ، والألوانِ، وغيرِها منَ الضّوابطِ اللّسانيّةِ التي نذكرُ منها:

- الاختصارُ: فالإشهارُ رسالةٌ مُوجزةٌ مختصرةٌ، له مساحةٌ محدودةٌ، من حيث الحجمُ ومن حيث الزّمنُ، فلا يمكنُ التّطويلُ، ولا الإسهابُ، ولكنّه اختصارٌ من غيرِ إخلالٍ بعرضِ أهمِّ معلوماتِ المُنتجِ أوِ الفكرةِ موضوعِ الإشهارِ.

- الابتكارُ: وهو التّجديدُ في الألفاظِ والعباراتِ، مع تجنّبِ المُبتذَلِ أوِ المتداوَلِ الشّائعِ المملولِ، فالألفاظُ الجديدةُ تلفتُ الانتباه، وترسخُ في الذّهن، وتجلبُ وتجذبُ إليها المُستمعين والمتلقّين، على ألّا يكونَ هذا الابتكارُ والتّجديدُ غريبًا ولا شاذًّا.

- التّخصّصُ: تحديدُ الموضوعِ وعدمُ التّهويم في العموميّاتِ، فالإشهارُ يكونُ بلُغةِ المنتوجِ واختصاصِه، فالمنتوجُ الطّبيّ يختلفُ عنِ الإشهارِ الصّناعيِّ، أوِ الإعلاميِّ أوِ التّرفيهيِّ، فالتّخصّصُ مطلوبٌ، ثمّ تحديدُ خصائصِ السّلعةِ أوِ المنتوجِ ضروريٌّ ومطلوبٌ، فالتّعميمُ في الحديث عنِ السّلعِ قد لا يخدمُ السّلعةَ المقصودةَ، أو لا يجعلُها تتميّزُ عن غيرِها، وقد يخدمُ السّلعَ المنافسةَ الأخرى.

- مطابقةُ المقامِ: مراعاةُ المقامِ ضروريّةٌ لتحقيقِ حجيّةِ الخطابِ الرّسالةَ الإشهاريّةَ وإقناعِها وتأثيرِها. فمطابقة الإشهارِ لمقتضى الحال كفيلٌ بأن يكون له تأثيرٌ منَ المتلقّين، وتكونُ المطابقةُ على مستوياتٍ عدّةٍ، منها مستوَى الفهمِ لدى المتلقّين، وكذا معرفةُ احتياجاتِهم وضروريّاتِهم الأوليّةِ.

- التّسلسلُ والتّرتيبُ: تتطلّبُ الرّسالةُ الإشهاريّةُ تسلسلًا منطقيًّا في عرضِ الموضوعِ، بما يُشوّقُ ويُغري المتلقّيَ المستهدَفَ منَ الإشهار، حتّى يتقبّل الفكرةَ بقَبولٍ حسنٍ.

- الحِجاجُ: يُعدّ الخطابُ الإشهاريُّ خطابًا إقناعيًّا حِجاجيًّا بامتيازٍ، وتُعدّ آليّةُ الحِجاج في أسلوبِه ضرورةً لا بدّ منها لتحقيق التّأثيرِ، والحِجاجُ موجودٌ في الخطابِ الإشهاريِّ في نظامَيْه كليْهما: النّظامِ اللّسانيِّ وكذا النّظامِ الأيقونيِّ.

- اللّغةُ الأيقونيّةُ والتّناسقُ الضّروريُّ: لا يعتمدُ الإشهارُ على الكلماتِ التّعبيريّةِ فقط، بل يجبُ مثلًا تصويرُ السّلعةِ أوِ المنتجِ، وكذا حسنُ اختيارِ الألوان، ودقّتُها وتناسقُها، وكذا اختيارُ الرّسوماتِ والأشكالِ المناسبةِ، بل حتى اختيارُ مكانِ عرضِ الإشهار وزمنِه يكونُ مدروسًا بحيث يحقّقُ الغايةَ التّأثيريّةَ المرجوّةَ. فلا يمكنُ تفادي دورِ الصّورةِ المهمِّ، فهي العتبةُ الأولى الّتي تقابلُ المتلقِّي قبل أن يدلفَ إلى حياضِ نصِّ الإشهارِ.

وتحدّدُ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ المكوّناتِ الأساسيّةَ للبنيةِ اللّغويّةِ للرّسالةِ الإشهاريّةِ، حتى تؤدّيَ مفعولَها التّأثيريَّ؛ منها استعمالُ ألفاظٍ مألوفةٍ لدى المجتمعِ المستهدَفِ، كما يُفضّلُ استعمالُ الجُملِ الاسميّةِ أكثرَ منَ الجُملِ الفعليّةِ، مع استخدامِ كلماتٍ محفّزةٍ وابتكارِ ألفاظٍ

جديدةٍ جذّابةٍ تثيرُ الانتباه، مع توظيفِ بعضِ العناصرِ البلاغيّةِ كالتّكرارِ والسّجعِ والتّشبيهِ والاستعارةِ والكنايةِ.

ث- وظائفُ الإشهار:

لا تكتفي اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ بتقنينِ لُغةِ الإشهار، بل تبحثُ كذلك سَنَّ وظائفِ/ وظيفيّةِ الإشهارِ، وأهمُّ وظيفةٍ للإشهار، أوِ الوظيفةِ الأساسِ: التّسويقُ. فالوظيفةُ التّسويقيّةُ للإشهار تهدفُ إلى إبرازِ مميّزاتِ السّلعِ المعروضةِ أوِ المنتجاتِ، وتسويقِها وعرضِها عبْرَ قنواتِها المتاحةِ على اختلافِها، فيذكرُ مـثلاً سعرَها المنخفضَ أوِ المناسبَ، وفعالياتِها وخصائصَها المميّزةَ لها مِنْ منافستِها والمُغريةَ بالاقتناء، وكذا التّحفيزُ والتّسهيلُ الذي يمكنُ عرضُه مقابلَ اقتنائِها، وهذا كلُّه لا نخرجُه منَ البوتقةِ اللّسانيّةِ، إذ تُعدّ اللّغةُ بنظامَيْها: اللّسانيِّ والأيقونيِّ الأداةَ الفعّالةَ لتسويقِ المنتجاتِ بإشهارٍ مدروسٍ ودقيقٍ، للتّأثيرِ في الجمهورِ المستهدَفِ.

ولا تنفصلُ الوظيفةُ التّسويقيّةُ عن وظيفةٍ أخرى مهمّةٍ: الوظيفةِ الاقتصاديّةِ، إذ تسعَى الإشهاراتُ إلى الدّفعِ بعجلةِ الاقتصادِ في شقَّيْه الصّناعيِّ والتّجاريِّ نحوَ التَّنْميَةِ والتّطوّرِ، فالإشهارُ خادمٌ لاقتصادِ المجتمعاتِ والـدّولِ. ولا تكادُ الشّركاتُ التّجاريّةُ والصّناعيّةُ وغيرُها منَ المؤسّساتِ الاقتصاديّةِ تَسْتَغْني عن فاعليّةِ الإشهارِ للتّسويقِ لبضائعِها.

وغيرُ بعيدٍ عنِ الوظيفةِ السّابقةِ، تظهرُ وظيفةٌ أخرى من وظائفِ الإشهارِ، وهي الوظيفةُ التّجاريّةُ التي تهدفُ إلى بيعِ السّلعِ وتحقيقِ الأرباحِ، وربْحِ المنافساتِ.

ومن وظائفِ الإشهارِ أيضًا: الوظيفةُ التّعليميّةُ، تقدّمُ الرّسالةُ الإشهاريّةُ فيها معلوماتِ السّلعِ والبضائعِ والمنتجاتِ المعروضةِ للبيعِ، بما يساعدُهم في تحسينِ ظروفِ معيشتِهم وحياتِهم، وَفْقَ قوالبَ لسانيّةٍ وأيقونيّةٍ إقناعيّةٍ إغرائيّةٍ.

دون أن ننسَى الوظيفةَ الاجتماعيّةَ للإشهار، التي تحاولُ الاستجابةَ لمتطلّباتِ واحتياجاتِ مجتمعٍ بعينِه، فالإشهارُ ينطلقُ من بيئةٍ جغرافيّةٍ محدودةٍ، ويوجّهُ إلى مجتمعٍ بعينِه، إذن فهو يراعِي حاجياتِ وخصوصيّاتِ ذلك المجتمعِ المستهدَفِ، فيساعدُ على تقديمِ منتجاتٍ ذاتِ تأثيرٍ إيجابيٍّ في أفرادِ المجتمعِ ممّا قد يحسّنُ منَ المستوى المعيشيّ عامّةً.

ومـن وظائفِ الإشــهـار: الوظيفةُ التّرفيهيّةُ، وهذا قد يمسُّ الجانبَ الشّكليَّ والتّصميميَّ للإعلاناتِ، وبخاصّةٍ الجانبَ الأيقونيَّ للإشهارِ والإعلانِ، التي تكون بأشكالٍ فنّيّةٍ جماليّةٍ وجذّابةٍ.

ج- أهدافُ الإشهار:

كما تهدفُ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ إلى تحديدِ ووضْعِ بعض الأهدافِ التي يسعَى الإشهارُ إلى تحقيقِها، التي ينطوي عليها. وقد ذكرَ الدّارسون بعضَها، نذكرُ منها :

- يستخدمُ الإشهارُ والإعلانُ وَسيلَةً لتغييرِ سلوكِ النّاس، فقد يكونون لا يرغبون في سلعةٍ ما، فيُقنعُهم الإعلامُ بمعلوماتٍ جديدةٍ ومُغريةٍ، فتتغيّر قناعتَهم، وهذا لا ينطبقُ على السّلعِ التّجاريةِ فقط، بل ينطبقُ على جميعِ الأفكارِ التي يمكنُ أن يحتويَ عليها موضوعُ الإشهارِ. لهذا فالإشهارُ يهدفُ إلى تغييرِ سلوكاتِ النّاس.

- إنشاءُ نوعٍ منَ الانتماءِ العاطفيِّ أوِ الشعوريِّ بين المُستهلِك المستهدَف وبين موضوعِ الإشهارِ، ممّا يشكّلُ كذلك نوعًا منَ الولاء، من خلال تعريفِ المُستهدَفين بالموضوع المعروضِ للإشهارِ بمعلوماتٍ ذواتِ تأثيرٍ في إقناعه.

> يستهدفُ الإشهارُ الذّاكرةَ الجماعيّةَ المخزّنةَ في تراثِ المجتمعِ المشتركِ

ح- شُروطُ الخطابِ الإشهاريِّ:

وما يجبُ أن نُنبّهَ إليه ممّا قد يدخلُ في شروطِ الخطابِ الإشهاريِّ التي تسنُّها اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ هو ضرورةُ وجودِ الصّلةِ المباشرةِ بين المُرسلِ والمرسَلِ إليه، أي بين المُشْهِرِ والمستهدَفِ، ولا تتحقّقُ هذه القناةُ المستمرّةُ المتّصلةُ بينَهما إلّا بثلاثةِ شروطٍ أو آليّاتٍ:

* اللّغةُ الواحدةُ المشتركةُ، فاللّغةُ أُولَى آليّاتِ الإشهار، ولا يمكنُ أن ينجحَ التّواصلُ إذا شكّلتِ اللّغةُ عائقًا بين الطّرفَين، ولكي يكونَ الخطابُ ناجحًا ومؤثّرًا يجبُ أن يكون مُوَجَّهًا إلى عمومِ النّاس وجمهورِهم لا إلى خاصّتِهم.

* وكذا الثّقافةُ والعقيدةُ المشتركةُ الموحّدةُ، فلا يمكنُ للرّسالة الإشهاريّةِ المُضمّخةِ بثقافةٍ غريبةٍ أو مضادّةٍ لثقافةِ المتلقّي المستهدفِ أن تؤثّرَ فيه، بل قد تزيدُ من نفورِه.

* وكذا وحدةُ البداهةِ بينهما، فبعضُ الأفكارِ عند طرحِها لا تقبلُ التَّسْويغَ أو التّفصيلَ والشّرحَ، وإنّما تُفهمُ رأسًا

وبداهةً، وهي منَ المتعارَفِ والمشهورِ والمتّفقِ عليه في ذلك المجتمعِ أوِ البيئةِ والرّقعةِ الجغرافيّةِ. فالإشهارُ كما قيل، يستهدفُ الذّاكرةَ الجماعيّةَ المخزّنةَ في تراث المجتمعِ المشتركِ.

كما تُفيدُ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ من أهمِّ النّظريّاتِ الإشهاريّةِ في المجالِ الإشهاريِّ، المعروفةِ والمشهورةِ، وقد ذكروا منها أربعَ نظرياتٍ مشهورةٍ : وهي النّظريّةُ الإشهاريّةُ الإقناعيّةُ الإخباريّةُ، وَيُجْمَعُ فيها بين الإقناعِ والإخبارِ، وفي هذه النّظريّةِ يبدو المستهلكُ كائنًا عقلانيًّا، وفعلُ الاقتناءِ لديه يكونُ متعلّقًا بحكمٍ فُكِّرَ فِيهِ مِنْ قَبْلُ بنوعٍ منَ النّضجِ. لذا ينبغِي أن يكونَ خطابُ الإشهارِ في هذه الحالةِ مُقنعًا ومُخبرًا ومُفسّرًا، بالإضافةِ إلى كونِه موضّحًا ومُجَوِّزًا الحاجيّاتِ التي يمكنُ إرضاؤها في موضوعِ اقتناءِ المنتجاتِ.

وكذا النّظريّةُ الإشهاريّةُ الإسقاطيّةُ الإدماجيّةُ ومقابلُها سابقًا سمّيَ بالنّظريّةِ الاجتماعيّةِ، لأنّها تعتمدُ على انتماءِ المُستهلِكين إلى جماعاتٍ اجتماعيّةٍ بعاداتِها وتقاليدِها، فيحاولُ الإشهارُ أن يمنحَ المنتوجَ الخصائصَ والقيمَ نفسَها للجماعة، بحيث يصبحُ المنتوجُ دالًّا عليها، ويستفيدُ الإشهارُ هنا من مباحثِ علمِ الاجتماع ونظرياتِها.

وثالثُ النّظريّاتِ: النّظريّةُ الإشهاريّةُ السّلوكيّةُ، يعتمدُ الإشهارُ فيها على أسلوبِ الإلحاحِ والتّكرارِ والإشراط، كما عند بافلوف في نظريّتِه السّلوكيّةِ، من أجل جعْلِ حضورِ السّلعة يهيمنُ على الأفرادِ ويحاصرُ وجودَهم.

وآخرُ النّظريّات: النّظريّةُ الإشهاريّةُ الإيحائيّةُ، وتجعلُ منَ الإشهارِمُتَّخِذًا صفةَ إيحاءٍ أوِ اقتراحٍ غيرِ إلزاميٍّ للمنتوجِ، فيستميلُ لا شعوريًّا المستهلكَ.

خاتِمَةٌ:

* ممّا سبقَ تبيّنَ أنّ الإشهارَ مبحثٌ مهمٌّ من مباحثِ اللّسانيّاتِ، التي تضعُ قوانينَه اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ، فالإشهارُ يستفيدُ منَ المُعْطَيَاتِ المعرفيّةِ والعلميّةِ التي تقدّمُها اللّسانيّاتُ، فَتُسْتَغَلُّ وَتُسْتَثْمَرُ لإيصال الرّسالةِ وتحقيقِ التّأثيرِ والإقناعِ في أبعادِه المختلفةِ: الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ.

* إنّ الإشهارَ في واجهتِه الأُولى لغةٌ، وتضعُ اللّسانيّاتُ آلياتِه الإقناعيّةَ والحِجاجيّةَ في بُعدِه اللّسانيِّ أوّلًا، ثمّ تضعُ السّيميائيّاتُ والتّداوليّاتُ بُعدَه التّأثيريَّ والإقناعيَّ للجذبِ في بُعدِه الأيقونيِّ كذلك. كلُّ ذلك تضطلعُ به اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ التي تجمعُ هذه العلومَ، وتصبُّ في القوالبِ الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ للخطابِ الإشهاريِّ.

* إنّ اللّسانيّاتِ الإشهاريّةَ تسهرُ على تحقيقِ الوظائفِ التي يمكنُ أن تُؤدّيَها الرّسالةُ الإشهاريّةُ كالوظيفةِ التّسويقيّةِ والاقتصاديّةِ والتجاريّةِ، وكذا الوظيفةُ التّعليميّةُ والتّوجيهيّةُ والتّرفيهيّةُ.

*تقومُ الرّسالةُ الإشهاريّةُ على خاصّيّةٍ لسانيّةٍ بحتةٍ: وهي العمليّةُ التّواصليّةُ، وتقومُ العمليّةُ التّواصليّةُ على المثلّثِ التّواصُليِّ اللّسانيِّ: المُرسلِ والمرسلِ إليه والرّسالةِ، وتعملُ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ على تحقيقِ التّواصلِ الجيّدِ بين المُشْهِرِ والمستهلكِ، وتهذيبِ نصِّ الإشهارِ لسانيًّا وأيقونيًّا.

– لقد نقلتِ اللّسانيّاتُ الإشهاريّةُ النّصَّ الإشهاريَّ من حَقْلِ الدّعايةِ إلى حقلِ الدّراسةِ اللّغويّةِ، وذلك بتوظيفِ التّقنيّاتِ اللّسانيّةِ لتوصيلِ الرّسالةِ الإشهاريّةِ وتحقيقِ الأثرِ المطلوبِ والإقناعِ المرغوبِ.

– انتقلَ الإشهارُ مع اللّسانيّاتِ الإشهاريّةِ منَ التّرويج والتّسويقِ فقط، إلى صناعةِ الثّقافةِ وبناءِ الوعْيِ وتوجيهِ السّلوكاتِ الاجتماعيّةِ للأفرادِ والمجتمعاتِ، والتّأثيرِ في الذّوقِ العامِّ.

الهوامش:

(1) حميد لحمداني، مدخل لدراسة الإشهار. مجلّة: علامات، العدد: 18، ص: 75.

(2)عبد القادر سلامي، الخطاب الإشهاري. مجلّة: سمات، ص: 49.

(3)مريم الشنقيطي، الخطاب الإشهاري في النص الأدبي، دار الفيصل، 1440ه، ص: 14.

(4)معلم فريدة وعمار العياشي، أثر الأفعال الكلامية في الخطاب الإشهاري. مجلة إشكالات في اللغة والأدب، قالمة، الجزائر، المجلد: 9، العدد: 5، 2020، ص: 12.

(5) عبد الحكيم سحالية، التداولية، مجلّة مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد: 5، 2009، ص: 90.

(6) منير بن رحال، شرعية حضور النص الإشهاري في الثقافة اللسانية العالمية، موقع: منتدى تخاطب. تاريخ الدخول: 13/ 01/ 2024.
https://takhatub.ahlamontada.com/t9626-topic

(7) ينظر: المرجع نفسه.

(8) ينظر: محمد الصيرفي، الإعلان، دار المناهج، الأردن، 2013، ص: 15 وما بعدها.

(9)ينظر: حميد الحمداني، مدخل لدراسة الإشهار، مجلّة علامات، العدد 18، 2002، المغرب، ص: 80، 81.

خصوصيّةُ الإبْداعِ، ومُعْجميّة الّلغةِ



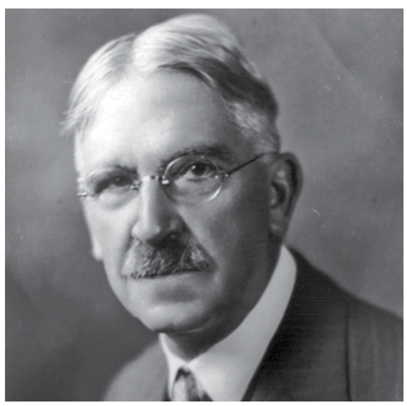
محمد عطية محمود
كاتب وناقد مصري

هلْ هُناكَ فَارقٌ بينَ لُغَةِ الإبْدَاعِ أو البَيانِ الرَّصِينَةِ المُحتَكِمةِ لقَواعِدِها، ومَا يُستَجدُّ عَليْهَا مِنْ مَعانٍ واصْطلاحاتٍ تُقرّهَا مَجامِعُنَا اللُّغويّةُ لتَجديدِ الدِّماءِ وسَرَيانِها فِي جَسَدِ اللّغَةِ العَربِيَّةِ، والّتِي يُمَارِسُ بِها الكَاتِبُ دَوْرَهُ فِي بيانِ مَا تَعْتَلِجُ بِهِ ذَاتُه الطَّامِحَةُ لمُخاطَبَةِ العَالَمِ بذَاكَ الخِطابِ البَليغِ الّذِي يُبحِرُ فِي الذّاتِ/ العَالَمِ، ويَأتِي بخَبِيئَةِ النَّفْسِ كَي يَسبر غَوْرَها، ويَجْعَلَهَا تَمتَطِي صَهْوَةَ الخَيَالِ ليُضَفِّرَه مَعَ الوَاقِعِ فِي وَشِيجَةٍ تَتَضَافَرُ فِيهَا اللُّغَةُ مَعَ رُمُوزِهَا ودَلالاتِها العَمِيقَةِ، وبَرَاعَةِ مُفْرَدَاتِها ومُترادِفَاتِها فِي إيصَالِ المَعْنَى المُرَادِ، والّتِي رُبَّما كَانَ مِنْ أكْبَرِ هُمُومِهَا الإبْدَاعُ والإمْتَاعُ، وتَوصِيلِ رِسَالَتِهِ إلَى العَالَمِ مِن حَوْلِه، وهُو بِدَايَةُ المُتَلَقِّي؟..

وبَيْنَ لُغَةِ التّلقِّي الّتِي يُرِيدها المُتَلَقِي سَلِسَةً سَهْلَةً يُمكِنُ التَّعَامُلُ مَعَهَا مِن أقْصَرِ الطُّرُقِ الّتِي تُؤدِّي إِلَى التَّعَاطُفِ والفَهْمِ معًا، دُونَما – أحيَانًا – إدْرَاكٍ لجَمَالِيَّاتِ هَذِهِ اللُّغَةِ المُبدِعةِ، وهِيَ المِسَاحَةُ الّتِي رُبَّما نَزَلَ بِها المُبدِعُ إِلَى مِساحَاتِ قُدْرَةِ المُتَلَقِّي عَلَى الوَعْيِ بأسْرَارِ تِلْكَ اللُّغَةِ ومَدَى تَشبُّعِه بثَرائِها عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ مِنْ سَطْحِيَّةِ المَعْنَى المُرادِ تَوصِيلُه سَواءً بالسَّطْرِ النّثْرِي السَّردِي، أو بِالمَقْطَعِ الشِّعْرِي ذِي التَّركِيبَةِ البَسِيطَةِ الّتِي تُشبِعُ نَهَمَهُ، وتَبدَأُ مَعَهُ سَيَاحَتُهُ الجَمَالِيَّةُ والفِكْرِيَّةُ فِي مَدَارَاتٍ تَصنَعُهَا اللُّغَةُ وتَنْوِيعَاتِها وتَشرُّبِها بِهَذَا المَدِّ الوِجْدَانِي؟

أهمِّيةُ اللُّغَةِ

تُمَثِّلُ تِلْكَ العِلاقَةُ مِحْوَرًا مُهِمًّا مِن مَحَاوِرِ ارْتِباطِ المُبدِعِ باللُّغَةِ كَوسِيطٍ



جون ديوي

يُحمِّلُه هَذِهِ المُهِمَّةَ الثَّقِيلَةَ الَّتِي رُبَّما وَقَفَتْ حَجَرَ عَثْرَةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُتَلَقيه، لِتَقَعَ القَطِيعَةُ بَينَ مَوهُوبِينَ باللُّغَةِ وعَاشِقِينَ لَهَا، وبَيْنَ مُتلَقِيهِم الَّذِي يَجِدُ صُعُوبَةً فِي إدْرَاكِ تِلْكَ المَرَامِي الحَمِيمَةِ الَّتِي تَدْفَعُهُم إِلَى الاسْتِئثارِ بلُغَةٍ جَزْلَةٍ تَأتِي فِي مَقَامِهَا ومَحِلِّهَا الَّذِي يَتَواءَمُ مَعَهُ هَذَا المَقَالُ البَلِيغُ، فَهِيَ الَّتِي تَأتِي بِحسبِ "جون ديوي" فِي كِتَابِهِ "الطَّبيعَةُ البَشَرِيَّةُ والسُّلُوكُ الإنْسَانِي»:

«ومَعَ ذَلِكَ فَاللُّغَةُ بِمُجرَّدِ وُجُودِهَا هِيَ لُغَةٌ تَقومُ بِعَمَلِها كَلُغَةٍ، وهِيَ تَقُومُ بِعمَلِها غَيْرَ هَادِفَةٍ اسْتِمرَارَ القُوَى الَّتِي خَلَقَتْهَا، بَلْ تَغْيِيرَها وإعَادَةَ تَوجِيهِها؛ فَلَهَا إذَنْ أهْمِيَّةٌ فَائِقَةٌ لِدَرَجَةِ أنَّنا نَبْذِلُ عِنَايَةً وجَهْدًا عَظِيمَيْنِ فِي اسْتِعمَالِها. وعَلَى هَذَا يَنْشَأُ الأدَبُ، ويَنْشَأُ بَعْدَ ذَلِكَ جِهَازٌ ضَخْمٌ مِنَ القَوَاعِدِ والبَلاغَةِ والمَعَاجِمِ والنَّقْدِ الأدَبِي والعَرْضِ والتَّلْخِيصِ والمَقَالَاتِ، ومَا يَنْتِجُ اتِّفاقًا مِنْ أدَبٍ»، وعَلَيْهِ فَإنَّ فَضَّ الاشْتِبَاكِ بَيْنَ مُبْدِعِ الأدَبِ ومُتَلَقِّيه يَأتِي مِنْ خِلالِ تِلْكَ العِلاقَةِ البَيْنِيَّةِ الَّتِي يَتَجَسَّدُ فِيهَا طُمُوحُ القَارِئِ كَيْ يَرْتَقِي بذَائِقَتِهِ لِيَلْتَقِي عِندَ الحَدِّ الفَاصِلِ الَّذِي يَصْنَعُهُ المُبْدِعُ بِمَا لَا يُخِلُّ مِنَ الإيقَاعِ اللُّغَوِيّ والفَنِّي الَّذِي يَرتَئِيهِ لِنَصِّهِ الإبْدَاعِي لأدْنَى نُقْطَةٍ فِي مُنْحَنَى هُبُوطِهِ؛

لَيَرْتَقِي مَرَّةً أُخْرَى بِذَاكَ الشَّغَفِ الذي يُحْدِثُهُ التَّلَقِّي فِي مُقَابَلَةِ حَالَةِ التَّجَلِّي الَّتِي يُحْدِثُها فِعْلُ الإِبْدَاعِ، وذَلِكَ اتِّكَاءً عَلَى لُغَةٍ تُعْطِي مَفَاتِيحَهَا مِنْ خِلالِ مَقَايِيسِ بَلَاغِيَّةٍ مُحَدَّدةٍ مُنْبَعِثةٍ مِنْ قَواعِدِ ومَعَاجِمِ للُّغَةِ حَاوِيَةٍ وحَافِظَةٍ للُّغَةِ ومُرَشِّدَةٍ ومُجدَّدةٍ لَهَا، تِلْكَ المُهِمَّة بَالِغةُ التَّأْثِيرِ الَّتِي تَلْعَبُها المَعَاجِمُ، كَمَبْعَثٍ للهِمَّةِ فِي مُوَاكَبَةِ العَالَمِ فِي تَسَارُعَاتِه نَحْوَ مُصطَلَحَاتٍ وإِيجَازَاتٍ جَدِيدَةٍ..



المَدُّ النَّقْدِي

بالإِضَافَةِ إِلَى مَدٍّ نَقْدِي كَوسِيطٍ بَينَ لُغَةِ المُبْدِعِ المُفَارِقَةِ والمُتَجَاوِزَةِ والبَاحِثَةِ دَوْمًا عنْ كُلِّ مَا هُو مُبْهِرٍ وجَدِيدٍ وسَاطِعٍ وبَلِيغٍ ومُتَمَايِزٍ، ولُغَةِ المُتَلَقِّي البَاحِثِ عَنِ المُتْعَةِ فِي المَقَامِ الأَوَّلِ مَعَ الفَهْمِ غَيْرِ المُرَاوِغِ فِي غَالِبِ الأَحْوَالِ لِيَفُكَّ شِيفْرَاتِ النَّصِّ بِيُسرٍ، أو مِلء ثَغَراتِ المَعْرِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ خِلالِ نَمَاذِجِ الإِبْدَاعِ الأَدَبِيَّةِ الَّتِي لَوْلا اللُّغَةِ ورَوَافِدِهَا مِنَ المَعَانِي المُلَازِمَةِ للأَشْيَاءِ لَمَا اسْتَطَاعَتْ حَفْرَ قَنَوَاتِ وصُولِها والتِصَاقِهَا بالوَعْي الإِنْسَانِي/ المُتَلَقِّي، واتَّخَذَتْ مِنْ مَجَازَاتِهَا وإِعْجَازَاتِها الَّتِي قَالَ عَنْهَا «عبد القاهر الجُرْجَاني» في «دَلَائِلِ الإِعْجَازِ»:

«وهَلْ تَجِدُ أَحَدًا يقُولُ: "هَذِهِ اللَّفْظَةُ فَصِيحَةٌ»، إلَّا وهُوَ يَعْتَبِرُ مَكَانَهَا مِن النَّظْمِ، وحُسنِ مُلائَمَة مَعْنَاها لمَعَانِي جَارَاتِهَا، وفَضْلِ مُؤانَسَتِها لأَخَواتِهَا؟.. وهَلْ قَالُوا: «لَفْظَةٌ مُتمَكِّنَةٌ ومَقْبولَةٌ»، وفِي خِلافِه: «قَلِقَةٌ ونَابِيَّةٌ ومُسْتَكْرَهةٌ»، إلَّا وغَرَضُهُم أَنْ يُعبِّرُوا بالتَّمَكُّنِ عَنْ حُسْنِ الاتِّفَاقِ بَيْنَ هَذِهِ وتِلْكَ مِنْ جِهَةِ مَعْنَيْهِما، وبالقَلَقِ والنُّبو عَنْ سُوءِ التَّلاؤمِ. وأَنَّ الأُولَى لَمْ تَلْقَ بالثَّانِيَّة فِي مَعْنَاهَا، وأَنَّ السَّابِقَةَ لَمْ تَصلُح أَنْ تَكونَ لِفقًا للتَّالِيَّةِ فِي مُؤدَّاهَا؟»

لِيُقِيمَ النَّقْدُ هُنَا تِلْكَ العِلاقَةَ عَلَى نَحوٍ مِنَ التَّواصُلِ بَينَ هَذا وذَاكَ، والرَّبْطِ بَينَ صَاعِدٍ بكُلِّ حُمُولَتِهِ الذِّهنيَّةِ للتَّلَقِّي، وهَابِطٍ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِن لُغَةٍ وفِكرٍ، هُبوطًا غَيرَ مُسفٍ ولا مُخِلٍّ، فِي اتِّجَاهِ الحَدِّ الأَدْنَى مِنَ التَّنَازُلِ لِيصِلَ إِلَى تِلْكَ اللُّغَةِ أو الوَسِيلَةِ لذِهْنِ المُتَلقِّي.. فَهلْ تَنشأ هُنَا لُغَةٌ وَسِيطَةٌ يَحْكُمُها هذَا الصِّراعُ مِنْ خِلالِ التَّوْجِيهِ النَّقْدِي الكَاشِفِ الَّذي لا يَنقُضُ النَّصَّ الأَدبِي بالقَدْرِ الَّذي مِن المُفْتَرَضِ أَنْ يبْنِيَهُ بِهِ، ومِنْ خِلالِ إِلْقَاءِ الضَّوءِ الكَاشِفِ عَلَى مَنَاطِقِ العَتْمَةِ فِيهِ؟.. تِلْكَ هِيَ المُعَادَلَةُ الَّتِي يَتَحَكَّمُ فِيهَا ثَلاثَةُ أَطْرافٍ لا تَستقِيمُ العَمَلِيَّةُ الإِبْداعِيَّة المُتكِئَةُ عَلَى اللُّغَةِ كأَسَاسٍ وكبِنْيَةٍ تَحْتِيَّةٍ لِكُلِّ عَمَلٍ فَنِّيٍّ أَدبِيٍّ مَكْتُوبٍ، إِلَّا بِهَا، اتِّسَاقًا مَعَ قِيمَةِ المَعْرِفَةِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْهَا هَدَفًا سَامِيًّا لإِدْرَاكِ ثَقَافَةِ التَّعَامُلِ بَيْنَ المُبدِعِ والمُتلَقِّي والوَسِيطِ الَّذي رُبَّما تَغيَّرَ دَوْرُه فِي الفَضَاءِ السَّلِيمِ لِخِدْمَةِ النَّصِ المَكْتُوبِ، لِيَكُونَ نَافِذَةً عَلَيْهِ وحَلَقَةَ وَصْلٍ بَالِغَةِ الأَهَمِّيَّةِ ووَثِيقَةِ الحُضُورِ فِي المَشْهدِ مِن خِلالِ اللُّغَةِ الَّتِي رُبَّمَا غَادَرَتْ مَعَاجِمَهَا أَوْ طَرَأَتْ عَلَيْها، اشْتِبَاكًا وصِراعًا دَائِمَيْنِ بَيْنَ الرَّاسِخِ وبَيْنَ المُستَحْدَثِ مِن مَعانٍ وأَلْفَاظٍ.

خُصوصيَّة المُبْدِع، ومُعْجميَّة اللُّغة

سَيظَلُّ المُبْدِعُ مُبْدِعًا، لَهُ مُعجَمُهُ الخَاصِّ مِنْ خِلالِ إبْدَاعِه وحِسِّهِ بالالْتِصَاقِ والالْتِحَام والتَّوحُّدِ مَعَ كلِمَاتِهِ الدَّالَّةِ والمُعبِّرَةِ، إضافَةً إلَى مُستجدَّاتِ المُعْجَمِ العَامِ الحَاوي لدُرُوبِ اللُّغَةِ، كَمَا سيظَلُّ المُتلقِّي مُتلقِّيًا فِي ظلِّ هَذِهِ العِلاقَةِ مِنْ تَبَادُلِ الإِبْدَاعِ والاطِّلاعِ، والَّتي مِنَ المُمْكِنِ أنْ تَكونَ عِلاقَةً كَامِلَةً إبدَاعيَّةً يُمارِسُها المُتلقِّي أيضًا بروحِ الإبدَاعِ فِي تَلَقِّيهِ ذَلِكَ الَّذي قَدْ تَنْشأُ مِنْهُ قُوَّةٌ جَديدَةٌ مُوازِيَةٌ لا مُضَادَةٌ للإبْداعِ فِي التَّلَقِّي، حَيْثُ يكْتَسِبُ المُتلقَّي هُنا حَصيلَةً لُغويَّةً مُدركَةً وواعِيَةً يَتشرَّبُّها مِن قِراءاتِه المُتعَدِّدةِ والمُتكرِّرَةِ، والَّتي تَبتَغي كَمَالَ الإنْصاتِ والفَهْمِ وكمَالَ الإِبْدَاعِ الَّذي يُقدِّمُها لَهُ سَواءً كَانَ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا أَوْ سَردًا بالمَعْنَى المُتَدَاوَلِ، لآليَّاتِ التَّعَامُلِ مَع الإبْـدَاعِ بكَافَّةِ تَوجُهَاتِه ومَشَارِبِه، يَتشرَّبُها مِنْ خِلالِ مَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ العِلاقَةِ



طه حسين

التَّبَادُليَّةِ الَّتي تُشكِّلُ ذَائِقَتَهُ الَّتي رُبَّمَا ارْتَقَتْ بهَذَا الوَعْيِ المُتجدِّدِ بالمَعْرِفَةِ، وبالتَّالي بالتَّشرُّبِ بقَواعِدِ لُغَةِ تَفاهُمٍ رُبَّما غَيَّرتْ مِنْ مَسَارٍ قَديمٍ نَمَطِيٍّ، رُبَّمَا كَانَ لا يَجْعَلُ مِنْهُ إلَّا مُستقبلاً دُونَ وَعْيٍ لِمَا يَقْرَأُ أَوْ يَسْمَعُ، في عِلاقَةٍ جَديدَةٍ مِن عِلاقَاتِ التَّعامُلِ مَعَ اللُّغَةِ الغَنيَّةِ بتَرَاكِيبِهَا وتَعَدُّدِ مُستوياتِ أذْواقِها، وبمُقَاوِمَتِهَا للارْتِدادِ إلى اللَّفْظِ المَهْجُورِ الَّذي لَا يُقدِّمُ صُورَةً غَنيَّةً بالمَعَانِي أوْ يَبْعِدِ بالذَّائِقَةِ إِلَى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ فِي عُمْقِ وَعْيٍ مُتَأخِّرٍ..

ذَلِكَ الَّذي نُثَمِّنُ بِهِ ومِنْ خِلالِه الــدَّوْرَ الَّذي تَقُومُ بِهِ المَعَاجِمُ العَرَبيَّةُ فِي تَقْدِيمِ وَجْهٍ جَديدٍ دَائِمًا ومُتَجَدِّدٍ لِلُغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ رَحِمِهَا لا مِنْ خَارِجِه، اسْتِخْلاصًا لجُذُورِ اللُّغَةِ واسْتِكْشَافًا للآلِئِهَا الَّتي كَانَ كَشْفُ النِّقَابِ عَنْهَا مِنْ دَوَاعِي النُّهوضِ، ومِنْ أجْلِ اللُّغَةِ الَّتي تَعيشُ فِي كَنَفِ الحَيَاةِ ومُسْتَجَدَّاتِها وبِيئَتِهَا المُتغَايِرَةِ دُونَ الانْفِصالِ عَنْ تَاريخِها العَبِقِ، واللُّغَةُ العَرَبيَّةُ لُغَةُ البَيانِ والقُرآنِ العَظِيمِ: "ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي والقُرْآنَ العَظِيمَ"، ومِنْ ثَمَّ الإعْجَازِ الَّذي تَتَمَخَّضُ عَنْهُ كُنُوزُ اللُّغَةِ.

وكَمَا قَالَ عَميدُ الأدَبِ العَرَبِي "طَهَ حُسَيْن" الَّذي يَحْتَفِلُ العَالَمُ العَرَبِي بِظِلالِ اليُوبِيلِ الذَّهَبِي لِرَحِيلِه: "لُغَتُنا العَرَبيَّةُ يُسرٌ لا عُسْرٌ، ونَحْنُ نَملِكُها كَمَا كَانَ القُدَمَاءُ يَمْلِكُونَها، وَلَنَا أَنْ نُضيفَ إلَيْهَا مَا نَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي العَصْرِ الحَديثِ"، ذَلِكَ أنَّ البَيَانَ والبَلاغَةَ والانْتِقَائِيَّةَ الَّتي تَتَمَيَّزُ بِهَا لُغَة الضَّادِ، كَمَلمَحٍ مِنْ مَلامِحِ إعْجَازِها، يَلْعَبَانِ دَوْرًا بَالِغَ التَّأثِيرِ فِي تِلْكَ الحَالَةِ المُمْتَدَّةِ بَيْنَ الإبْدَاعِ والمَشَارِبِ الَّتي تَنْتَظِرُه، وقَدْ كُتِبَ مِنْ أجْلِهَا لِعقْدِ جُسورِ شَرَاكَةٍ إبْدَاعِيَّةٍ بَيْنَ كُلٍّ مِنَ المُبدِعِ والمُتَلَقِّي، واللُّغَةِ كَوِعَاءٍ قَادرٍ عَلَى احْتِواءِ المَعَانِي والمُفْرَدَاتِ والمُترادِفَاتِ الَّتي تَصْنَعُ عِلاقَةً ما يُكْتَبُ بِمَا يَتِمُّ تَجْسيدُهُ والتَّعْبيرُ عَنْهُ مِنْ خِلالِ تَلاوِينِهِ واتِّجَاهَاتِهِ، مَعَ فَكِّ الاشْتِبَاكِ بَيْنَ المُتَشَابِهاتِ مِن الألْفاظِ، ومَا إلَى ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الإبْحَارِ فِي بِحَارِ اللُّغَةِ والإيغَالِ فيهَا حَتَّى لتَصِلَ عَلاقَتُها الصُّوفيَّةُ المُتوحِّدَةُ بَيْنَ المَبْنَى والمَعْنَى، ذَلِكَ مَا يُسْهِمُ فِي تَجَلِّي حَالَتَي الإبْدَاعِ/ التَّوصِيلِ، والتَّلَقِّي/ الإيصَالِ، ومَا بَيْنَهُمَا مِنْ انْسِجَامٍ وتَفَاهُمٍ يُزيدُ مِنْ مَعَاييرِ الإبْدَاعِ وتَأثِيرَاتِه.

سَيَظلُّ المُبدِعُ مُبدعًا، لَهُ مُعْجَمُه الخَاصُّ مِن خلال إبـدَاعـه وحسِّه بالالتِصَاقِ والالـتِـحـامِ والتَّـوحُّـدِ مَعَ كَلمَاتِه الدَّالَّةِ والمُعبِّرة

الكِسائيُّ بينَ «أَعْيَيْتُ» و«عَيِيتُ»



جاءَ الكِسائيُّ إلى قومٍ وقَدْ أَعْيا، فَقالَ: قَدْ عَييتُ، فَقالوا لَه: تُجالِسُنا وأنتَ تَلْحَن؟ قالَ: وكيفَ لَحَنْتُ؟ قالوا: إنْ كُنتَ أردْتَ من انقِطاعِ الحيلة فَقُلْ: عَييتُ، وإنْ أردْتَ مِنَ التَّعَبِ فَقُلْ: أَعْيَيْتُ، فَأَنِفَ مِنْ هذهِ الكَلِمة، وقامَ مِنْ فَوْرِه، وسألَ عَمَّن يُعَلِّمُ النَّحوَ، فأُرْشِدَ إلى مُعاذ الهرّاء، فَلزَمَهُ حتّى أنْفَدَ ما عِنْدَه ، ثُمَّ خرجَ إلى البَصرَةِ فَلَقِيَ الخَليل، وجَلسَ في حَلَقَتِه، فَقالَ لهُ رَجُلٌ من الأَعرابِ: تركْتَ أسد الكوفَةِ وتَميمًا وعِندَهُم الفَصاحَة، وجِئْتَ إلى البَصرَة! فَقال للخليلِ: مِنْ أَيْنَ أخذْتَ عِلْمَكَ هذا؟ فَقالَ: مِنْ بَوادي الحِجازِ ونَجْد وتهامَة، فَخَرَجَ ورَجَع، وقَدْ أَنْفَدَ خمْسَ عشْرةَ قنّينة حِبْر في الكِتابَةِ عن العَربِ سِوى ما حَفِظ.

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ في وَسائِلِ الاتِّصالِ الـحَديثَةِ

لاشَكَّ في أنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ هِيَ لُغَةُ الماضي والحاضرِ والمُسْتَقْبَلِ، فَهِيَ تَعْكِسُ الرَّغْبَةَ في اكْتِشافِ العَراقَةِ وفي الاسْتِحْواذِ على أداةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ أَدواتِ المَعْرِفَةِ؛ لأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لُغَةُ التّاريخِ والمَعارِفِ.

ويَقودُنا هذا الأَمْرُ إلى الدَّعْوَةِ إلى مُتابَعَةِ العَمَلِ عَلى حِمايَتِها وتَمْكينِها في وَسائِلِ الإعْلامِ المَكْتوبَةِ والمَرْئِيَّةِ والمَسْموعَةِ. ولايَخْفى عَلى أَحَدٍ أَثَرُ وَسائِلِ الإعْلامِ المَكْتوبَةِ والمَرْئِيَّةِ والمَسْموعَةِ في اللُّغَةِ؛ لأَنَّها تُساعِدُ عَلى تَثْبيتِ نِظامٍ لُغَوِيٍّ سَليمٍ، إنْ كانَ القائِمونَ عَلَيْها حَريصينَ عَلى قُوَّةِ لُغَتِهِمْ وأَصالَتِها.



أ.د. محمد مرشحة
أستاذ في جامعة حلب

إنَّ مُداخَلَتي هذِهِ تُحاوِلُ الوُلوجَ إلى مُشْكِلَةٍ تُواجِهُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ والعَرَبَ؛ ذلكَ أَنَّ وَسائِلَ الإعْلامِ تَفْرِضُ عَلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ كَمًّا هائِلًا مِنَ الـمُفْرَداتِ العامِّيَّةِ والأَجْنَبِيَّةِ في آنٍ، في الوَقْتِ الذي تَتَعَرَّضُ فيهِ أُمَّتُنا العَرَبِيَّةُ - في هذهِ الأَيّامِ- لِمَخاطِرَ حَقيقِيَّةٍ تُهَدِّدُ وُجودَها. إنَّها قَضِيَّةٌ تَفْرِضُ نَفْسَها بِقُوَّةٍ عَلى السّاحَةِ الثَّقافِيَّةِ الـمُعاصِرَةِ. ويُخَيَّلُ إلَيْنا أَنَّ هذِهِ الإشْكالِيَّةَ تَمَسُّ الوَعْيَ العَرَبِيَّ الّذي فُرِضَ عَلَيهِ أَنْ يَسْتَهْلِكَ ثَقافاتِ الآخَرِ، ويَسْتَجيبَ لِلْحَرَكَةِ الـمُسْتَمِرَّةِ الّتي تَحْدُثُ بَعيدًا عَنِ الـحُدودِ الـجُغْرافِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، وأَنْ يَعْمَلَ عَلى اسْتيرادِ ما هُوَ جَديدٌ وأَصيلٌ فِكْرِيًّا وثَقافِيًّا، لِيَنْهَضَ ويُواكِبَ العالَمَ الـمُتَحَضِّرَ، لِذلكَ لايَجوزُ أَنْ نَتَجاهَلَ الأَخْطارَ الـحَقيقِيَّةَ الّتي تُواجِهُ لُغَتَنا النّاتِجَةَ مِنَ التَّأْثيرِ السَّلْبِيِّ لِوَسائِلِ الاتِّصالِ الـحَديثَةِ. وتَأْتي في طَليعَتِها وَسائِلُ الإعْلامِ ولاسِيَّما الإذاعَةُ والتِّلْفازُ ثُمَّ الشَّبَكَةُ العَنْكَبوتِيَّةُ: (الفِيس بوك والواتِسْ آب) ... و غَيْرُ ذلكَ.

وأَسْتَطيعُ أَنْ أُحْصِيَ عَـدَدًا مِنَ الـمَخاطِرِ الّتي تُواجِهُ لُغَتَنا:

مِنْها انْتِشارُ الأَخْطاءِ النَّحْوِيَّةِ في العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ الـمُسْتَخْدَمَةِ، وانْتِشارُ الكِتابَةِ بِالعامِّيَّةِ في الـمَقالاتِ والإعْلانـاتِ، وفي البَرامِجِ التِّلْفازِيَّةِ والإذاعِيَّةِ. والـحَقُّ أَنَّ عامَّةَ النّاسِ هُمْ أَكْثَرُ عُرْضَةً لِتَلَقّي الأَخْطاءِ في العَرَبِيَّةِ النّاتِجَةِ عَنِ الاسْتِعْمالِ الـمُسْرِفِ لِلْعامِّيَّةِ ولِلْكَلِماتِ الأَعْجَمِيَّةِ؛ إذْ تَتَعَدَّدُ الأَخْطاءُ الإمْلائِيَّةُ في الإعْلاناتِ، كَما تَغْزو الـمُفْرَداتُ الأَجْنَبِيَّةُ البَرامِجَ التِّلْفازِيَّةَ والإذاعِيَّةَ، عَبْرَ بَثِّ البَرامِجِ بِاللُّغاتِ الأَجْنَبِيَّةِ الفَرَنْسِيَّةِ والإنْكليزِيَّةِ. ولا شَكَّ في أَنَّ الإفْراطَ في مُتابَعَةِ الـمَحَطّاتِ الفَضائِيَّةِ الّتي لاتَهْتَمُّ بِسَلامَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ يُسْهِمُ في الزِّيادَةِ الـمَلْحوظَةِ لِلْأَخْطاءِ الإمْلائِيَّةِ الّتي تَنْتَشِرُ عادَةً في الإعْلاناتِ واللَّوْحاتِ الإرْشادِيَّةِ.

والـمَقْصودُ بِوَسائِلِ الإعْلامِ الّتي سَنَتَحَدَّثُ عَنْها: الإذاعَــةُ والتِّلْفازُ والصَّحافَةُ.

أَوَّلًا: الإذاعَةُ والتِّلْفازُ:

نَتَناوَلُ التِّلْفازَ بِوَصْفِهِ فاعِلًا لُغَوِيًّا مُهِمًّا؛ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ أَثَرًا خَطيرًا في تَوْجيهِ الوَعْيِ الثَّقافِيِّ والاجْتِماعِيِّ والأَدَبِيِّ، لِتَرْكيزِهِ عَلى عَناصِرَ لُغَوِيَّةٍ وثَقافِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ. فَقَدْ أَدْرَكَتِ الأُمَمُ الأُخْرى أَنَّ لِلْإذاعَةِ والتِّلْفازِ أَهَمِّيَّتَهُما فَعَمِلَتْ عَلى تَوْجيهِهِما وِجْهَةً تَخْدِمُ لُغاتِها القَوْمِيَّةَ. ومَع أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ تَحْتَلُّ الـمَرْتَبَةَ الثّالِثَةَ بَيْنَ اللُّغاتِ الـمُسْتَخْدَمَةِ في الإذاعــاتِ الأَجْنَبِيَّةِ بَعْدَ الإنْكليزِيَّةِ والفَرَنْسِيَّةِ، ويَسْتَخْدِمُ أَكْثَرُ مِنْ سَبْعينَ مَحَطَّةً إذاعِيَّةً أَجْنَبِيَّةً اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، فَإنَّ اللُّغَتَيْنِ الإنْكليزِيَّةَ والفَرَنْسِيَّةَ تُنافِسانِها مُنافَسَةً شَرِسَةً؛ ولِلنُّهوضِ بِرِسالَةِ الإعْلامِ اللُّغَوِيَّةِ لابُدَّ مِنْ تَكْوينِ الإعْلامِيّينَ تَكْوينًا يَسْتَنِدُ إلى تَنْمِيَةِ قُدُراتِهِمْ ودَفْعِهِمْ إلى التَّفْكيرِ الـمُتَّزِنِ، مِنْ أَجْلِ الحِفاظِ عَلى لُغَتِهِمْ قَوِيَّةً وحَيَّةً.

إنَّ مِنَ البِلادِ العَرَبِيَّةِ مَنِ اسْتَطاعَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ التِّلْفازَ اسْتِعْمالًا مُمَيَّزًا بِالتَّرْكيزِ عَلى بَرامِجَ تِلْفازِيَّةٍ تَهْتَمُّ بِخِطابِ الأَطْفالِ،

لِأَنَّ لَدى الطِّفْلِ قُدْرَةً عَلى تَعَلُّمِ اللُّغاتِ بِسُرْعَةٍ. ولِذلِكَ أَسْهَمَ بَرْنامَجُ (افْتَحْ يا سِمْسِمُ) إِسْهامًا فَعّالاً في جَذْبِ الأَطْفالِ إِلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ، بِاسْتِعْمالِ الأَلْوانِ والإِضاءَةِ والشَّخْصِيّاتِ الـمُحَبَّبَةِ.

والحَقُّ أَنَّ الطِّفْلَ هُوَ أَوَّلُ الـمُتَأَثِّرينَ بِما يَسْمَعُ ويُشاهِدُ؛ فَكانَ عَلى التِّلْفازِ حَمْلُ عِبْءِ تَقْويمِ لِسانِ الطِّفْلِ العَرَبِيِّ بِالحَضِّ عَلى اسْتِخْدامِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ في بَرامِجِ الأَطْفالِ كُلِّها- ومَعَ الأَسَفِ، نَرى تَفاوُتًا في اسْتِعْمالِ اللُّغَةِ الفَصيحَةِ في الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ. عَلى أَنَّ (مُؤَسَّسَةَ الإِنْتاجِ البَرامِجِيِّ الـمُشْتَرَكِ لِدُوَلِ الخليجِ العربي) قَدِ اهْتَمَّتْ في أَواخِرِ السَّبْعينِيّاتِ وأَوائِلِ الثَّمانينِيّاتِ بِإِنْتاجِ بَرامِجِ الأَطْفالِ الّتي تَحَوَّلَتْ بَعْدَئِذٍ إِلى (مُؤَسَّسَةِ الإِنْتاجِ البَرامِجِيِّ الـمُشْتَرَكِ لِدُوَلِ مَجْلِسِ التَّعاوُنِ).

كَما صَدَرَ قَرارٌ يَقْضي بِمَنْعِ إِنْتاجِ بَرامِجَ بِاللَّهَجاتِ العامِّيَّةِ (1)، واعْتِمادِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ الـمُبَسَّطَةِ في بَرامِجِ الأَطْفالِ. ولِذلِكَ أُنْتِجَ بَرْنامَجُ (افْتَحْ يا سِمْسِمُ)، فَلَقِيَ قَبولاً حَسَنًا لَدى الأَطْفالِ، حَتّى غَدَتْ شَخْصِيّاتُهُ مَأْلوفَةً ومُحَبَّبَةً لِلْأَطْفالِ، وأَصْبَحَ كَثيرٌ مِنْ مُشاهِديهِ يُقَلِّدونَ هذِهِ الشَّخْصِيّاتِ ويَسْتَعْمِلونَ مُفْرَداتِها وأُسْلوبَ حِوارِها في حَياتِهِمُ اليَوْمِيَّةِ.

وحَلَّتِ العامِّيّاتُ مَحَلَّ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ تارَةً، وغَزَتِ اللُّغَتانِ الإِنْكِليزِيَّةُ والفَرَنْسِيَّةُ تِلْفِزْيوناتِ العَرَبِ تارَةً أُخْرى، وذَلِكَ بِحَسَبِ الدَّوْلَةِ العَرَبِيَّةِ. ولا يَخْتَلِفُ اثْنانِ في أَنَّ لِلْإِذاعَةِ والتِّلْفازِ أَثَرَهُما الخَطيرَ في اللُّغَةِ، لِقُدْرَتِهِما عَلى التَّأْثيرِ الـمُتَواصِلِ في الـمُتَلَقّي العَرَبِيِّ. ومَنْ يُراقِبْ مَحَطّاتِ التِّلْفَزَةِ العَرَبِيَّةَ في بَعْضِ بُلْدانِ الـمَغْرِبِ العَرَبِيِّ، يُفاجِئْهُ الـحُضورُ الدّائِمُ لِلْفَرَنْسِيَّةِ عَلى حِسابِ لُغَتِنا؛ صَحيحٌ أَنَّ هُناكَ بَرامِجَ وَطَنِيَّةً تَلْجَأُ إِلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ، إِلاّ أَنَّ مُعْظَمَ مُقَدِّمي البَرامِجِ يَسْتَعْمِلونَ مُفْرَداتٍ فَرَنْسِيَّةً كَثيرَةً في مُناقَشاتِهِمْ وحِواراتِهِمْ.



ومَنْ يُتابِعِ التَّلْفَزَةَ العَرَبِيَّةَ في الـمَشْرِقِ العَرَبِيِّ، يُفاجِئْهُ الـحُضورُ الدّائِمُ لِلُّغَةِ الإِنْكليزِيَّةِ، حُضورًا واضِحًا في الإِعْلاناتِ التِّجارِيَّةِ، أَحْيانًا. ولَعَلَّ الـمُفاجِئَ حَقًّا هُوَ تَراجُعُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ في التِّلْفازِ الـمِصْرِيِّ واللُّبْنانِيِّ لِصالِحِ اللُّغَتَيْنِ العامِّيَّةِ الـمِصْرِيَّةِ واللُّبْنانِيَّةِ. إِلاّ أَنَّ النُّقْطَةَ الـمُضيئَةَ في التِّلْفازِ الـمِصْرِيِّ هِيَ القَناةُ الثَّقافِيَّةُ الّتي مازالَتْ تَنْتَصِرُ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ، مِنْ خِلالِ إِضاءَتِها لِلْأُدَباءِ الـمِصْرِيّينَ العَمالِقَةِ وتَقْديمِ لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ.

يَجِبُ أَنْ نَدُقَّ ناقوسَ الـخَطَرِ تُجاهَ اسْتِعْمالِ اللُّغاتِ الأُخْرى في وَسائِلِ الإِعْلامِ، لِأَنَّ الـمُتَلَقِّيَ العَرَبِيَّ سَيَبْتَعِدُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا عَنْ لُغَتِهِ الأُمِّ وسَيَنْجَذِبُ إِلى لُغاتٍ أُخَرَ.

ثانِيًا- الصِّحافَةُ:

لايُنْكِرُ أَحَدٌ أَنَّ اللُّغَةَ تَتَّكِئُ عَلى لُغَةِ الصِّحافَةِ بِوَصْفِها عاكِسَةً لِهُمومِ النّاسِ بِما تَبُثُّهُ في ثَناياها مِنْ مَقالاتٍ تُعالِجُ مُشْكِلاتِهِمْ وتُحاوِلُ حَلَّها. ولِذَلِكَ فَهِيَ مُوَجَّهَةٌ إِلى النّاسِ كافَّةً بِلُغَةٍ بَسيطَةٍ ولَكِنَّها دَقيقَةٌ بِأُسْلوبٍ لافِتٍ يَسْتَحْوِذُ عَلى الـمُتْعَةِ والتَّشْويقِ. عَلى أَنَّ هُناكَ مَجَلّاتٍ وصُحُفًا أَدَبِيَّةً مُتَخَصِّصَةً تَحْتاجُ إِلى كُتّابٍ يَمْتَلِكونَ أَساليبَ لُغَوِيَّةً قَوِيَّةً. وأَيًّا كانَ مُسْتَوى الـمُتَلَقّي، فَإِنَّ الـمَرْجُوَّ مِنَ الصَّحَفِيِّ أَلّا يَعْتَدِيَ عَلى لُغَتِهِ بِانْتِهاكاتٍ جَسيمَةٍ، وأَلّا يَتَساهَلَ في قَواعِدِها.

ولَعَلَّ مايَلْفِتُ انْتِباهَنا أَنَّ العَرَبَ مُتَفاوِتونَ في اسْتِعْمالِهِمْ لِلُغَتِهِمْ؛ إِذِ اسْتَنْتَجَ بَحْثٌ أُعِدَّ في الـمَغْرِبِ أَنَّ العَناوينَ الصَّحَفِيَّةَ الفَرَنْكوفونِيَّةَ اسْتَحْوَذَتْ عَلى عَوائِدِ الدِّعايَةِ في سوقِ الصِّحافَةِ الـمَكْتوبَةِ بِالـمَغْرِبِ؛ فَالـمَراتِبُ العَشْرُ الأُولى مِنْ قائِمَةِ الإِعْلاناتِ لِسَنَةِ أَلْفَيْنِ وتِسْعٍ ضَمَّتْ ثَمانِيَةَ عَناوينَ فَرَنْكوفونِيَّةً إِضافَةً إِلى عُنْوانَيْنِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فَقَطْ. وأَشارَتِ الأَرْقامُ التي أَوْرَدَتْها إِحْدى الـمُؤَسَّساتِ الـمُتَخَصِّصَةِ في تَتَبُّعِ سوقِ الإِعْلانِ في الـمَغْرِبِ أَنّ الإِعْلامَ الـمَكْتوبَ

في الـمَغْرِبِ يَتَمَيَّزُ بِسَيْطَرَةِ العُنْواناتِ الصَّحَفِيَّةِ العَرَبِيَّةِ على مِساحَةِ القُرّاءِ، وفي الـمُـقابِلِ تُهَيْمِنُ العُنْواناتُ الفَرَنْسِيَّةُ على عائِداتِ الإِعْلانِ. كَما أَنَّ الـمُعْلِنينَ الـمَغارِبَةَ يُفَضِّلونَ الـجَرائِدَ الفَرَنْكوفونِيَّةَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ حَجْمَ انْتِشارِها يَظَلُّ ضَعيفًا مُقارَنَةً بِالعُنْواناتِ العَرَبِيَّةِ. مِنْ جِهَةٍ أُخْرى أَكَّدَ تَقْريرُ إِحْدى الـمُؤَسَّساتِ الـمُتَخَصِّصَةِ في تَتَبُّعِ سوقِ الإِعْلانِ أَنَّ قِراءَةَ الصِّحافَةِ الـمَكْتوبَةِ في الـمَغْرِبِ تُعَدُّ ظاهِرَةً ذُكورِيَّةً، وأَنَّ الـمُسْتَوى الاجْتِماعِيَّ الثَّقافِيَّ يُؤَثِّرُ في نَوْعِ الـجَريدَةِ التي يَقْتَنيها القارِئُ واللُّغَةِ الـمُفَضَّلَةِ لَدَيْهِ (2).

كَما لوحِظَ تَأْثيرٌ فَرَنْكفونِيٌّ في الجَزائِرِ، بِالتَّشْجيعِ على دَعْوَةِ نَوافِذِ البَيْعِ إِلى عَرْضِ الجَرائِدِ الفَرَنْسِيَّةِ، وخَرَجَتْ بَعْضُ الأَصْواتِ التي وَسَمَتِ العَرَبِيَّةَ بِأَنَّها «لُغَةٌ مَيِّتَةٌ» (3).

بَيْدَ أَنَّ الجامِعاتِ الجَزائِرِيَّةَ مازالَتْ تَعْمَلُ عَلى تَمْكينِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ في البِلادِ، عَبْرَ لَفْتِ الانْتِباهِ إِلى الـمَخاطِرِ التي تُواجِهُ لُغَةَ الضّادِ فيها؛ فَقَدْ أَعَدَّتْ طالِبَتانِ جَزائِرِيَّتانِ [سِهامُ وَفَريدَةُ] في جامِعَةِ عَبْدِ الرَّحْمنِ ميرة رِسالَةَ ماجِسْتير مَوْسومَةً بِـ "الأَخْطاءُ اللُّغَوِيَّةُ في الصِّحافَةِ الـمَكْتوبَةِ وأَثَرُها على [فـي] القارِئِ الجَزائِرِيِّ" نَموذَجِ الشُّروقِ"؛ إِذْ طَبَّقَتا بَحْثَهُما على صَحيفَةِ الشُّروقِ؛ وعلى الرَّغْمِ مِنْ تَأْكيدِهِما أَنَّ هذِهِ الصَّحيفَةَ هِيَ "مِنْ بَيْنِ الصُّحُفِ الجَزائِرِيَّةِ الصّادِرَةِ بِالعَرَبِيَّةِ، ولِلْفِئاتِ كُلِّها"، فَقَدِ اكْتَشَفَتا أَخْطاءً إِمْلائِيَّةً عِدَّةً؛ مِنْها عَدَمُ مُراعاةِ هَمْزَةِ الوَصْلِ: اسْتفادوا ، واسْتِقْطاب، وامْتِحانات (4).



ونُشيدُ بِأَثَرِ الصِّحافَةِ الإِيجابِيِّ في إِغْناءِ لُغَتِنا الشَّريفَةِ؛ ونَذْكُرُ بَعْضَ الأَلْفاظِ التي اسْتَحْدَثَتْها الصِّحافَةُ، بِحَسَبِ الـمُؤَرِّخِ «عَبْدِ اللهِ كنون» الذي جَمَعَ بَعْضَها في بَحْثٍ نَشَرَتْهُ مَجَلَّةُ مَجْمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ عامَ أَلْفٍ وتِسْعِمِئَةٍ وثَلاثَةٍ وثَمانينَ: «بَعْثَةٌ أَثَرِيَّةٌ»، «أَدَواتٌ مَكْتَبِيَّةٌ»، «تَأْشيرَةٌ»، «جَوازُ سَفَرٍ»، «مَحْكَمَةُ الاسْتِئْنافِ»، «حَرْبٌ أَهْلِيَّةٌ»، «آلَةُ تَصْويرٍ»، «آلَةٌ كاتِبَةٌ»، «مِلاحَةٌ بَحْرِيَّةٌ»، «ابْتِدائِيَّةٌ»، «مُبادَرَةٌ»، «بَدَلُ أَتْعابٍ»، «بَرْقِيَّةٌ»، «بَصْمَةُ الأَصابِعِ»، «بُطولَةٌ رِياضِيَّةٌ»، «بَلَدِيَّةٌ»، «مُتْحَفٌ»، «نُخْبَةٌ»، «جَـدْوَلُ أَعْمالٍ»، «تَيّارٌ كَهْرُبائِيٌّ»، «ثَلّاجَةٌ»... ومِنَ التَّراكيبِ: «يُرى بِالعَيْنِ الـمُجَرَّدَةِ»، «إِجْراءاتٌ إِدارِيَّةٌ»، «تَجْنيدٌ إِجْبارِيٌّ»، «الجِنْسُ اللَّطيفُ»، «أَرْصادٌ جَوِّيَّةٌ»، «حِبْرٌ على وَرَقٍ»، «حادِثُ سَيْرٍ»، «رَئيسُ تَحْريرٍ»، «حَوالَةٌ بَريدِيَّةٌ»، «شُذوذٌ جِنْسِيٌّ»، «مَوادُّ غِذائِيَّةٌ»، «قانونُ الغابِ» (5).

ويَرى الدكتورُ مُحَمَّدُ أَنَس سَرْمينِيّ في كِتابِهِ: «اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الـمُعاصِرَةُ في الإِعْلامِ العَرَبِيِّ الـمُعاصِرِ» أَنَّ لِلْإِعْلامِ العَرَبِيِّ الـمُلْتَزِمِ بِالعَرَبِيَّةِ أَثَرًا إِيجابِيًّا في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وأَنَّ هذا الأَثَرَ الإِيجابِيَّ يَفْضُلُ الآثـارَ السَّلْبِيَّةَ النّاجِمَةَ عَنْهُ، وأَنَّ العَرَبِيَّةَ الفَصيحَةَ هِيَ الـمُناسِبَةُ لِلْإِعْلامِ العَرَبِيِّ، لِأَنَّها تُحَقِّقُ غاياتِ الرِّسالَةِ الإِعْلامِيَّةِ كُلَّها، أَكْثَرَ مِمّا تُحَقِّقُهُ اللَّهَجاتُ واللُّكْناتُ الـمَحَلِّيَّةُ؛ فَقَدْ دَعا الدكتورُ مُحَمَّدُ أَنَس سَرْمينِيّ إِلى ضَرورَةِ مُحاوَلَةِ تَطْويرِ النُّهوضِ بِاللُّغَةِ الإِعْلامِيَّةِ الـمُعاصِرَةِ، وسُبُلِ نَشْرِها، وتَمْكينِ الإِعْلامِ العَرَبِيِّ الـمُعاصِرِ (6).

وفَرَضَتْ وَسائِلُ الإِعْلامِ لُغَةً مَكْتوبَةً جَديدَةً غَصَّتْ بِالتَّعابيرِ الـمُسْتَحْدَثَةِ، بِالإِضافَةِ إِلى ظاهِرَةِ ضَعْفِ الأَداءِ اللُّغَوِيِّ وشُيوعِ الأَخْطاءِ اللُّغَوِيَّةِ والنَّحْوِيَّةِ والإِمْلائِيَّةِ واللُّجوءِ إِلى العامِّيَّةِ وعَدَمِ سَلامَةِ النُّطْقِ وازْدِواجِيَّةِ اللُّغَةِ في وَسائِلِ الإِعْلامِ.

ثالثًا- خاتِمَةٌ:

ومَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُنا أَنْ نُنْكِرَ اليَوْمَ أَنَّ التَّواصُلَ عَنْ طَريقِ وَسائِلِ الاتِّصالِ الحَديثَةِ ضَرورَةٌ أَمْلَتْها ظُروفٌ مُخْتَلِفَةٌ (اقْتِصادِيَّةٌ واجْتِماعِيَّةٌ، وسِياسِيَّةٌ، وثَقافِيَّةٌ...) في عَصْرِ العَوْلَمَةِ.

ويَطيبُ لي هُنا أَنْ أَطْرَحَ مَجْموعَةً مِنَ الآراءِ الهادِفَةِ إِلى حِمايَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وتَطْويرِها، مِنْها:

1 -الاهْتِمامُ بِلُغَةِ الطِّفْلِ وتَشْجيعُهُ على قِراءَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ السَّهْلَةِ والواضِحَةِ.

2 -تَجْهيزُ قَنَواتٍ عَرَبِيَّةٍ مُوَجَّهَةٍ إِلى الأَجانِبِ، لِبَثِّ بَرامِجَ لِتَعْليمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وبَرامِجَ ثَقافِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

-4 الاهْتِمامُ بِتَبْسيطِ الكُتُبِ الّتي تُدَرِّسُ

اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، والتَّشْجيعُ عَلى النَّحْوِ الوَظيفِيِّ.

5 - تَشْجيعُ الـمُتَخَصِّصينَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ والتِّقْنِيّاتِ عَلى إِبْداعِ طَريقَةٍ سَهْلَةٍ لِلتّواصُلِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ في أَساليبِ التّواصُلِ الحَديثَةِ، بَعيدَةً مِنَ التَّعْقيدِ.

6 - رَبْطُ الإِعْلامِ بِالجامِعَةِ، لِيَكونَ هُناكَ رَقابَةٌ لُغَوِيَّةٌ صارِمَةٌ، فَتُسْهِمَ الجامِعَةُ في تَطْويرِ الخِطابِ الإِعْلامِيِّ الـمُثْمِرِ.

7 - التَّشْجيعُ عَلى اسْتِعْمالِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ السَّهْلَةِ والبَعيدَةِ مِنَ العامِّيَّةِ في التَّعْليمِ الجامِعِيِّ، واكْتِسابِ لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ سَليمَةٍ وفَصيحَةٍ، يُتَعامَلُ بِها في المَـواقِفِ الـمُخْتَلِفَةِ الّتي قَدْ يُوضَعُ فيها، ويُقْصَدُ بِاللُّغَةِ السَّليمَةِ الفَصيحَةُ هُنا، أَي تِلْكَ اللُّغَةُ الّتي يُراعى فيهَا قَواعِدُ التَّرْكيبِ اللُّغَوِيِّ الصَّحيحِ؛

8 - تَشْجيعُ الأُمَمِ الأُخْرى عَلى تَعْليمِ العَرَبِيَّةِ في بِلادِ العالَمِ، وإِقامَةِ النَّدَواتِ الّتي تُسْهِمُ في تَعْليمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ. ويُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّنا حينَ نُشَجِّعُ الأُمَمَ الأُخْرى عَلى تَعَلُّمِها نَنْقُلُ إِلَيْها قَضايانا العادِلَةَ وفِكْرَنا الإِنْسانِيَّ وحَضارَتَنا الثّابِتَةَ، وكُلَّ جَميلٍ ونَقِيٍّ في أَدَبِنا؛ فَالأُمَمُ الـحَيَّةُ تَبْدَأُ بِلُغاتِها.



9 - مُراقَبَةُ الشّابِكَةِ لُغَوِيًّا، والتَّرْكيزُ عَلى تَعْريبِ الـمُفْرَداتِ والـمُصْطَلَحاتِ الغَرْبِيَّةِ الـمُتَّصِلَةِ بِالشّابِكَةِ.

10 - تَطْويرُ مُعْجَماتِنا وتَشْكيلُ فِرَقِ عَمَلٍ تَهْدِفُ إِلى تَأْليفِ الـمَوْسوعاتِ وإِعْدادِ الـمَخابِرِ اللُّغَوِيَّةِ الحَديثَةِ، وانْتِقاءِ أُطُرٍ طُلّابِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ في مَجالِ الخَطابَةِ. لِذَلِكَ لا يَنْبَغي أَنْ نَغْفِرَ لِمَنْ يَسْتَخِفُّ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصيحَةِ، في الوَقْتِ الّذي تَسْتَمِدُّ فيهِ قُوَّةُ الأُمَمِ الـحَيَّةِ غِذاءَها مِنْ لُغَتِها. ومِمّا لاشَكَّ فيهِ أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ قادِرَةٌ عَلى أَنْ تَجْذِبَ الأُمَمَ الأُخْرى إِلَيْها بِجَمالِ مُفْرَداتِها وجُمَلِها وأَدَبِها.

وخُلاصَةُ القَوْلِ أَنَّ اللُّغَةَ القَوِيَّةَ هِيَ تِلْكَ التي تَميلُ إِلى الآخَرِ فَتُفيدُ مِنْهُ وتُؤَثِّرُ فيهِ في آنٍ. لِذَلِكَ نَفْهَمُ مِنْ هذا كُلِّهِ أَنَّ الأُمَّةَ الـحَيَّةَ هِيَ الأُمَّةُ الـمُتَفاعِلَةُ مَعَ غَيْرِها مِنَ الأُمَمِ، ولَيْسَتِ الـمُنْغَلِقَةَ عَلى نَفْسِها والـحَذِرَةَ دائِمًا مِنَ الآخَرِ. ولا شَكَّ في أَنَّ لِوَسائِلِ الإِعْلامِ الـمَسْؤولِيَّةَ الـمُضاعَفَةَ في تَطْويرِ اللُّغَةِ وتَمْكينِها وتَنْقِيَتِها مِنَ الشَّوائِبِ.

مَصادِرُ البَحْثِ ومَراجِعُهُ

أَوَّلًا: الـمَصادِرُ والـمَراجِعُ العَرَبِيَّةُ:

(1) جلواح سهام ودوداش فريدة. الأخطاء اللغوية في الصحافة المكتوبة وأثرها على [في] القارئ الجزائري " نموذج الشروق"، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، للباحثين الجزائريين: 2015-2016، ص39.

(2) حسن علي محمد. لغة الإعلام العربي المعاصر. دار الفجر للنشر والتوزيع، 2016 ، ص:61 .

(3) سرميني، محمد أنس. اللغة العربية المعاصرة في الإعلام العربي المعاصر. دار المقتبس، بيروت 2014، ص: 8-10.

ثانِيًا: الـمَواقِعُ الإِلِكْترونِيَّةُ:

(1)- عبد الباسط عياش. معارك الفصحى والعامية. كيف طورت الصحافة اللغة العربية؟ 09 مايو 2018 15:11؛https://mugtama.com/ ntellectual/item/71966-2018-05-09-12-12-47.html

(2) النزعة الفرنكوفونية العلمانية في الإعلام الجزائريّ المعاصر (http://iswy.co/e266sr).

(3) https://www.maghress.com/attajdid/64935(نشر في التجديد يوم 09 - 03 - 2011).

عَوَاطِفُنَا وأَحَاسِيسُنَا في المِيزَانِ



عبد اللطيف الغزواني
باحث في المعجمية وعلم الدلالة/المغرب

لكلِّ شيءٍ ميزانٌ في اللّغة؛ والكلام العربيّ، نظمًا ونثرًا، يَحتكمُ إلى مَناطاتٍ تَوْزينيّةٍ مُختلفةٍ تُشكّلُ سببًا لجماليته وحسنِ تقبّله؛ فللحُروفِ ميزانٌ صوتيٌّ يَدرأُ عنها التّكلُّفَ والاستثقالَ، وللألفاظِ ميزانٌ صرفيٌّ يصرفُ عنها التّعقيدَ، وللشّعرِ ميزانٌ عروضيٌّ تُوزنُ به الأبياتُ، وأساسُه نظامُ التّفعيلةِ الذي رَسَمَه الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ، كما أنّ للبلاغةِ ميزانًا دلاليًا يقومُ على التّفعيلِ المَجازيِّ للغةِ، ويستندُ إلى جملةٍ من المبادئِ التّخييليّةِ، أبْرَزُها: الاستعارةُ المفهوميّةُ أو التّصوُّريّةُ.

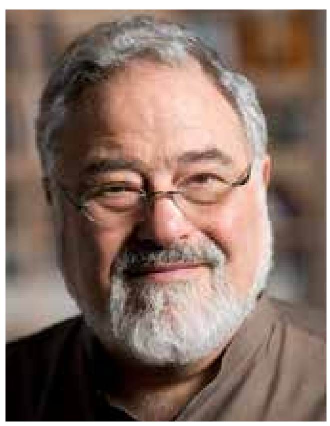
والاستعارةُ بمفهومها الجديدِ آليةٌ ذهنيّةٌ تَرتبطُ ارتباطًا وثيقًا بالذّهنِ، وتقومُ على فهْمِ مَجالٍ تَصوُّريٍّ مُعيّنٍ انطلاقًا من مجالٍ تصوُّريٍّ آخرَ تكونُ لدينا غالبًا مَعرفةٌ سَابِقَةٌ به، فيُسمّى الأوّلُ مجالاً هدفًا، ويُدعى الثّاني مَجالاً مصدرًا.

ومن هنا عُدّتْ تصوُّريّةً في المقام الأوّلِ قبل أن تكون لُغويّةً، خلافًا للمفهومِ التّقليديِّ الذي يجعلُها خاصيّةً لُغويّةً خالصةً، تنصَبُّ على الألفاظِ، وترتبطُ بالتّخييلِ والزُّخرفِ البلاغيِّ.

وقد أدّى التّطوُّرُ الحاصلُ في الدّراساتِ اللّسانيّةِ الحديثةِ عَنِ الاستعارةِ إلى إبرازِ وجودِها في جميعِ مجالاتِ حياتِنا اليوميّةِ، وأنّها مؤسّسةٌ لجانبٍ كبيرٍ من أنظمتِنا التّصوّريّةِ، تمامًا كما هو الحالُ في مجالِ العواطفِ والأحاسيسِ، حيث يُعَبَّرُ عمّا يختلجُ في النّفسِ من مشاعرَ عن طريقِ تَوْزينِها وإخْضاعِها لمبدإ الخِفّةِ والثِّقلِ.

1 - الاستعارةُ التّصوُّريّةُ ومبدأُ الخِفّةِ والثِّقلِ

لا تتحصّلُ المزيّةُ للكلامِ في اللّغةِ إلّا بعد أن تتوافرَ فيه ضروبٌ مِنَ الموازينِ البِنيويّةِ والدّلاليّةِ، والتي تجعلُه "يحسُنُ بسَلاسَتِه، وسُهولتِه، ونَصَاعتِه، وتَخيُّرِ لفظِه، وإصابةِ معناه، وجَــوْدَةِ مَطَالعِه، ولِينِ مَقَاطعِه، واستواءِ تَقَاسيمِه، وتعادُلِ أطرافِه...». هذه الموازينُ لا تقتصرُ على الحروفِ والألفاظِ فحسبُ، بل تعدُوها إلى التّعابيرِ الاستعاريّةِ، والتي تستمدُّ دلالاتِها مِنَ التّوافقِ الحاصلِ بين المحسوسِ والمُتصوَّرِ في الذّهنِ.



جورج لاكوف

ولقد أوْلَــى البلاغيّونَ مَبْدَأَ الاسْتخفافِ والاسْتثقالِ وبفاعليتِه الإيقاعيّةِ والدّلاليّةِ فِي أَثْناءِ الاستعمالِ المَجازيِّ للّغةِ عنايةً فائقةً ، ووَظّفوه سبيلاً لنقلِ المعاني وبــثِّ قِيمٍ جماليّةٍ على تعابيرِها اللُّغويّةِ . وتُشكّلُ الاستعارةُ التّصوُّريّةُ إحدَى الآلياتِ التَّخييليّةِ التي تتبنَّى هذا المبدأَ في توليدِ تعابيرَ اسْتعاريّةٍ، وبناءِ مفاهيمِنا وتصوُّراتِنا للأشياءِ والعالمِ، عبْرَ ملاحظةِ مجموعةٍ مِنَ التَّوافُقَاتِ والتَّرابُطاتِ النّسقيّةِ بين مجالِ العواطفِ والأحاسيسِ ومجالِ الأوزانِ. يقولُ لايكوف وجونسون: «إنَّ الاستعارةَ حاضرةٌ في كلِّ مجالاتِ حياتِنا اليوميّةِ، إنَّها ليست مُقتصرةً على اللّغةِ، بل توجدُ في تفكيرِنا وفي الأعمالِ التي نقومُ بها أيضًا. إنَّ النّسقَ التّصوُّريَّ العادِيَ الذي يسيّرُ تفكيرَنا وسلوكنَا له طبيعةٌ استعاريّةٌ بالأساسِ» .

لم تعُدِ الاستعارةُ إذًا زخرفًا بلاغيًّا قائمًا على المُشابهةِ بين معانِي الألفاظِ، أوِ استعمالاً للفْظِ في غيرِ معناه الذي وُضع له فحسبُ، بل أضحتْ تصوُّرًا لمجالٍ ذهنيٍّ معيّنٍ بواسطةِ مجالٍ ذهنيٍّ آخرَ، وفهْمًا لأشياءَ مُجرّدةٍ انطلاقًا من أشياءَ ومَجالاتٍ ملموسةٍ، وتكونُ فعّالةً متى ما استدْعَى مجالُ المصدرِ إلى الذّهنِ بِنيةً معرفيّةً بارزةً ومألوفةً، مثلما هو عليه الحالُ في مجالِ العواطفِ والأحاسيسِ.

وَفْقَ هذا التّصوّرِ، تُوظّفُ الاستعارةُ التّصوُّريّةُ ألفاظًا توحِي تارةً بالخفّةِ وتارةً أخرَى بالثّقلِ لتعبّرَ من خلالِها عن مجالِ العواطفِ والأحاسيسِ، ممّا يُتيحُ إنتاجَ عباراتٍ لُغويّةٍ ذاتِ قِيمٍ جماليّةٍ وبلاغيّةٍ لا تخلو منَ الطّرافةِ، وتتجاذبُ عناصرُها بين الذّهنِ واللّغةِ، ومنَ المعلوم، كما يقولُ الجاحظُ: أنَّ "الشّيءَ من غيرِ مَعدنِه أغربُ، وكلّما كان أغربَ كان أبعدَ في الوهمِ، وكلّما كان أبعدَ في الوهمِ كان أطرفَ، وكلّما كان أطرفَ كان أعجبَ، وكلّما كان أعجبَ كان أبدعَ«.

2 - الاستعارةُ التّصوّريّةُ ميزانٌ للعواطفِ والأحاسيسِ

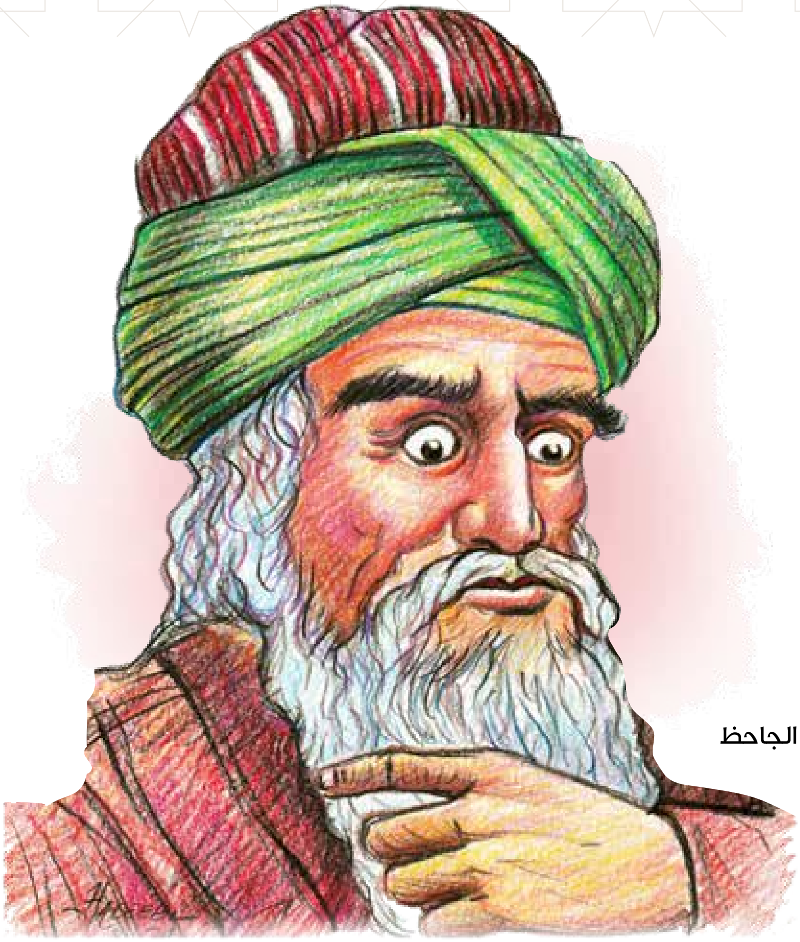
تُؤدّي الاستعارةُ التّصوُّريّةُ دورًا مركزيًّا في نقلِ العواطفِ والأحاسيسِ، وبَلْوَرَتِها في صورةِ تعابيرَ استعاريّةٍ تستمدُّ ألفاظَها من مجالٍ مَصدرٍ مُتعلّقٍ بالأوزانِ، انطلاقًا من ملاحظةِ أوجُهٍ للشّبهِ بين المَجالَين. ولا يتأتّى فهمُ هذه التّعابيرِ إلّا عبْرَ استحضارِ جميعِ المعلوماتِ والتّصوّراتِ الخاصّةِ بالمجالِ المَصْدرِ، من خِفّةٍ وثقلٍ، وكثرةٍ وقلّةٍ، ومراوحةٍ بين قيمتَيْنِ وَزْنِيَّتَين إحداهما عُليا والأخرى دُنيا، ثمّ إسْقاطِها على المجالِ الهدفِ.

وتَوزينُ العواطفِ والأحاسيسِ مظهرٌ لِما يختلجُ في الصّدرِ من تأثيراتٍ قلبيّةٍ وعصبيّةٍ ناتجةٍ عنِ استشعارِ المُستخفِّ والمُستثقلِ منَ المشاعرِ التي ينفعلُ لها الإنسانُ، وتطالُ قلبَه وقريحتَه، وكما أنَّ القلوبَ تستثقلُ الأحزانَ والأوجاعَ والكروبَ، فإنّها تستخفُّ أيضًا الفرحَ والسّعادةَ والغِبطةَ. وقد تمعّنَ العربُ قديمًا في مقاديرِ هذه الانفعالاتِ فقالوا تعبيرًا عنِ الهمومِ والكروبِ: ناءَ بِحِمْلٍ ثقيلٍ، وانْهارَ منَ التّعبِ، وتحمّلَ عبئًا ثقيلاً، وقالوا مقابلَ ذلك: تنفّسَ الصُّعداءَ، وخفيفُ الرّوحِ، ودمُه خفيفٌ، الخ.

وتوضّحُ هذه العباراتُ ومثلُها مدَى إسهامِ ألفاظِ مجالِ الأوزانِ في إمساسِ العواطفِ والأحاسيسِ، من حيث تنسجُ تصوُّراتٍ إدراكيّةً تجعلُ كلَّ شعورٍ سلبيٍّ شيئًا مُستثقلاً، ونقيضَه شيئًا مُستخفًّا.

2-1 اسْتِعَارَاتٌ خَفِيفَةٌ

لـمّا كانتِ النّفوسُ تنفرُ منَ الشّيء إذا أسرفَ في الكثرةِ، وتسكنُ إليه متى تناهَى في القلّةِ، جعلُوا التّعبيرَ عنِ الانفعالاتِ والتّأثّراتِ لأمورٍ سارّةٍ بالخِفّةِ ، وأعربُوا عن مشاعرِ الفرحِ والسّعادةِ والغِبطةِ بألفاظٍ تعكسُ هذه الحقيقةَ الوَزنيّةَ، فقالوا: إنسانٌ خفيفُ الظّلِّ، ودمُه خفيفٌ، وعَلَتْ وجهَه ابتسامةٌ عريضةٌ، وارتفعتْ معنوياتُه، وتنفّسَ الصُّعَداءَ. ويقولُ امرؤ القيس: [طويل]



الجاحظ

وهَلْ يَعِمَنْ إلاَّ سَعيدٌ مُخَلَّدٌ
قَليلُ الهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

ويُقال أيضًا: أكادُ أطيرُ منَ الفرح، وأحِسُّ أنّني في القمّةِ اليومَ.

إنّ القيمةَ الوَزنيّةَ التي تقومُ عليها هذه التّعابيرُ هي الخِفّةُ، وبينما يعكسُ بعضُها هذه القيمةَ باستعارةِ لفظَيْ "خفيف" و"قليل" من مجال الأوزانِ، فإنّ عباراتٍ أخرى تعتمدُ استعارةً اتّجاهيّةً، وتمنحُ لمشاعرِ الفرح والسّعادةِ توجُّهًا فضائيًّا إلى أعلى بناءٍ على تصَوُّرِ "السّعادة فوق"، أو ما يُصطلحُ عليه بالتّفْضيةِ .

فالسّعادةُ مــثلاً ليست فضاءً فيزيائيًّا، ولكنَّ توظيفَ الاستعارةِ يجعلُنا نتصَوّرُها كما لو أنّها سماءٌ عُلويّةٌ تطيرُ صوْبَها الأشياءُ الخفيفةُ، أو جبلٌ له سفحٌ وقمّةٌ، وكلاهما فضاءان محسُوسانِ. ولهذا فاعتبارُنا

توظيفَ الاستعارةِ يجعلُنا نتصَوّرُ السعادة كما لو أنّها سماءٌ عُلويّةٌ تطيرُ صوْبَها الأشياءُ الخفيفةُ، أو جبلٌ له سفحٌ وقمّةٌ

إيّاها موجودةً في الأعلى هو الذي يبرّرُ قولَنا: تنفّسَ الصُّعداءَ، وعلت وجْهَه ابتسامةٌ عريضةٌ، وارتفعتْ معنوياتُه...الخ . وثمّةَ نسقيّةٌ تحكمُ الانسجامَ الحاصلَ بين هذه الاستعاراتِ جميعًا وتُبنْيِن مفهومَنا للسّعادة؛ وهي أنَّ ما خفَّ منَ الأشياء تكونُ كثافتُه قليلةً، ويرتفعُ إلى أعلى، خلافًا للأشياءِ الثّقيلةِ التي تكونُ كثافتُها مُرتفعةً، وتَهوي إلى الأرض بفعل قوّةِ الجاذبيّة ، ولذلك أتت هذه الاستعاراتُ متّسقةً فيما بينَها، ووفيّةً لمبدإ الخِفّة.

2-2 اسْتِعارَاتٌ ثَقِيلَةٌ

تقولُ الباحثةُ الإنجليزيّةُ إلينا سيمينو E. Semino في كتابها "الاستعارةُ في الخطاب": "ولا شكَّ أنَّ وصْفَ هيلين ريد لنوبةِ الاكتئابِ التي أصابَتْها، هي تفصيلٌ للاستعارةِ التّقليديّة، التي تَصفُ شعورَ المرءِ بالسّعادةِ بالصّعودِ إلى أعلى Happy is up، وتُشيرُ إلى شعورِه بالشّقاءِ بالانحدارِ إلى أسفلَ Unhappy is down، وهو ما شاعَ في كثيرٍ من تعبيراتِنا اليوميّة: "أشعرُ بأنَّ روحي المعنويّةَ في السّماءِ" I'm feeling up، أو أنَّ "نفسيّتَه في أسفلِ سافلين هذه الأيّامَ" He's realy low these days، أو "سقطَ في هوّةِ الاكتئابِ" Feel into a depression. فهذه التَّعبيراتُ التّقليديّةُ تشيرُ إلى مساحةٍ مكانيّةٍ بين موضعَيْن: الأعلَى للسّعادةِ والحبورِ، والأدنَى للحزنِ والاكتئابِ" .

تشيرُ إلينا سيمينو هاهنا إلى استعارةٍ اتّجاهيّةٍ تصفُ الأحاسيسَ والعواطفَ المُحبِطةَ، مثلَ: الشّقاءِ والحزنِ والاكتئاب، وتمنحُ مكانًا سُفليًّا لهذه الانفعالاتِ اعتمادًا على قياسِ الاستثقالِ.

فلأنَّ الشّـيءَ الثّقيلَ يسقطُ إلى الأرضِ بفعل قوّةِ الجاذبيّة، أُنيطتِ الأوزانُ الثّقيلةُ بكلِّ شعورٍ سلبيٍّ يُثبّطُ عزيمةَ الإنسانِ، ويجلبُ إليه المشقّةَ، أو كُرْهٍ يحملُه اتّجاهَ شخْصٍ ما دون إظهارٍ لشعورِه، أو أيِّ مظهرٍ من مظاهرِ السّخطِ أوِ الغيظِ . وقد رُوِيَ عن أبي معاويةَ الضّريرِ أنّه قيل للأعمش: ما عَوَّضَكَ من ذهابِ بصرِك؟ قال: ألَّا أرى به ثقيلاً ، وقال ابنُ شُبْرُمَةَ : [خفيف]

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَخِفُّ ومِنْهُمْ
كَرَحَى البَزْرِ رُكِّبَتْ فَوْقَ ظَهْرِي

وقيلَ لجالينُوس: «بمَ صارَ الرَّجلُ الثّقيلُ أثقلَ منَ الحِملِ الثّقيلِ؟ قال: لأنَّ الرّجلَ الثّقيلَ إنما ثِقَلُه على القلب دونَ الجوارح، والحِمْلُ الثّقيلُ يستعينُ فيه القلبُ بالجوارح» ، ومنَ العباراتِ المُتداولة: سقطتْ مَعنوياتِي، وأنا منهارٌ، وأنا في الحضيضِ، وغيرُها.

يتّضحُ من خلال هذه الأمثلة إذًا أنَّ مبدأُ الثّقلِ يُشكّلُ الأساسَ المعرفيَّ الذي يُبنينُ تصَوُّرنا الاستعاريَّ لمفاهيم الحزنِ والإحباطِ والاكتئابِ والكُرهِ، فتُصوّرُ الاكتئابَ حِملاً ثقيلاً، وتَصفُه كما لو أنّه ثقلٌ يقيّدُ حريّةَ المرءِ والآخرين في الحركة، وتُسقطُ صفةَ الثّقيلِ منَ النّاس على كلِّ من كان ثقيلاً على القلوبِ من حيثُ طبْعُه، أو

كلامُه، أو منظرُه، أو عملُه، وتسلّطُ الضّوءَ على الاستعارةِ الاتّجاهيّةِ في تصوُّرِ مفهومِ الاكتئابِ، انطلاقًا ممّا يَحدثُ للأجسامِ الثّقيلةِ منَ السّقوطِ والهُويِّ إلى الأسفلِ.

ثمّةَ استعارةٌ تصوُّريّةٌ أخرَى تتفرّعُ عنِ المبدأِ المُشارِ إليه آنفًا، وتُوظّفُ أفعالاً تُقرُّ بمفهومِ المكانِ، وهي استعارةُ الوعاءِ. وتُشكّلُ هذه الاستعارةُ مُنطلقًا أساسيًّا لنقلِ بعضِ المشاعرِ المُحبطةِ، مثل: الغضبِ والخشيةِ والخوفِ، ومنْحِها قيمةً تَوْزينيّةً ثقيلةً. قال أبو العبّاس ثعلب: «في صدره عليه غِمْرٌ: أي حِقْدٌ، والغُمْرُ من الرجال: الذي لم يجرّبِ الأمورَ. والغُمْرُ منَ الماء: الكثيرُ، ومنَ الرّجال: الكثيرُ العَطَاءِ»، وفي «جواهرِ الألفاظ» لقدامةَ بنِ جَعْفَرٍ: "يقال: مُلِئَ خَشْيةً ورُعبًا، وانتفخَ فَزَعًا وجزعًا، وشُحن ذُهولاً ووهلاً" ، ويقال: مُلِئَ صدْرُه رُعْبًا، وامتلأَ غَيْظًا، وأَوغرَ صدْرَه عليه، وكظمَ غيْظَه.

نلاحظُ إذًا أنَّ استشعارَ ثِقلِ مشاعرِ الخوفِ والرّعبِ والغضبِ يتمُّ انطلاقًا من تصَوُّرِها كما لو كانت سوائلَ توجدُ في وعاءٍ يمثّلُه الجسدُ، وأنَّ ارتفاعَ كثافتِها داخلَ هذا الوعاءِ يؤدّي إلى تزايُدِ وزنِها وممارستِها نوعًا منَ الثّقلِ عليه. وهذا ما يمنحُ الاستعارةَ بُعدًا تصْويريًّا تصبحُ معه العواطفُ والأحاسيسُ مُدركةً بصريًّا وأكثرَ اجتذابًا، باعتبارِ أنَّ أشدَّ أنواعِ الاستعارةِ اجتذابًا، كما يقولُ أرسطو، هي تلك التي تجعلُ "الأمرَ ماثلاً أمامَ الأعينِ»" ، ويفسّرُ في الآن ذاتِه التّوسّلَ بأفعالٍ تفيدُ التّثقيلَ، مثل: امْتَلأَ وأَوْغَرَ وكَظَمَ.



خاتِمَةٌ

لقد وظّفَ العربُ الاستعارةَ التّصوّريّةَ بِوَصْفِهَا إحـدَى الموازينِ البلاغيّةِ المُستخدمةِ للتّعبيرِ عنِ العواطفِ والأحاسيسِ، وخصُّوا المشاعرَ التي تبسطُ النَّفسَ وتُؤنِسُها بالمسرّةِ والسّعادةِ بمقياسِ الخفّةِ، وتلك التي تقبضُها بالحزنِ والكآبةِ والخوفِ بمقياسِ الثِّقلِ. ويبدُو هذا التَّوزينُ مُوافقًا تمامًا لِما تُعبّرُ عنه لُغةُ الجسدِ؛ ففي المشاعرِ المُفرحةِ ترتفعُ الحواجبُ والأجفانُ، وتعلُو الوَجْهَ ابْتِسامَةٌ عَرِيضَةٌ، بينما يحصلُ العكسُ في مشاعرِ الإحباطِ والأسَى، فيصبحُ الحاجبُ ثقيلًا، وتَتهدّلُ الأجفانُ والخدودُ والفمُ، ويُطأطأُ الرّأسُ، وتَرتشحُ العيونُ بالدّمعِ، وكلُّ هذه الحركاتِ تبدُو مُنسجمةً مع مبدأِ الخِفّةِ والثِّقلِ الذي تُؤدِّيه الاستعارةُ التّصوُّريّةُ.

قائمة المصادر والمراجع

* ابن منظور، جمال الدين الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
* ثعلب، أبو العباس: الفصيح، تح: عاطف مذكور، دار المعارف، القاهرة، ط1، (د-ت).
* الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتّبيين، تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998
* سيمينو، إلينا: الاستعارة في الخطاب، تر: عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013.
* السيوطي، جلال الدين: إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، دار التواصل، الكويت، ط1، 2009
* طاليس، أرسطو: فن الخطابة. تر: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ودار القلم، لبنان، ط1، 1979.
* العسكري، أبو هلال: الصناعتين، تح: عليّ محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952م.
* قدامة، ابن جعفر: جواهر الألفاظ، تح: محيي الدين عبد الحميد، (د-ت)
* لايكوف جورج وجونسون مارك: الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/المغرب: دار توبقال للنشر، 1996.

السّبيلُ إلى صناعة ملَكَةٍ لُغويّةٍ مُبينة

الحمدُ لله واهب النّعم، وواسع الكرم، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد العُرب والعجم الذي آتاهُ ربّه الجليلُ جوامعَ الكلِم، وأغدق عليه من سوابغ الآلاء وفيوضات النّعم، وبعد، فاللغة لدى كلّ قوم، وفي كل مجتمع إنسانيّ وسيلة التّواصل، وأداة التّفاهم، وهي محلّ عناية الدّارسين وموضعُ تأمُّل الباحثين على تعاقب العصور وتتابع الدّهور.

وفي شأن اللغة العربيّة، فإنَّ تعليمها لأبنائها وللنّاطقين بغيرها يمُرُّ بظروف صعبةٍ شديدة، ومُشجّعة مُحفّزة في الوقت نفسه؛ إذ يشهدُ العالمُ المعاصرُ تنافسا كبيرا بين اللغات العالميّة، ونهضةً قويّةً في ميدان تعليمها والتّمكين لها انتشارا وانحسارًا. والواقعُ المُعقّدُ الذي نحياهُ يكشفُ عن ضَعفٍ لغويّ شديد لدى كثيرٍ من المتكلّمين باللسان العربيّ.



د. امحمد المستغانمي
أمين عام مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة

وقد تشاركت عواملُ كثيرةٌ في تكوين هذا الضّعف، وتعميقه حتّى اتّسع الخَرْقُ على الرّاقع، واغتدى كلُّ مُهتمّ بشأن العربيّة الفُصحى وأضحى، وأصبح وأمسى باحثا عن سُبُلٍ للعودة بالعربيّة إلى مجدها التّليد، وماضيها المجيد، والاهتداء إلى طرائقَ ناجعة مفيدة لتحبيب أبناء الأجيال المعاصرة فيها، وتمكينهم من حُسْن التّحدّث بها وتجويد الكتابة بها.

والأمرُ نفسُه يهمُّ جمهورا كبيرا من النّاطقين بغير العربيّة من أبناء الأمم المجاورة حيث يدلُّ الواقع أنّ لديهم اهتمامًا بشأن تعلّمها، ويبذل كثيرٌ منهم جهودا ويقدّمون أموالا في سبيل تعلّمها وإتقانها، إلّا أنّ النّتائج التي يحصلون عليها لا تشفي عليلا ولا تروي غليلا.

ولتحقيق أهداف التّواصل اللغوي السّليم، والتّعبير باللغة عن الأفكار والعواطف، واستعمالها في المواطن الخطابيّة المتنوّعة، ينبغي أن يتسلّح المتعلّم بخزّان كبير من الألفاظ التي يُحْسِنُ فهمها والنّطق بها واستعمالها في تراكيب لغويّة سليمة وصحيحة، وامتلاكُهُ لهذا النّصيب الأوفى من المفردات والتراكيب اللغوية يُمكّنه أيضا من فهم المسموع والمقروء.

> **لتحقيق أهداف التّواصل اللغوي السّليم، والتّعبير باللغة عن الأفكار والعواطف، واستعمالها في المواطن الخطابيّة المتنوّعة، ينبغي أن يتسلّح المتعلّم بخزّان كبير من الألفاظ التي يُحْسِنُ فهمها والنّطق بها واستعمالها**

تساؤل:

يتساءلُ كثيرٌ من أهل الصّنعة اللغويّة والمهتمّين بالشّأن اللغوي، وأنا فردٌ منهم: هل نستطيعُ اليومَ أن نُخرّج أجيالا من الفصحاء الأبيناء؟ هل ستكتحِلُ أعيُنُنا، في عصر التّكنولوجيا والانفجار المعلوماتي، برؤية أبناء جيلنا المعاصر، وهم يتراقصون ويتغَنّوْنَ في المحافل العالميّة ومسارح الآداب والفنون على مرأى ومسمع من العالمين، مُتحدّثين بلغة الضّاد، مُفصحين بأعذب بيان، ومعبّرين بأمتع كلام يُطربُ الوجدان؟

هل سنَحْيا - وأملُنا في العيش كبير، والمرءُ يأمُلُ والحياةُ شهيّةٌ على حدّ تعبير المتنبّي- إلى أن نرى خِرّيجين من مدارسنا في رَيْعان الفُتوّة، وزهرة الشّباب يتحدّثون، ويُفصحون ويُبينون، ويعتلون منابر الخطابة، ومِنصّات الإبداع، يُطربون السّامعين، ويَسُرّون النّاظرين، ويهزّون نفوس الحاضرين ببيان رفيع، وأساليب من القول البديع؟

وهل يبلُغُ أيكةَ الإبانة والتّبيين أبناءُ الأمم الأخرى من النّاطقين بغير العربيّة ممّن يستهويهم تعلُّم اللسان العربيّ؟

هل هذا السّؤال ضربٌ من الخيال أو نَسْجٌ من الأوهام؟ أو هو ضِغثٌ من الأحلام؟ أو أنّنا - فعلا - إذا أحْسَنّا التّخطيط والتّنفيذ، استطعنا أن نصلَ إلى ما نبغي وما نريد؟

إنّ العقل العربيّ الذي وعى المعلّقات، وحفظَ أشعارَ الهُذليّين، واستظهرَ سُورَ القرآن الكريم، وتشرّبَ مئات الآلاف من لآلئ الكلِم النّبويّ، من الرّعيل الأوّل، ودَوَّنَ أمّات الكتب في شتّى العلوم والفنون في صدر الإسلام والعهود الذهبيّة التي وَلِيَتْهُ، هو العقلُ نفسُهُ الذي وَرِثناه عن آبائنا الأقربين وأسلافنا الأقدمين.

إنّ الأرض العربيّة التي خرّجت امْرَأَ القيس والمُهلهل، وزهيرا والسَّمَوْأل، وعنترةَ وطرفةَ وجَرْول، وجريرا والفرزدق والأخطل، ومسلم بن الوليد وأبا العتاهية ودِعبل خُزاعةَ الفَطحل، ونُظراءهم من جهابذة الشّعر، وأبيناء النّثر، ومصاقعة الخطابة، ورُوّاد الأقلام السيّالة في شتى الفنون والعلوم والآداب، إنّ تلك الأرض العربيّة المباركة التي أنجبت أولئك الأفذاذ، ليست عقيما، وليست عاجزة اليوم أن تُنجِبَ أمثالهم من النُجباء الأذكياء، ونُظراءَهم من الفصحاء البلغاء، وأولي الرّأي السّديد، والفكر الرّشيد.

إذن، ما السّبيل؟ وما الثّمن؟ وما المطلوب؟

خطواتٌ ومُقترحات:

وفيما يأتي من كلمات وفقرات إيجازٌ لجملةٍ من مقترحات وخطوات عمليّة استخلصتُها من تجارب عامّة وخبرات خاصّة، أُلقيها على مدارك أهل الفضل، لعلّي أقضي بها دينًا معلّقا في عنقي تُجاهَ التّميميّة الغيداء والمضريّة الحسناء.

> **على طالب العلم أن يُدرِكَ أنَّ تعلّم اللغة لا يقفُ عند معرفة معاني ألفاظها، وأحوال أوزانها وأبنيتها، وعليه أن يعلم أنَّ اكتساب الملكة اللغوية لا يكونُ إلا إذا امتلك المتعلّم آليّات تعلّم اللغة**

في ميدان تعلّم اللغة، أيّ لغة كانت، على طالب العلم أن يُدرِكَ أنَّ تعلّم اللغة لا يقفُ عند معرفة معاني ألفاظها، وأحوال أوزانها وأبنيتها، وعليه أن يعلم أنَّ اكتساب الملكة اللغوية لا يكونُ إلا إذا امتلك المتعلّم آليّات تعلّم اللغة، مبتدئا من معرفة الألفاظ ودلالاتها، مارّا بحُسن استعمالها وتركيبها، ممارسا دُعاءَها واستحضارها في اللّحظة التي يريد، مُنتهيا إلى مراعاة مقامات الكلام وسياقاته وظروفه وملابساته.

والسّبيل الأمثل لتحقيق ذلك هو أن يصلَ القائمون على التربيّة والتّعليم في بلادنا العربيّة إلى قناعات صحيحة سليمة في كيفيّة تكوين الملَكة اللغوية لدى أبناء الجيل.

مناهجُنا المعاصرة اليوم جديرةٌ بالاحترام حين تُعلّم المهارات العلميّة المتنوّعة، وتغرسُ في أبنائنا أساليبَ التّفكير النّاقد، وطرائقَ التفكير الإبداعيّ، وتُعوِّدُ التلاميذ على السّؤال، والاستفسار، والبحث عن الحلول، فهذه طرائقُ محمودةٌ تُفتّقُ أكمام الإبداع في شتّى العلوم والمعارف والفنون. وها نحن أولاء اليوم



نرى ونبتهج بما تُنتِجُه العقول العربيّة في شتّى أصقاع بلداننا الحبيبة، وفي عُقْر ديار الغرب من إبداعات واكتشافات في شتّى الموادّ العلميّة: الرّياضيّة والهندسيّة والتكنولوجية وغيرها، وهذا شيء طيّب نُباركه ونُزكّيه.

ولكن بالمقابل، فإنّ هذه المناهجَ أخفقت في بناء الملكة اللُّغويّة والقدرة التّعبيريّة لدى أبنائنا؛ ذلك لأنّها ضلّت عن سواء الصّراط في تعليم اللغة، والوصول بالتّلاميذ والطّلاب إلى درجة من الإتقان في الإبانة والتّبيين بها، والتبس لديها أمْرُ إنشاء الملَكة اللغوية بطرائق تعليم الموادّ العلميّة والفروع المعرفيّة الأخرى.

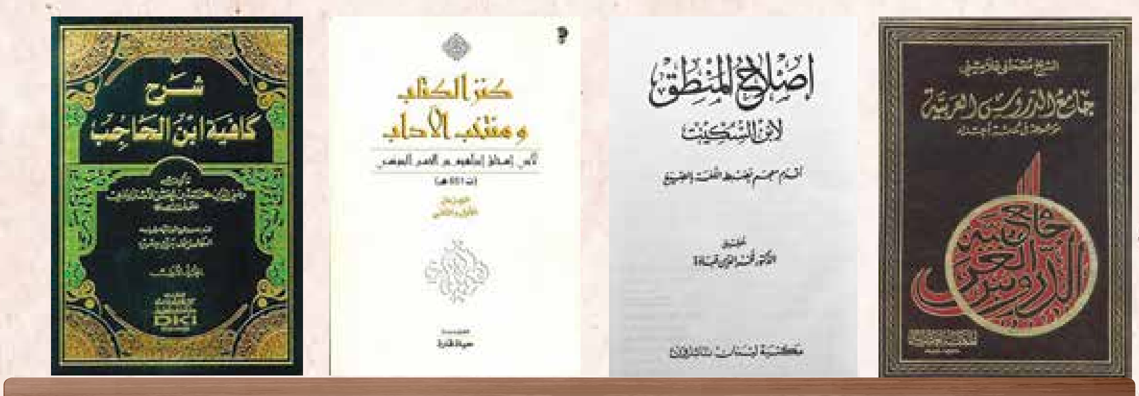
وحين نتحدّثُ عن الملكة اللّغويّة فإنّا نعني بها تلك الصّفة الرّاسخة التي يمتلكها المتكلّم وينطلقُ منها في فهم النّصوص اللغويّة والأدبيّة واستيعاب أغراضها، ويصدرُ عنها حين يُعبّر عمّا يدورُ في ذهنه، ويجيشُ في خاطره. وهذه المنظومة اللّغويّة المتكاملة هي التي تُمكِّنُه من فقه المقروء وفَهْم المسموع من كلام العرب الفصيح البليغ، وتهبُهُ القدرة على التّعبير السّليم الصّحيح المُؤنِق الجميل حين يُطلَبُ منه الكلام.

> **وحين نتحدّثُ عن الملكة اللّغويّة فإنّا نعني بها تلك الصّفة الرّاسخة التي يمتلكها المتكلّم وينطلقُ منها في فهم النّصوص اللغويّة والأدبيّة واستيعاب أغراضها**

والواقعُ يُخبِرُنا أنّ هذه الملكة عزيزةُ المنال، لا يحصل عليها طالبُ العلم بين عشيّة وضحاها؛ فهي ليست حُلْما تُرى في المنام، ولا تُقسَم بالأزلام، ولا تُشترى في الأسواق، ولا تُمنَحُ ضمن هدايا المواسم والأعياد، ولَوْ كانت كذلك لزالَ الكرْبُ، وهان الخَطْبُ، ولاستطعنا تعويض الحَصَر والعيّ الذي نراه في مؤسّساتنا التّعليمية، ونَشْهَدُه في هيئاتنا الإعلاميّة، ونتشرّبُ جرعاتٍ غيرَ سائغة منه من فوق منابر الجُمُعات والأعياد، وَلَكُنّا قدْ وجّهنا مندوبي هذه المؤسّسات وأمثالها إلى توفير النّصيب الأوفى من المَلَكات لأبنائها والمنتمين إليها بالشّراء من الأسواق المحليّة أو بالاستيراد من وراء البحار.

وأشفعُ كلامي بما جادت به قريحةُ العلّامة ابن خلدون حينَ خطّ في مقدّمته كلمات يُبيِّنُ فيها كيفيّة بناء الملكة اللّسانيّة لدى المتعلّم: "اعلم أنّ اللغات كلّها ملكاتٌ شبيهةٌ بالصّناعة؛ إذ هي ملكاتٌ في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنّظر إلى المفردات، وإنّما هو بالنّظر إلى التّراكيب. فإذا حصلت الملكة التّامّة في تركيب الألفاظ المفردة للتّعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبّقُ الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلّم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسّامع.... والملكاتُ لا تحصُلُ إلا بتكرار الأفعال».

إنّ الملكة اللغوية عمليّةٌ تراكميّةٌ هرميّةٌ، تبدأ بصغار الحصى ثمّ تكبُرُ ويتكدّسُ فوقها رُكامُ الحجارة والصّخور والأتربة إلى أن تُكوِّنَ جبلا شامخا. أُشبِّهُها بالقصر المشيد العالي الذي



يبنيه صاحبُهُ لبنةً لبنةً، بعد أن يكون قد وضع له مُخطّطا دقيقا مفصّلا واضحا، ووظّف مهندسين مَهَرة، واستأجر بنّائين طائعين بَرَرَة، عارفين بأدوات البناء المتنوّعة، ومع كل ذلك، يُتابع إنشاء البنيان من أساساته إلى أن يُطلّ بعنقه فارها باسقا مُونِقا باسما، ينقدُ بفكره وعيونه ومُحاوراته حتى إنّه ليكادُ يضعُ كلّ لبنة في موضعها بيديه.

إذا كان هذا شأنَ تشييد بَيْت أو قَصْر في دنيا المدَنِية والعمران، فإنّ إنشاءَ صَرْح الملكات اللغوية يتطلّبُ هذا ومثلَه معه من التّخطيط السّليم، والرّوافد والأدوات والمتخصّصين. إذا أردنا أن نصنعَ أجيالا من الذين يُحسنون العربيّة، من أبنائها ومن غير أبنائها، فإنّه يجب أن نرسم لهم مَهْيَعا واضحا لتعلّمها، وهذا الطريق هو نفسُه الذي سطّره العلماءُ السّابقون، وسلكه الفصحاء الأقدمون، وبرهنوا على استقامته وجدواه من خلال ما كتبوا وألّفوا.

والملكة تجمع بين شيئين: هي من ناحية، هبةٌ من الله تعالى يتفاوتُ فيها البشر، وهي من ناحية أخرى تزداد وتنمو بالاكتساب والرّعاية والعناية والمتابعة.

وتسهيلا للأمر، أضع بين أيدي الرّاغبين في تعلّم اللغة العربيّة من أبنائها وغير أبنائها الخطوط العريضة الآتية:

أوّلا: الانغماسُ اللّغويّ

ضرورة العيش في رحاب بيئة سليمة لُغويّا، وهو ما يُعبّرُ عنه المحدثون بالانغماس اللّغويّ في بيئة لغويّة سليمة. هذا الانغماسُ له أثرٌ بالغ في اكتساب اللغة العربيّة خصوصا للنّاطقين بغيرها حيثُ يُؤدّي إلى توسيع الرّصيد المعجميّ للمتعلّم، ويُعوّدُهُ على النُّطق السّليم، ويُعوِّدُ ذهنه على محاكاة كيفيّة تركيب الكلام العربيّ الفصيح، وبناء أنساقه التّعبيرية الصّحيحة والمقبولة والمستحسنة.

والانغماس اللّغويّ يُحقّق اكتساب ثلاث كفايات: لغويّة وثقافيّة وتواصليّة، وهو ضرورة مُلِحّة في تعليم العربيّة وتعلّمها داخل قاعة الدّرس، وخارجه، ولكي نُحْسِنَ الاستفادة منه، ينبغي رَسْمُ استراتيجيّات دقيقة لتحقيقه، وإعداد برامج مُجدية ومفيدة وفعّالة لجني ثماره.

ثانيا: ضرورة إتقان علوم الآلة

علومُ الآلة المتعلقة باللّسان العربيّ هي النّحو والصّرف والإملاء والبلاغة بعلومها الثلاثة (البيان والمعاني والبديع) وعلم العروض.

في المرحلة الأولى، لا مناصَ أن يبدأ المتعلّم بالمبادئ الأساسيّة في كلّ علم منها. فإذا أتمّها بنجاح، وأحاط بأساسيّاتها عِلْما، يعودُ إليها في المرحلة الثّانية، تحت إشراف مُعلّمه، مُغْترفًا من كتبها الموسّعة، يُعمّق معلوماته بدراستها، ويُوَسّعُ مداركَه فيها فنًّا فنّا، مُتعرّفًا على مسائلها وأصولها وفروعها ومباحثها، ثمّ تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلةُ البسط والتّفصيل والبحث والنّقاش والمقارنة والتّحليل والنّقد والتّقييم، ويمتلك المتعلّم بنفسه فيها زِمام عمليّة البحث والتّنقيب، خائضًا لُججَ هذا العلم أو ذاك مُستخرجا دُررَه ولآلئه، مُكوّنا نظراتٍ وملحوظات ليس

> إنّ الملكة اللغوية عمليّةٌ تراكميّةٌ هرميّة، تبدأ بصغار الحصى ثمّ تكبُرُ ويتكدّسُ فوقها رُكامُ الحجارة والصّخور والأتربة إلى أن تُكوِّنَ جبلا شامخا

> إذا أردنا أن نصنعَ أجيالا من الذين يُحسنون العربيّة، من أبنائها ومن غير أبنائها، فإنّه يجب أن نرسم لهم مَهْيَعا واضحا لتعلّمه

> لا بد من العيش في رحاب بيئة سليمة لُغويّا، وهو ما يُعبّرُ عنه المحدثون بالانغماس اللّغويّ في بيئة لغويّة سليمة

من الضّرورة أن يكون قد امتلكها السّابقون.

وإذا كان لي أن أمثّل لعلم النّحو في المراحل الثلاث، فإنّه يحسنُ بطالب النحو المبتدئ أن يدرس بادئ ذي بدء كتاب النّحو الواضح، وأحد شروح الآجُرّوميّة في المرحلة الأولى، فإذا استوعب ذهنُه أهمَّ مباحثِ علمِ النّحو من خلال ذلك، يعود إلى علم النحو في المرحلة الثانية منفتحا على جامع دروس العربيّة للغلاييني، وقَطْر النّدى وبل الصّدى، ثم ينبري في المرحلة التي تليها إلى ألفية العلّامة ابن مالك وشروحها مثل شرح ابن عقيل والأشموني والمكودي، غائصًا في لجج التّسهيل وشروح كافية ابن الحاجب ونظائرهما من الأسفار المتخصّصة. وقُلْ مثل ذلك في فنّ الصرف، وعلوم البلاغة وعلم العروض.

ويحسنُ أن نشير في هذا المقام ونُحذّر من حفظ المختصرات الغامضة والصّعبة، فإنّ ذلك لا يزيد طالب العربيّة منها إلا نفورا، وإنّما المطلوب أن نُعلّم طالب اللغة العربيّة المبتدئ قواعد النّحو من خلال البيان الرّفيع: بتعويده على جماليّات اللسان العربيّ ببسط أمثلة من الجمل الرّائعة والأنساق التّعبيريّة الفصيحة، والأمثال السّائرة، والمتلازمات اللغوية البلغية التي شاعت وذاعت على ألسنة الفصحاء والبلغاء، والأبيات الشّعريّة التي سارت بها الرّكبان لجمالها وحسن نظمها ولذّة إيقاعها في الأذهان والآذان والوجدان.

تعليمُ القواعد اللغويّة لذاتها غيرُ مجدٍ، ما لم يُصاحبه تعليم تراكيب هذه اللغة وأنماطها التّواصليّة المتداولة إلى أن يتدرّب المتعلّم على هذه الأنساق التعبيرية والأنماط البيانيّة الفصيحة العالية فينسج على منوالها، ويفصح لسانه على محاكاتها بصفة عفويّة يكون قد ألِفها ذهنُه، وأصبح رطبا بها لسانُه.

ثالثا: مفتاح التّدرّج

لا بدّ في تكوين الملكة اللغويّة من التّدرّج: من السّهل إلى الصّعب، ومن البسيط إلى المُعَقّد، ومن العامّ إلى الخاصّ، وينبغي مراعاة استعدادات المتلقّي وحاجاته وقدراته الفطريّة والعقليّة.

رابعا: مفتاح القراءة:

في الوقت الذي ينبري فيه طالبُ العلم لتعلّم علوم الآلة وإتقانها في مستوياتها الثلاثة، أقول: بالتّوازي، وفي أيّام الطّلب ولياليه، عليه أن يمتلك مفتاح القراءة ويعَضّ عليه بالنّواجذ.

الفعل (اقرأ) هو جوهرة أفعال الأمر في القرآن الكريم، وفاتحة التقاء السّماء بالأرض، وإذا كان علماءُ التنمية البشريّة قد حدّدوا مفاتيحَ كثيرةً للنّجاح من مثل تحديد الرّؤية ورسم الأهداف والتخطيط وحسن إدارة الوقت، وضرورة امتلاك الرّغبة المشتعلة وغيرها من المفاتيح، فإنّ المفتاح الأعظم الذي يفتح جميع أبواب النّجاح في شتّى مناحي الحياة هو مفتاح القراءة.

من هنا أقول: يجب أن يمتلك المتعلّم مفتاح القراءة في سنٍّ مبكّرة، ويُحسِن توظيفه. يتعلّم مخارج الحروف وصفاتها، ويُتقن قراءة الكلمات والجمل والفقرات، ويعرف أين يقف، ويتعلّمُ مواضعَ الفصل والوصل، وكيف يقف على ساكن، وكيف يقف على التّنوين، وكيف يُعطي الحروفَ حقوقها من ترقيق وتفخيم وهمس وصفير وغيرها من الصّفات، ولا يقولنّ أحدكم إنّ هذه بَدَهيّاتٌ تجاوزها الزّمن؛ لأنّي أقول: تعالَ أيّها الغَيور على لغة الضّاد، واستمع إلى نشرات الأخبار، وأصْغ إلى المذيعين والمذيعات في شتّى المؤسّسات العالميّة، وهذه شريحة مجتمعيّة مهمّة جدا، ولا

أعمّم في قولي هذا، وانظر ماذا تسمع، وأخبرني: هل يحتاج الأمر إلى إعادة النّظر في أساسيّات القراءة أم لا؟

إنّ الخطبَ جلَلٌ، والرزّية عظيمة، والبلوى جسيمة، قد يغُضُّ أحدُنا الطَّرف حين يُخفِقُ ابنُه في مادة الفيزياء أو الكيمياء، أو لا يُحسن الرَّسم، أو لا يُجيدُ علم المحاسبة، فهذه أذواقٌ ومستويات وفروقٌ فرديّة نحترمُها، ولكن حين يصلُ الأمر ببناتنا وأبنائنا أن لا يفرّق الفردُ منهم بين الماضي والمضارع والأمر، بل حين يتدنّى مستوى التلاميذ في الابتدائية والإعدادية بل في المراحل العليا، ولا يفرّقون بين الاسم والفعل والحرف، ولا يحسنون قراءةَ فِقرةٍ قراءةً جهريةً سليمةً بعيدةً عن اللّحن والفجور في الإعراب، فقُلْ: إنّ الصاخّة قد حلّت، وإنّ الغاشية قد نزلت، واعلمْ أنّنا نعيش عصر الطامّة الكبرى في المسألة اللُّغويّة، وهذا يفرضُ على صُنّاع القرار أن يقفوا وقفةً حازمةً للمراجعة والتّصحيح وإعادة توجيه القافلة.

وحين نتحدّثُ عن القراءة، يحسنُ أن نُرشدَ النّاشئ فينا إلى الشُّروع في مطالعة كتب الكتّاب المُجيدين من أمثال المنفلوطي، وأحمد حسن الزّيّات، وأحمد أمين، وطه حسين، والشّيخ محمد البشير الإبراهيمي وضُربائهم ممّن حسُنَت لغتُه، وعلا أسلوبُه، واتّسمت كتاباتُه بالنّقاء والجزالة وجَودة السّبك. هذا في المرحلة الأولى، ثم نوجّهه إلى مطالعة أمّات كتب الأدب ابتداء من جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي وجمهرة خُطب العرب، مرورا بمختارات الأدب العربي لحنا الفاخوري إلى أن يمتلك ناصية المطالعة، ويستلذّ مُخالطة البيان والتبيين وأدب الكاتب

> **وحين نتحدّثُ عن القراءة، يحسنُ أن نُـرشـدَ النّاشئ فينا إلى الشُّروع في مطالعة كتب الكتّاب المُجيدين من أمثال المنفلوطي، وأحمد حسن الزّيّات، وأحمد أمين، وطـه حـسـيـن، والـشّـيـخ محمد البشير الإبراهيمي وضُربائهم ممّن حسُنَت لغتُه**

والعمدة لابن رشيق وما يَسْتصفي لنفسه من الأغاني والعقد الفريد ويتيمة الدهر، وخريدة القَصر وجريدة العصر وغيرها، وإذا امتلك المتعلّم ناصية القراءة، وفَهِم ما يقرأ، فنَمْ أيّها التربويّ، فالمخاطرُ كلّها أمان.

خامسا: الحفظُ والاستظهار

الحفظ هو الرّافدُ الأكبر لخزّان الملَكة اللغوية، وينبغي في هذا الشأن توجيهُ المتعلّم إلى حفظ نصيب وافر من سور القرآن الكريم، وإذا أتمّ حفظه كاملا فذلك من نِعم الله عليه، ثمّ يتوجّهُ إلى حفظ نصيبٍ وافرٍ من أحاديث نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي رزقه الله المنعم الوهّاب جوامعَ الكلِم، ثمّ يوجّهُ ذهنه وحافظتَهُ إلى استظهار جُملة وافرة من عيون الشّعر العربي الرّصين من جميع عصور العربية ابتداء بالمعلّقات وأشعار الجاهليّين الستة، والمُفضّليات، والأصمعيّات، والحماسة، وعيون قصائد صدر الإسلام وأشعار الأمويّين والعباسيّين إلى أن يصل إلى فطاحل الشّعر العربي في العصر الحديث من أمثال شوقي وحافظ والجواهريّ وأشياعهم.

وعملية الحفظ هذه تُكوِّنُ لدى النّاشئ مخزونا من الألفاظ والأنساق التّعبيريّة المُحكمة النّسج، البديعة النّظم، وتكون جاهزةً في ذهنه، تُمكّنُه من التّعبير القويّ حين تكِلُّ القرائح، وتجِفّ الأذهان، ويُصابُ بالعِيّ اللسان.

من ناحية أخـرى، يجب أن تكون للمتعلّم صُحبةٌ وثيقة وعلاقة وطيدةٌ مع أسفار الألفاظ فإنّها تُوَفّرُ له مخزونا معجميّا قويّا ثرّا غنيّا، وأعني كتب الألفاظ التي عُنِيَ فيها أصحابُها بجمع فصيح الألفاظ، وبليغ العبارات، وبيان مواضع استعمالها وتوظيفها، من مثل الألفاظ الكتابيّة للهمداني، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، وإصلاح المنطق لابن السّكّيت، وكنز الكتّاب لأبي إسحاق البونسي وما شابهها.

سادسا: البُعد عن الازدواجيّة اللّغويّة

البُعْدُ عن الازدواجيّة اللغويّة ضرورة ملحّة، ومطلبٌ لازب ما استطاع المتعلّم إلى ذلك سبيلا؛ إذ ينبغي ألّا يخلط المتعلّم أثناء تعلّمه بين لغات مختلفة، ولا يستعمل كلمات وألفاظا أعجميّة يستسهلها في التّعبير عمّا يريد، وعليه أن تكون لديه قناعة أنّ في لغته العربية الفصحى التي هو بصدد تعلّمها ما يفي بالمطلوب، ويعبّر عن الغرض، ويشفي الغليل، ويزيد على ما يُريد إيضاحا وبيانا.

والعمليّة كلّها عمليّة قناعات، فإذا صحّت القناعة في ذهن صاحبها، وباشرت منه العقل والوجدان، وخيّمت على نفسه ومدارك تفكيره، ونظرته للحياة والأشياء والأفكار، فإنّه يستفيد من تعلّمه اللغة، وتتجذّرُ في نفسه الملكة اللغويّة، ويصبح ممّن يحسنون التّعبير والتّصرّف في المقامات الكلاميّة والخطابيّة المتنوّعة.

سابعا: التّقليد والمُحاكاة

بعد أن يتربّع المتعلّم على عرش خزّانٍ فيّاضٍ من المحفوظ الأدبيّ شعرا ونثرا، وتُصبحَ روائعُ كتب التراث العربيّ نديمه وأنيسَه في حِلّه، وحِلْسَه وجليسه في تَرحاله، ويُحكمَ قبضتَهُ على علوم الآلة، مُتعرّفًا على أوابدها وشواردها وغرائبها، وتتوثَّقَ صُحبتُهُ مع أسفارها وقراطيسها، وتُغيثَهُ الذّاكرة المتوقّدة بمعرفة موضع المسألة في كلّ كتاب، هنا يحْسُنُ بهذا المتعلّم الهُمام أن يتوجّه بجميع قواه العقليّة والوجدانيّة إلى النّسج على منوال الأدباء المُجيدين، والشُّعراء المطبوعين، والكتّاب المترسّلين المتأنّقين، ويَحْذُوَ حذوَهم، ويلْبَسَ لَبوسَهم، ويُغامرَ في تقليدهم ومُحاكاتهم.

وهذه الخطوة ضروريّةٌ لكل من يصبو إلى امتلاك ناصية البيان، ويشرئبُّ إلى الانخراط في صفوف حُرّاس العربيّة، الذين يُبدعون بها شفويا وكتابيّا. لا محيصَ لكل مُبدع أن يمتطيَ صهوةَ جواد المُضاهاة والمُحاكاة، ثمّ إنّي أَبْشِرُهُ وأُبشِّرُهُ بأنَّ ملكتَهُ ستُصقَلُ، ولسانَهُ سيُفصِحُ ويُبين، ولَسَوْفَ تُورِقُ معالمُ شخصيّته الأدبيّة، ويُكتَبُ اسمُه في دفتر التّفرّد والتّميّز والتألّق.

وقبل أن يتلألأَ نجمُه وتسْطُعَ شمسُه في سماء الآداب والإبانة اللغوية، فإنّه يجب أن يُوقّع عَقْدَ عملٍ يوميّ يُخصّصه للتّدريب العمليّ على التعبير الكتابي، ويَصْطفِيَ أوقاتا للمراس الشّفوي، مُتحدّثًا مع نفسه تارة، ومُخاطبا المِرآةَ أخرى، ومُتمثّلا جُموعَ المثقّفين والأدباء في مسارح عكّاظ والمربد وذي المجنّة طورا آخر، وهم يُلقون إليه السّمع، وهو يتبختَرُ في أثواب الفخر والخُيلاء مزهُوًا بفصاحته، مُتصرِّفًا في فنون القول والخطابة والإلقاء رابطَ الجأش غيرَ هيّابٍ ولا خوّار.

وجملة القول في هذا الشّأن: إنّ الدُّربة والمران والممارسة المتكرّرة والمحاكاة المستمرّة، كلّ أولئك يقوّي الملكة في نفس صاحبها، ويجعلها تتجذّرُ وترسخ وتستحكم لدى المتعلّم حتّى لا يصدر إلا عنها، ولا يفكّر إلا من خلالها، ولا ينطق إلا منطلقا منها.

> **لا تُؤتي دروسُ العربيّة ثمارَها إلّا إذا تعهّدَ المتعلّمَ الفتيَّ جهبذٌ ذاقَ حلاوةَ العربيّة، وهام في حبّها شغفا، وأسَرَه بيانُها الفتّانُ، وسَحَرَهُ تعبيرُها الأنيق، ولفظُها الرّشيق**

ثامنا: المعلّمُ الأسوةُ الخِرّيت

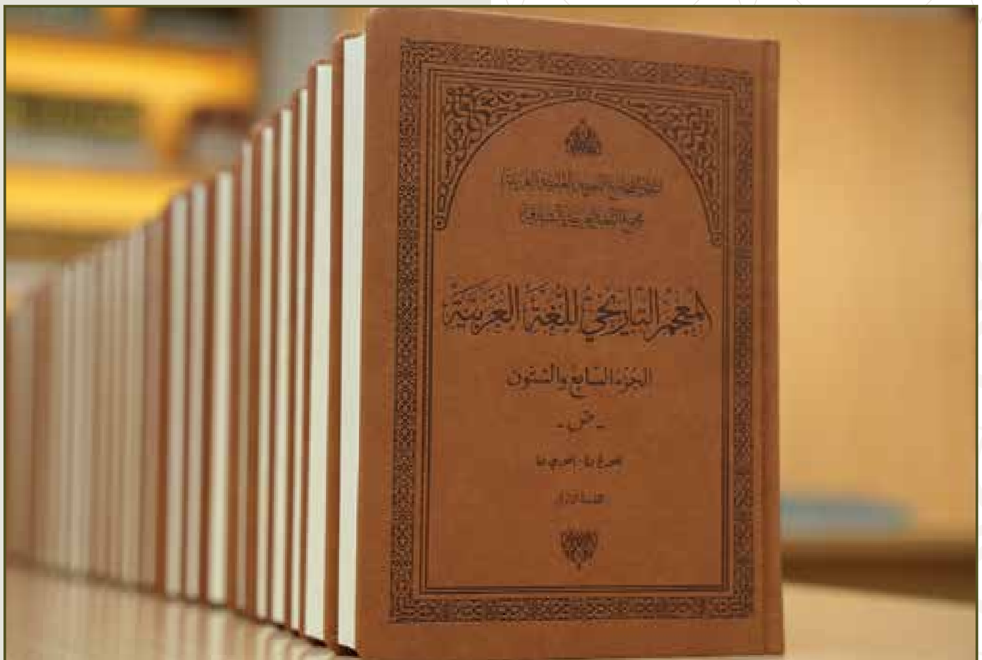
هذا، ولا يتأتّى ذلك، في الغالب من أمر النّاس، دون رعاية معلّم مُربٍّ حكيم مُتقن للغة، عليم بفنونها، حاذقٍ في أساليبها، حصيف الرّأي، شَغوف بالعربيّة، عاشقٍ لنحوها وصرفها، مُستهام ببلاغتها، قُدوةٍ في إجادة التّعبير بها، هاجِرٍ للعاميّات يُضمرُ ويُبدي البغضاءَ والشّنآن لها.

لا تُؤتي دروسُ العربيّة ثمارَها إلّا إذا تعهّدَ المتعلّمَ الفتيَّ جهبذٌ ذاقَ حلاوةَ العربيّة، وهام في حبّها شغفا، وأسَرَه بيانُها الفتّانُ، وسَحَرَهُ تعبيرُها الأنيق، ولفظُها الرّشيق.

هذا المعلّمُ القُدوةُ والأستاذُ الأسوةُ هو الذي يزرعُ حبَّ العربيّة في نفوس تلاميذه، ويتعهّدُهم كالنّبتة الطّيّبة في الأرض المباركة غَرْسًا وسَقْيا وتنميةً إلى أن يغلُظَ ساقُها، ويشتدَّ عودُها، وترتفعَ هامتُها، وتُؤتي ثمارَها بإذن ربّها.

هذه الخطوات العمليّة والمقترحات التّعليميّة اللغويّة، من وجهة نظري، تنفع في تعليم اللغة لأبنائها وغير أبنائها، وكم من أبناء الأمم المجاورة والأجناس المختلفة، عاشوا في بيئة عربيّة أصيلة، وتلَقَّوا تعليما لغويّا سليما، فأصبحَتْ لا تفرّقُ بينهم وبين أفصح أبناء العربيّة، بل تفوّقَ كثيرٌ منهم وكتبوا أسماءهم بحروف ذهبيّة على جبهة التّاريخ.

هذه دعوتي إلى أبناء العروبة والإسلام وكل عاشق للغة الضّاد مُحِبّ لها راغب في تعلّمها، وهذه صيحتي، ويا ليتَ قومي يعلمون عظمةَ اللغة العربيّة التي اصطفاها لهم الملِكُ الدّيّان في الحياة الدّنيا، واجتباها حاملةً للقرآن الكريم.



مُعجَميّات

من المُعجمِ التّاريخيّ للّغة العربيّة

رِحلـةٌ مــعَ الجذر «س ك ن»

العَربيّةُ بَحرٌ لا ساحلَ لَه، لا يُدرَك قَرارُها، ولا يُشقُّ غُبارُها، الكُلُّ مِن دُررِها مُغْترِفون، وبِفضْلها مُعْتَرفون، تَجودُ عَليْهم بكَلِماتِها الأنيقَة، وعِباراتِها الرَّشيقَة، وجُمَلِها ذاتِ الدَّلالاتِ العميقَة، ليَكْتمل بُنيانُ البَيان، وتَزْدانَ ببَهائِه الأَرْكان.

ومِنَ الجُذورِ الَّتي لَها حَظٌّ مِنَ الدَّلالاتِ زاخِرٌ، ونَصيبٌ مِنَ المعاني باهِرٌ؛ الجذْرُ (س ك ن). يَزْخَرُ الجذْرُ (س ك ن) بِالمَعاني والدَّلالاتِ، ويَفيضُ بأَرْقى العِباراتِ وأَجْمَلِ التَّعْبيرات، ويَتَميَّزُ بكَثْرَةِ الشَّواهِدِ والاسْتِعْمالاتِ، ولَهُ دلالاتُه المَعْنَويَّةُ والمادِّيَّةُ والحَقيقيَّةُ والمَجازيَّةُ، وقَدْ سَطَّرَ المُعْجَمُ التّاريخيُّ لِلُّغَةِ العَربيَّةِ سيرَةً حافِلَةً بِالمَعاني والدَّلالاتِ لِلجذْرِ (س ك ن) تَرْبو عَلى سَبْعينَ صَفحةً، وهذِهِ الدَّلالاتُ تَشْتَرِكُ في مَعانيها الكُلّيَّةِ، وهيَ:

1. التَّوَقُّفُ والثَّباتُ. 2. الإِقامَةُ. 3. الذُّلُّ والخُضوعُ.



د.بهاء الدين دنديس
باحث لغوي في مجمع
اللّغة العربيّة بالشارقة

وعِنْدَ الحَديثِ عَنِ الجذْرِ (س ك ن) يَعِنُّ في البالِ ويَتَبادَرُ إِلى المَقالِ ذلِكُمُ الهُدوءُ المُفْعَمُ بِالخُشوعِ والاطْمِئْنانِ، الَّذي تُخَيِّمُ عَلَيْه السَّكينَةُ والسَّلامُ، السّالمُ مِنَ الحَرَكَةِ والاضْطِرابِ، وهذا المَعْنى يُصَوِّرُهُ الشّاعِرُ الجاهِليُّ عامِرُ بنُ جُوَيْن، يَذْكُرُ ريحًا تُثيرُ سَحابًا، بِقَوْلِه:

1: سَكَنَ — **فعل**

1-1: ❋ سَكَنَ (بِفَتْحِ الكافِ) الشَّيْءُ يَسْكُنُ (بِضَمِّ الكافِ) سُكونًا: ذَهَبَتْ حَرَكَتُهُ واسْتَقَرَّ وثَبَتَ.

(ق س) (480ق ه/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قالَ عامِرُ بْنُ جُوَيْن (ت: 74ق هــ=550م) يَذْكُرُ ريحًا تُثيرُ سَحابًا:

فَتَسُحُّ الماءَ ما سَكَنَتْ
فإذا هاجَتْ لَهُ اضْطَرَبا

شعر طيئ وأخبارها. تح: السنديوني، ص: 425.

والمَعْنى نفْسُهُ حاضِرٌ كَذلِكَ في القُرْآنِ الكَريم والسُّنَّةِ النَّبَويَّةِ، جاءَتْ بِهِ الآياتُ الكَريمَةُ والأَحاديثُ الشَّريفَةُ، فَمِنْ ذلِكَ:

(س) (1ه/622م) إلــى (132هــ/749م)

في القُرْآنِ الكَريمِ (11هــ=632م) قالَ اللهُ :

﴿ولَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. (الأنعام:13)

وقالَ النَّبِيّ ﷺ (ت: 11هــ=632م):

«اسْكُنْ حِراءُ، فإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهيدٌ».

ابن حنبل، فضائل الصحابة. تح: عباس، ج: 1، ص: 113.

والعَرَبُ تُسَمّي خَفْضَ الصَّوْتِ بِالكَلامِ سُكونًا، فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ المُنذِرِ الأكْبَرِ:

1-2: و ــــ الصَّوْتُ: خَفَتَ وانْخَفَضَ.

(ق س) (480ق هــ/169م) إلى (1ق هــ/621م)

قالَ المُنْذِرِ الأَكْبَرُ (ت: 70 ق هــ=554م) يَصِفُ جارِيَةً:

"صَناعُ الكَفَّيْنِ، قَطِيعَةُ اللِّسانِ، رَهْوَةُ الصَّوْتِ ساكِنَتُهُ".

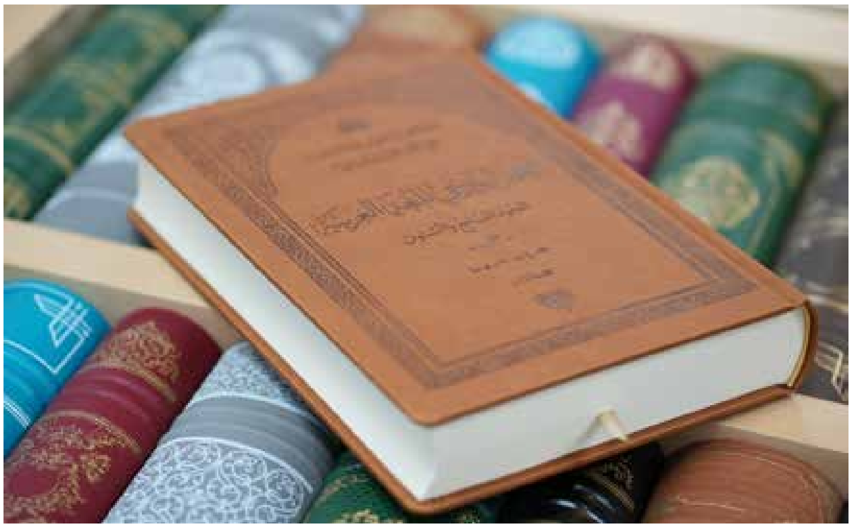
النويري، نهاية الأرب. تح: الطويل وآخر، ج: 7، ص: 253.

ومِنْ بابِ أَوْلى تُسَمّي السُّكوتَ سُكونًا، فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ الصَّحابيِّ الجَليلِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ يَذْكُرُ قُدومَ الهُرْمُزانِ عَلَى عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رَضيَ اللهُ عَنْهُ:

1-8: و ــــ فُلانٌ وغَيْرُهُ: سَكَتَ.

(س) (1ه/622م) إلى (132هــ/749م)

قالَ أَنَسُ بْنُ مالِكٍ (ت: 93هــ=712م)



يَذْكُرُ قُدومَ الهُرْمُزانِ عَلَى عمر بن الخَطّاب:

"لَمّا قَدِمْنا عَلى عُمَرَ سَكَنَ الهُرْمُزانُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ، فقالَ لَهُ عُمَرُ: تَكَلَّمْ".

مصنف ابن أبي شيبة. تح: الحوت، ج: 7، ص: 3.

ولَمّا كانَ السُّكونُ مَدْعاةً للرّاحَةِ عَبَّرَ القُرْآنُ الكَريمُ عَنْها بِلازِمِها؛ فَقالَ جَلَّ مِنْ قائِلٍ:

1-3: و ___ فُلانٌ: اسْتَراحَ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريم (11هـ=632م) قالَ اللهُ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (يونس:67)

ومِنْ عَلاماتِ الخُضوعِ السُّكونُ، مِصْداقُ ذلِكَ ما حَكاهُ الصَّحابيُّ الجَليلُ أُبيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ، يَصِفُ حالَ الجِذْعِ الَّذي كانَ يَسْتَنِدُ عَلَيهِ النَّبيُّ ﷺ أَثْناءَ خُطَبِهِ وأَحاديثِهِ لَمّا اسْتَبْدَلَ بِهِ مِنْبَرًا:

1-4: و ___ فُلانٌ وغَيْرُهُ: خَضَعَ وذَلَّ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ أُبيُّ بْنُ كَعْب (ت: 22هـ=643م) يَصِفُ حالَ الجِذْعِ حِينَ اتَّخَذَ النَّبيُّ ﷺ مِنْبَرًا:

"فلَمّا أَرادَ أَنْ يَأْتيَ المِنْبَرَ مَرَّ عَلَيْه، فلمّا جاوَزَهُ خارَ الجِذْعُ حَتّى تَصَدَّعَ وانْشَقَّ، فرَجَعَ رَسولُ اللهِ ﷺ فمَسَحَهُ بِيَدِهِ حتّى سَكَنَ".

وما أَلْطَفَ تِلْكَ العِبارَةَ حينَ يُعَبَّرُ عَنْ زَوالِ الألمِ الآنيِّ بِـ(السُّكونِ)، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُهُمْ: سَكَنَ أَلَمُ فُلانٍ، كَما جاءَ عَلى لِسانِ ابْنِ أَبي أُصَيْبِعَةَ يَذْكُرُ لَديغًا يَتَداوى:

1-5: و ___ الأَلَمُ ونَحْوُهُ: خَفَّتْ حِدَّتُهُ وزالَ.

(د م) (657هـ/1259م) إلى (1213هـ/1798م)

قالَ ابْنُ أَبي أُصَيبعة (ت: 668هـ=1270م) يَذْكُرُ لديغًا يَتَداوى:

"شَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الماءِ شُرْبًا كَثيرًا، فلَمْ يَلْبَثْ في جَوْفِهِ حَتّى سَكَنَ أَلَمُهُ، وما كانَ يَجِدُهُ مِنْ ضَرْبَةِ الأفعى".

والعَرَبُ تَسْتَعيرُ السُّكونَ؛ فَتُعَبِّرُ بِهِ عَنِ انْقِطاعِ البُكاءِ وجَفافِ الدُّموعِ في العَيْنِ وتَقولُ: سَكَنَتْ عَيْنُ فُلانٍ؛ أَيْ: فَتَرَتْ، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ الشّاعِرِ أَبي نُواس:

1-6: و ___ العَيْنُ: فَتَرَتْ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ أبو نُواس (ت: 198هـ=814م):

يا عَيْنُ ما لَكِ لَمّا

وَرَّطتِ قَلبي سَكَنْتِ

ديوان أبي نواس، تح: بهجت الحديثي، ص: 549.

والنّارُ لَها زَفَراتٌ وتَغَيُّظاتٌ وأَصْواتٌ تَعْلو عِنْدَ اضْطِرامِها واشْتِدادِ لَهَبِها، فإذا خَمَدَتْ قيلَ: سَكَنَتِ النّارُ أَوْ سَكَنَ لَهيبُها، ومِنْ ذلِكَ ما جاءَ عَنْ مُقاتِلِ بنِ سُلَيْمانَ في تَفْسيرِ قَوْلِ اللهِ في سورَةِ الإِسْراءِ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾:

1-7: و ___ النّارُ ونَحْوُها: خَمَدَتْ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ مُقاتِلُ بْنُ سُلَيْمان (ت: 150هـ=767م) يُفَسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء: 97):

"إذا أَكَلَتْهُمُ النّارُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ العِظامِ وصاروا فَحْمًا سَكَنَتِ النّارُ".

تفسير مقاتل، ت: شحاتة، ج: 2، ص: 552.

ومِنْ بَليغِ العِباراتِ قَوْلُ العَرَبِ فيمَنْ يَسْعى في وَأْدِ الفِتْنَةِ وإِطْفاءِ نارِها: سَكَّنَ فُلانٌ الفِتْنَةَ أَوِ الحَرْبَ:

5-5: و ــــ الفِتْنَةَ أَوِ الحَرْبَ أَوْ نَحْوَهُما: أَخْمَدَها وأَطْفَأَها.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قـالَ أبـو سُـفْـيـان بْـنُ حَـرْب (11هـ=632م) حِينَ عَلِمَ بِوفاةِ النَّبيِّ ﷺ وخِلافَةِ الصِّدّيق:

"إنّي لَأَرى أَمْرًا لا يُسَكِّنُهُ إلّا الدَّمُ".

البلاذري، أنساب الأشراف. تح: زكّار وآخر، ج: 5، ص: 1862.

ولَمّا كانَ السُّكونُ نَقيضَ الحَرَكَةِ، وكانَتِ الكَلِماتُ تُضْبَطُ بِإحْدى الحَرَكاتِ الثَّلاثِ: الرَّفْعِ والجَرّ والنَّصْب؛ أُطْلِقَ عَلى خُلُوِّ الحَرْفِ مِنَ الحَرَكَةِ: السُّكونُ، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ إمامِ النَّحْوِ الخَليلِ بنِ أَحْمَدَ:

1-9: و ــــ الحَرْفُ (في عِلْمَي النَّحْوِ والصَّرْفِ): خلا مِنَ الحَرَكَةِ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الخَليلُ (ت: 170هـ=787م) :

"الجَزْمُ: الحَرْفُ إذا سَكَنَ آخِرُهُ".

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 6، ص: 73.

والمِسْكينُ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، ويُلْمَحُ فيهِ كُلّ مَعاني السُّكونِ؛ مِنْ قِلَّةِ الحَرَكَةِ النّاشِئَةِ عَنْ قِلَّةِ ذاتِ اليَدِ، وفيهِ مَعْنى الخُضوعِ والذِّلَّةِ عِنْدَ سُؤالِ النّاسِ، وفيهِ مَعْنى السُّكوتِ والهُدوءِ النّاتِجِ عَنْ خُلُوِّ بَيْتِهِ مِنَ الضَّجيجِ الحاصِلِ في بُيوتِ الأَغْنِياءِ، مِنْ طَبْخٍ وعَزائِمَ، أَوْ أَضْيافٍ ووَلائِمَ، ومِنْ ذلِكَ ما حَكاهُ ابنُ الأَعْرابيِّ بِقَوْلِهِ:

1-10: و ــــ فُلانٌ سُكْنًا، وسَكانَةً، وسُكونَةً، ومَسْكَنَةً: صارَ مِسْكينًا.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ ابْنُ الأَعْرابيّ (ت: 231هـ=845م):

"أَسْكَنَ الرَّجُلُ وسَكَنَ إذا كانَ مِسْكينًا، ولَقَدْ أَسْكَنَ". **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الأزهري، تهذيب اللغة. تح: هلالي، ج: 10، ص: 67.

ومِنْ عِباراتِ الدُّعاءِ بِالسُّوءِ عِنْدَ العَرَبِ قَوْلُهُمْ: أَسْكَنَ اللهُ جَوْفَهُ: يُريدونَ صَيَّرَهُ مِسْكينًا؛ إذِ الجَوْفُ وِعاءُ الطَّعامِ، وسُكونُهُ دَليلٌ عَلى خُلُوِّهِ وفَراغِهِ، وما ذلكَ إلّا مِنْ شَظَفِ عَيْشٍ وقِلَّةِ دَخْلٍ.

3-11: **o أَسْكَنَ اللهُ جَوْفَه**: أَفْقَرُهُ وصَيَّرَهُ مِسْكينًا.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الخَليلُ (ت:170هـ=787م) :

"أَسْكَنَهُ اللهُ، وأَسْكَنَ جَوْفَهُ، أَيْ: جَعَلَهُ مِسْكينًا". **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 5، ص: 313.

والعَرَبُ تُسَمّي النَّوْمَ سُكونًا؛ لِأَنَّ الجَوارِحَ فيهِ تَهْدَأُ، والأَعْضاءَ فيهِ تَرْقَأُ، ومِنْ ذلِكَ ما حَكاهُ شَمِر:

1-11: و ــــ سُكونًا: نامَ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ شَمِر (ت: 255هـ=869م) :

"وكُلُّ شَيْءٍ سَكَنَ فقَدْ نامَ". **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الأزهري، تهذيب اللغة. تح: الإبياري، ج: 15، ص: 520.

ولَمّا كانَ المَيِّتُ جُثَّةً هامِدَةً لا حِراكَ فيها ولا حَياةَ، فَلا يَنْبِسُ المَيِّتُ بِبِنْتِ شَفَةٍ، ولا يَرِفُّ لَهُ طَرْفٌ، ولا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ، عُبِّرَ عَنْ حالِهِ تِلْكَ بِالسُّكونِ، ومِنْ ذلِكَ ما حَكاهُ الأَزْهَرِيُّ بِقَوْلِهِ:

1-12: و ــــ: ماتَ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الأَزْهَرِيُّ (ت:370هـ=981م) :

"كُلُّ شَيْءٍ ماتَ فقَدْ سَكَنَ". **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الأزهري، تهذيب اللغة. تح: هلالي، ج: 10، ص: 69.

ومِنْ عِباراتِ الدُّعاءِ بِالمَوْتِ والهَلاكِ عِنْدَ العَرَبِ قَوْلُهُمْ: أَسْكَنَ اللهُ نَأْمَتَهُ، يُريدونَ: أَسْكَنَ اللهُ صَوْتَهُ؛ إذِ النَّأْمَةُ تَعْني: الصَّوْتَ، فَلا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ، كِنايَةً عَنْ مَوْتِهِ.

3-12: **o أَسْكَنَ اللهُ نَأْمَتَهُ**: أَماتَهُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَتِ العَرَبُ (582هـ=1186م، مِنْ شَواهِدِ أَبي موسى المَدينِيِّ) لِمَنْ تَدعو

عَلَيْهِ بِالمَوْتِ:

"أَسْكَنَ اللهُ نَأْمَتَهُ".

المديني، المجموع المغيث. تح: العزباوي، ج: 1، ص: 23.

ولله دَرُّ آياتِ القُرْآنِ ما أَسْماها، وما أَحْلى مَعانيها وما أَزْكاها، حينَ تُعَبِّرُ عَنِ المَحَبَّةِ والوِئامِ والتَّوافُقِ والانْسِجامِ الحاصِلِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِلَفْظِ ﴿لِّتَسْكُنُوا﴾؛ لِيَدُلَّ عَلى مَدى الأُنْسِ والطُّمَأْنينَةِ الَّتي تَسودُ أَرْجاءَ ذلِكُمُ البَيْتِ المُطْمَئِنِّ، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعالى:

1-13: و ـــــ إلى فُلانٍ أَوْ غَيْرِهِ، ولَهُ: اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وأَنِسَ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللهُ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ (الأعراف:189)

والصَّلاةُ روحُها الخُشوعُ، ولُبُّها الخُضوعُ، وكُلَّما خَفَّتِ الحَرَكاتُ؛ أَقْبَلَ القَلْبُ بِحُضورِهِ، وأَذْعَنَتِ الجَوارِحُ يَكْسوها التَّبَتُّلُ والطُّمَأْنينَةُ، وما ذلِكَ إِلّا جَرّاءَ السُّكونِ الباعِثِ عَلى الطُّمَأْنينَةِ والخُشوعِ، ولِذا سَمّى النَّبِيُّ ﷺ الخُشوعَ سُكونًا بِقَوْلِهِ:

1-14: و ـــــ في الصَّلاةِ: خَشَعَ فيها.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ النَّبِيّ ﷺ (ت: 11هـ=632م) يَصِفُ قَوْمًا رآهُمْ رافِعينَ أَيْدِيَهُمْ فِي الصَّلَاةِ:

«ما لَهُمْ رافِعِينَ أَيْدِيَهُمْ كَأَنَّهُمْ أَذْنابُ الخَيْلِ الشُّمُسِ، اسْكُنُوا فِي الصَّلاةِ».

مصنف عبد الرزاق، تح: الأعظمي، ج: 2، ص: 251.

ومِنَ الفَأْلِ الحَسَنِ، وحُسْنِ اخْتيارِ اللَّفْظِ؛ تَسْمِيَةُ مَكانِ الإِقامَةِ ومَوْضِعِ الاسْتِقْرارِ ومَكانِ النُّزولِ: (سَكَنًا)؛ تَفاؤلاً بِما يَكونُ فيهِ مِنَ الهُدوءِ والاسْتِقْرارِ ورَغَدِ العَيْشِ وطيبِ المُقامِ، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ -تَعالى- يَذْكُرُ خَبَرَ آدَمَ وحَوّاءَ عَلَيْهِما السَّلامُ:

1-16: و ـــــ فُلانٌ وغَيْرُهُ المَكانَ، وبِهِ، وفيهِ سَكَنًا، وسُكْنى، وسُكُونًا: أَقامَ فيهِ واسْتَوْطَنَهُ. فهو ساكِنٌ (ج) ساكِنونَ، وسُكّانٌ، وسَكَنَةٌ، وسَكْنٌ. وهِيَ بِتاءٍ (ج) ساكِناتٌ، وسَواكِنُ، وسواكينُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللهُ:

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:35)

ومِنْ بَديعِ العِباراتِ، وجَميلِ التَّعْبيراتِ، قَوْلُهُمْ لِمَنْ ذَهَبَ غَضَبُهُ وهَدَأَتْ نَفْسُهُ: سَكَنَتْ ريحُ فُلانٍ، وكَأَنَّ الغَضَبَ ريحٌ تَعْصِفُ بِقَلْبِهِ وعَقْلِهِ فتَجْعَلُهُ يَتَصَرَّفُ بِاضْطِرابٍ وتَصْدُرُ عَنْهُ حَرَكاتٌ هَوجاءُ، ومِنْ ذلِكَ ما رَواهُ العَسْكَرِيُّ في جَمْهَرَةِ الأَمْثالِ بِقَوْلِهِ:

1-17: o سَكَنَتْ ريحُ فُلانٍ: ذَهَبَ غَضَبُهُ وطابَتْ نَفْسُهُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالت العَرَبُ (394هـ=1004م، مِنْ شَواهِدِ أَبي هِلالٍ العَسْكَرِيِّ) لِمَنْ يهْدَأَ بَعْد غَضَبٍ:

"سَكَنَتْ ريحهُ، وإنَّهُ لَساكِنُ الريح".

العسكري، جمهرة الأمثال. تح: عبد السلام وآخر، ج: 1، ص: 425.

وبَعْدَ هذا التَّطْوافِ والعَرْضِ الموجَزِ يَتَبَدّى لَنا جَلِيًّا عُمْقُ الجذْرِ (س ك ن) وما حَواهُ مِنْ دَلالاتٍ، وهذا نَزْرٌ يَسيرٌ مِمّا سَمَحَ بِهِ المَجالُ، وأَمْكَنَ تَضْمينُهُ في مَقالٍ، وإِلّا فَهذا الجذْرُ لا تَحْوي مَعانيهِ الكَراريسُ، بَلْ تَنوءُ بِحَمْلِها القَراطيسُ، ما يَحْدونا لِمُطالَعَتِهِ، ويَدْعونا لِتَفَيُّؤِ ظِلالِهِ ومُدارَسَتِهِ، والتَّلَذُّذِ بِمَعانيهِ، والتَّفَكُّرِ في اشْتِقاقِ مَبانيهِ، وهذِهِ دَعْوَةٌ لِلعَوْدَةِ إلى ذلِكُمُ السِّفْرِ الجَميلِ، والكَنْزِ اللُّغَوِيِّ الجَليلِ، مُعْجَمِ تُراثِ الأُمَّةِ اللُّغَوِيِّ، مُعْجَمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ التّاريخيِّ، الَّذي يَحْوي مِنْ مُلَحِ الفَوائِدِ، ودُرَرِ الفَرائِدِ، ما يَقْصُرُ عَنْهُ البَيانُ، ويَكِلُّ عِنْدَهُ اللِّسانُ، ويَحارُ في بَديعِ مُحْتَواهُ الجَنانُ.

تحليل مضمون الخطاب في دلالة مدخل (بَسَطَ)

من المعجم التاريخي للغة العربية

لكلِّ شيءٍ ميزانٌ في اللّغةِ؛ والكلامِ العربيِّ، نظمًا ونثرًا، يَحتكمُ إلى مَناطاتٍ تَوْزينيّةٍ مُختلفةٍ تُشكّلُ سببًا لجمَاليتِه وحسنِ تقبّلِه؛ فلِلحُروفِ ميزانٌ صوتيٌّ يَدرأُ عنها التَّكلُّفَ والاستثقالَ، ولِلألفاظِ ميزانٌ صرفيٌّ يصرِفُ عنها التّعقيدَ، وللشّعرِ ميزانٌ عروضِيٌّ تُوزنُ به الأبياتُ، وأساسُه نظامُ التّفعيلةِ الذي رسَمَه الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ، كما أنَّ للبلاغةِ ميزانًا دلاليًّا يقومُ على التّفعيلِ المَجازيِّ للّغةِ، ويستندُ إلى جملةٍ من المبادئِ التّخييليّةِ، أبْرَزُها: الاستعارةُ المفهوميّةُ أوِ التّصوُّريّةُ.

والاستعارةُ بمفهومِها الجديدِ آليةٌ ذهنيّةٌ تَرتبطُ ارتباطًا وثيقًا بالذِّهنِ، وتقومُ على فهْمِ مَجالٍ تَصوُّريٍّ مُعيّنٍ انطلاقًا من مجالٍ تصوُّريٍّ آخرَ تكونُ لدينَا غالبًا مَعرفةٌ سَابِقَةٌ بِه، فيُسمَّى الأوّلُ مجالاً هدفًا، ويُدعَى الثّاني مَجالاً مصدرًا.



أ. د. بكري محمد الحاج
رئيس مجمع اللغة العربية السوداني بالخرطوم

جاءت هذه الورقة لتحليل مضمون الخطاب في دلالة أحد مداخل المعجم التاريخي للغة العربية .ووقع الاختيار على عينة من الجزء السابع من الطبعة الأولى التي أصدرها اتحاد المجامع اللغوية العربية، ومجمع اللغة العربية بالشارقة عام 1443هـ/2021م، من حرف الباء، تمثلت في الدلالة الأولى من المدخل الأول من الجذر (ب س ط) الذي يقع في 42 صفحة (1). والدلالة عينة البحث هي الأولى من هذا المدخل، وتبلغ معانيها خمسة عشر معنى، استشهد لها بخمسة وأربعين شاهدًا.

وتهدف الورقة إلى إبراز جهود اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية؛ ومجمع اللغة العربية بالشارقة لإنجاز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية من ناحية، ومن ناحية أخرى ترمي الورقة- من خلال الدراسة التطبيقية- إلى التعريف الموجز بالمنهج العلمي(2)، الذي مكَّن من إنجاز سبعة وستين مجلدا منه، قام بإطلاقها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة حفظه الله ابتداء من عام 2021م.

وقد افترض البحث أن الشروع في إنجاز المعجم التاريخي من خلال ظهور بعض مجلداته النهائية يمثل نجاحا للمجامع اللغوية العربية في تحقيق بعض أهدافها، بفضل الدعم والرعاية من سموه، وتآزر المجامع والمراكز البحثية، واستخدام التقنية الحديثة التي مكَّنت من تخطي التحديات التي أقعدت الأمة العربية في تاريخها الطويل عن إنجاز معجم تاريخي للغة العربية.

دراسة بعض شواهد العينة:

هذه الشواهد عينة البحث عبارة عن نصوص لغوية تحمل رسالة من مرسل إلى مخاطب، وتُعَدُّ بالتالي خطابا محملاً بمضامين لغوية، مصوغة بأشكال لغوية مترابطة لفظيًا ودلاليًا، بفضل عناصر الربط اللفظية منها، والمعنوية، فضلا عن السياق، وسيتكفل البحث ببيان مظاهر الاتساق في هذه المدونة اللغوية، والوقوف عند أهم الروابط التي تحقق تماسك النص واتساقه، من خلال ثلاثة شواهد من الدلالة الأولى من

جملة سبعة شواهد بوصفها عينة لهذا البحث، وقد أوردها المعجم في المدخل الفعلي(بَسَطَ) من الجذر(ب س ط) (3).

وقد بيَّن المعجم التاريخي هذه الدلالة بقوله:« بَسَطَ(بفتح السين) فُلانٌ يَدَهُ يَبْسُطُ(بضم السين) بَسْطًا: مَدَّها مَنْشورَةً»(4)، ويوافق معني هذه الدلالة المعاني الكلية للجذر الذي ذكر المعجم أنَّ من معانيه الانتشار، والامتداد(5). ويلاحظ أن المعجم قد ضبط عين الفعل(بسط)، في الماضي والمضارع ضبطَ حركة وعبارة، وذَكَـرَ المصدرَ بعدهما؛ لكونه فعلاً ثلاثيًا، وقد جاء هذا وفق ما نص عليه المنهج العلمي للمعجم التاريخي(6). ويتناول البحث دراسة الشواهد الثلاثة بناءً على منهج تحليل الخطاب الذي:« هو أحد مستويات الدرس اللغوي الذي يحاول تحليل الظاهرة اللغوية علي مستوي يتجاوز مستوي الجملة أو التفوه...» (7)، وذلك على الوجه الآتي:



الشاهد الأول:

من عصر ما قبل الإسلام لذي الإصبع العدواني (22 ق هـ =602م) يقول:(8)

وابْسُطْ يَـمينَـكَ بالنَـدى
وامْـدُدْ لهـا بـاعـاً طَـويـلا

وهذا النص هو وصية من ذي الإصبع العدواني لابنه أُسَيْد، وتجلت فيها حكمة الشيوخ وغيرة الآباء على أبنائهم، وبيان الطريق إلى السيادة والمجد لما احتضر ذو الإصبع العدواني(9)، ويقول في مطلع القصيدة:

أأُسَـيْدُ إنَّ مـالاً مَـلَكْ
تَ فَسِرْ بِه سَيْرًا جَميلا
آخِ الكِـرامَ إِنِ اسْـتَطَـعْ
تَ إلى إخائِهِمُ سبيلا

ويتضح من هذا الاستهلال للقصيدة، ومن البيت موضع الشاهد أن المقام مقام إزجاء للحكمة من شيخ مُعَمَّر على أعتاب مفارقة الدنيا، حريصٍ أن يزود ابنه أسيدًا بنصائح وتجارب مما اكتسبه في حياته الطويلة.

والعناصر اللفظية- التي حققت التماسك لهذا الخطاب الموجه من الأب لابنه- تمثلت في الضمائر البارزة والمستترة، وواو العطف، وتحقق الانسجام الدلالي بالترابط بين الصفة والموصوف في العبارة الوصفية (باعاً طويلا)، فضلا عن الترابط بين المسند والمسند إليه والمكمل في الشطر الأول في جملة (ابسط يمينك) وكذلك بين المسند والمسند إليه والمكمل في الشطر الثاني من البيت في قوله:(امدد لها باعا طويلا).

وقد أدى التماسك اللفظي والانسجام الدلالي في هذا الشاهد- الذي هو خطاب بين مرسل ومتلقٍّ- إلى تمكين الشاعر ذي الإصبع من التعبير عن رسالته الأبوية المترعة بالحكمة، الحريصة على تزويد ابنه بما يعينه في حياته، ويفيده

في تعامله مع أفراد مجتمعه. وقد نقلت هذه الرسالة اللغوية إلى المخاطب بصورة مبدعة.

الشاهد الثاني:

قوله تعالى:(لَئِنْ بَسَطتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إني أَخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ) (10).وأتى هذا الشاهد لهذه الدلالة ضمن ثلاثة شواهد استدعاها المعجم التاريخي دليلاً على استخدامها في العصر الإسلامي. والشاهد في شأن الرجل الصالح مع أخيه الذي توعَّده بالقتل على غير ما ذنب منه: «لَئِنْ بَسَطتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أَنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ)،أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله؛ فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة» (11)، «وليس ذلك جبنًا، ولا عجزًا، وإنما ذلك لأني أخاف الله رب العالمين... وفي هذا تخويف لمن يريد القتل»(12).

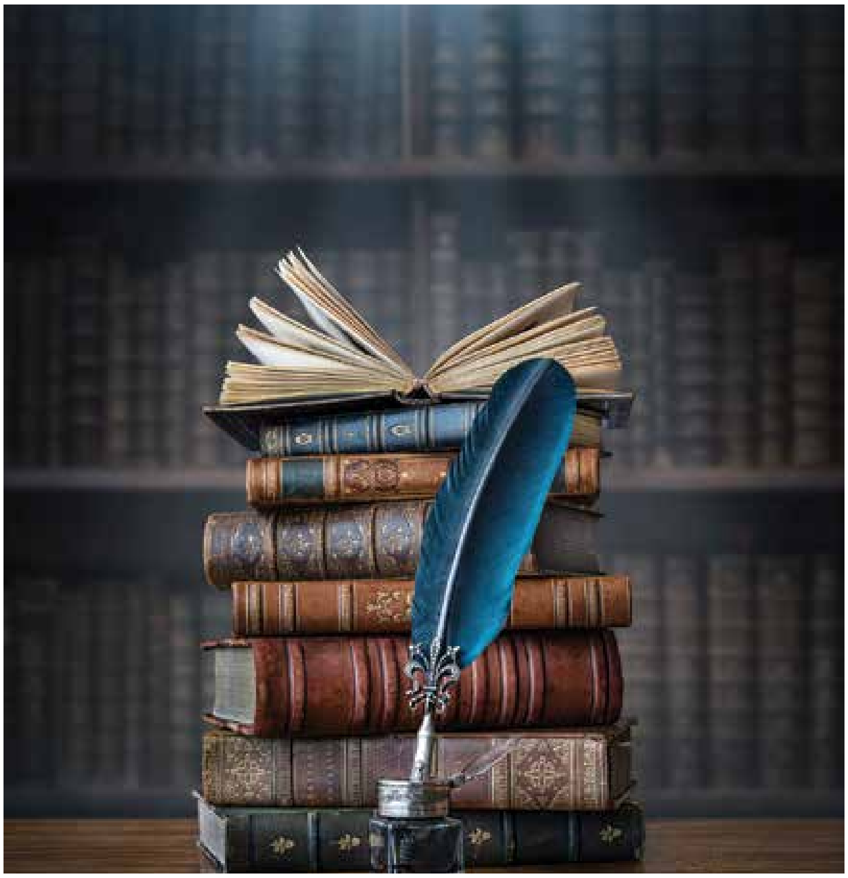
وقد ضَبَطَ المعجم هذا الشاهد بالشكل التام، كما وُثِّق له بذكر وروده في سورة المائدة، وبَيَّن تاريخه الهجري مقرونا بالتاريخ الميلادي، وأتت صيغة الفعل الماضي(بسط) في الشاهد متوافقةً مع الدلالة العامة للجذر في معناها ولفظها.

وتمثلت العناصر التي حققت التماسك اللفظي لهذا النص في الضمائر البارزة والمستترة: المتصلة والمنفصلة التي ترابطت بما تعود عليه، فضلا عن الترابط المعجمي بين كلمتي (بسط ، وباسط) وهو ضرب من التضام (13). وتحقق التضام أيضا بين كلمتي (تَقْتُلُ وأَقْتُلُ). ويضاف إلى هذا تحقُّقُ الترابط المعجمي بالتكرار لكلمة (اليد) المضافة إلى الضميرين، والتكرار ضرب من الترابط المعجمي(14)، في حين تجسَّد الانسجام الدلالي بالترابط بين المسند والمسند إليه والمكمل في عدد من الجمل الفعلية، من بينها:(بسطتَ إليَّ يدَك)، فضلا عن الترابط الدلالي بين البدل والمبدل منه في عبارة (الله رب العالمين) .

وقاد التماسك اللفظي، والانسجام الدلالي في هذه الآية الكريمة إلى حمل رسالة المولى سبحانه وتعالى إلى عباده في شأن الأخوين اللذين قتل أحدهما الآخر؛ تخويفًا من الإقدام على هذه الكبيرة.

الشاهد الثالث: من العصر الحديث

قال الأمير عبد القادر الجزائري (1301هـ=1883م) يمدح السلطان العثماني عبد المجيد ويدعو له(15):



حرصَ المعجم التاريخي على الشواهد الاستعمالية دون التعويل على الشواهد المعجمية

اعتنى المعجم التاريخي بتوثيق الشواهد وخدمتها بالتمهيد لها وتحديد قائلها الأول وتاريخ وفاته وبيان مصادرها

يا رَبِّ فاشْدُدْ على الأَعْداءِ وَطْأَتَهُ
واحْفَظْ حِماهُ وَزِدْهُ مِنْكَ إِجْلالا
وأَظْهِرَنْ حِزْبَهُ في كُلِّ مُتَّجَهٍ
وسَدِّدَنْ مِنْهُ أَقْوالاً وأَفْعالا
وابْسُطْ يَدَيْهِ على الغَبْراءِ قاطِبَةً
وذَلِّلَنْ كُلَّ مَنْ في الأَرْضِ إِذْلالا

هذه أبيات من قصيدة للشاعر في مدح السلطان عبد المجيد بعد عودة الشاعر من منفاه من الشام؛ بسبب معارضته للاستعمار، وكان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطلق شرعي. يقول في مستهل القصيدة:

يا ربِّ يا ربَّ الأنام ومن
إليه مفزعنا سراً وإعلانا
يا ربِّ أَيِّدْ بروحِ القُدْسِ ملجأَنا
عَبدَ الحميدِ ولا تُبْقيهِ وَجْلانا

وقد حظي الشاهد بالضبط التام من قبل المعجم، ومَهَّد له؛ مبينًا أنه في مدح السلطان والدعاء له، والمخاطب هنا هو المولى سبحانه وتعالى. والعناصر اللفظية التي حققت التماسك لهذا الخطاب، تمثلت في ياء النداء، وواو العطف، والضمائر البارزة والمستترة، التي تحيل إلى ما تعود إليه إحالة قبلية، فضلا عن التضام الذي تحقق بفضل المقابلة بين أفعال الدعاء (اشدُدْ،احفظ،زِدْ،أَظْهِرْ،سَدِّدْ،ابْسُطْ،ذَلِّلْ) وقد اتصلت نون التوكيد الخفيفة بثلاثة منها ؛ مُكْسِبَةً إياها مزيدًا من التقوية لمضمونها على نحو يتجاوب مع سياق الدعاء.

وأما الانسجام الدلالي فقد احتشدت لتحقيقه عناصر متعددة في النص، منها الترابط بين المسند والمسند إليه والمكمل في هذه الجمل الفعلية السبعة التي فاعلها لفظ الجلالة، فضلا عن الترابط بين المعطوف والمعطوف عليه في عبارة (أَقْوالاً وأَفْعالا)، وكذلك التوكيد في عبارة(الغَبْراءِ قاطِبَةً)، ويضاف إلى ما تقدم الانسجام الدلالي الذي تحقق بفضل الترابط بين الفعل(ذَلِّلْ) والنائب عن المصدر(إذلالا).

وقد مكَّن التماسك اللفظي والانسجام الدلالي في هذا النص، من تجسيد رسالة الشاعر المخاطب بها رب العباد، على نحو راق ومبدع، يمثل الإمكانات التعبيرية الواسعة المتنوعة التي تتميز بها اللغة العربية.

خاتمة:

كشفت هذه الورقة عن حِرْص اتحاد المجامع اللغوية على وضع منهج علمي للمعجم التاريخي مَكَّن من السير في صناعته وفق ضوابط علمية محكمة. وجاءت الشواهد السابقة عماد هذا البحث جميعُها حيَّةً؛ مما يؤكد حرص المعجم التاريخي على هذه الشواهد الاستعمالية، دون التعويل على الشواهد المعجمية. ومن ناحية أخرى أثبتت الورقة عناية المعجم التاريخي بتوثيق الشواهد، وخدمتها؛ بالتمهيد لها، وتحديد قائلها الأول، وتاريخ وفاته، وبيان مصادرها، فضلا عن بيان استمرار دلالة اللفظ عينة البحث في العصور التاريخية الخمسة.

المصادر والمراجع:

* تفسير السعدي(عبد الرحمن بن ناصر)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المكتبة الرابعة، الكويت 1420ع/2000م.
* تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420ه/1999م.
* الدليل العلمي المعدل:اتحاد المجامع اللغوية العربية لعام 2021م
* ديوان ذو الإصبع تحقيق وجمع عبد الوهاب العدواني، مطبعة الجمهور ، الموصل 1393ه/1973م.
* ديوان عبد القادر الجزائري تحقيق العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر 2007م
* المعجم التاريخي للغة العربية، اتحاد المجامع اللغوية العربية ومجمع الشارقة، منشورات القاسمي، الشارقة1442ه/2021م. 1443ه/2021م.
* مقدمة في اللغويات المعاصرة، شحدة فارع وآخرون، دار وائل للطباعة والنشر ط،1، 200م.
* من صفحة على الشابكة وتسجيل بصوت شفيق الزهر.
* نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، لأحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة 2001م.
* Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan; Cohesion in English; Longman, New York; 1976.

الأبْعَادُ التَّعليمِيّةُ للمُعْجَمِ التَّارِيخِيِّ للُّغَةِ العَرَبِيّةِ

لقد أضحَى منَ المُسلَّم به في مجال تَعلُّم اللّغاتِ وتعليمِها القولُ إنّ مُتعلمَ لغةٍ أجنبيةٍ، لابدَّ أن يستعينَ من حينٍ لآخرَ بمُعجم تلك اللّغة، كيفما كانت طبيعةُ هذا المعجم؛ ذلك أنّ استعمالَ لُغةٍ، أيِّ لغةٍ، يستلزمُ بدرجةٍ أُولى، اكتسابَ قدْرٍ مُعيّن من مُفرداتِها الأكثر تداوُلًا، وكلّما اغتنَى الرّصيدُ المُعجميُّ للمُتعلّم تقدّمَ في تعلّمِها، واستطاعَ التّعبيرَ عن مختلفِ حاجياته اليوميّة، والتّواصلَ على نطاقٍ واسعٍ. بَيْدَ أنّنا نلاحظُ مفارقةً مثيرةً للانتباهِ في مجالِ تعليمِ اللّغةِ العربيّةِ وثقافتِها؛ إذْ بَيْنَما يُضْطَرُّ المُتعلّمُ العربيُّ للغةٍ أجنبيةٍ إلى استِقْصاءٍ من حينٍ لآخرَ معاجمَ تلك اللّغة، ورقيةً كانت أم إلكترونيّة، عِنْدَما تَعْتَرِضُهُ مفردةٌ غامضةٌ، فإنّه في الوقت نفسه، يكادُ لا يُعيرُ أيَّ اهتمامٍ لمُعجمِ لغتِه العربيّة؛ ولعلّه يصدُرُ في ذلك عن فكرةٍ مُفادُها أنَّ اللّغةَ العربيّةَ لغتُه الأمُّ، وهو يعرفُها بالسّليقةِ، ومن ثَمّ فهو في غِنًى عنِ البحث عن معاني مفرداتِها.

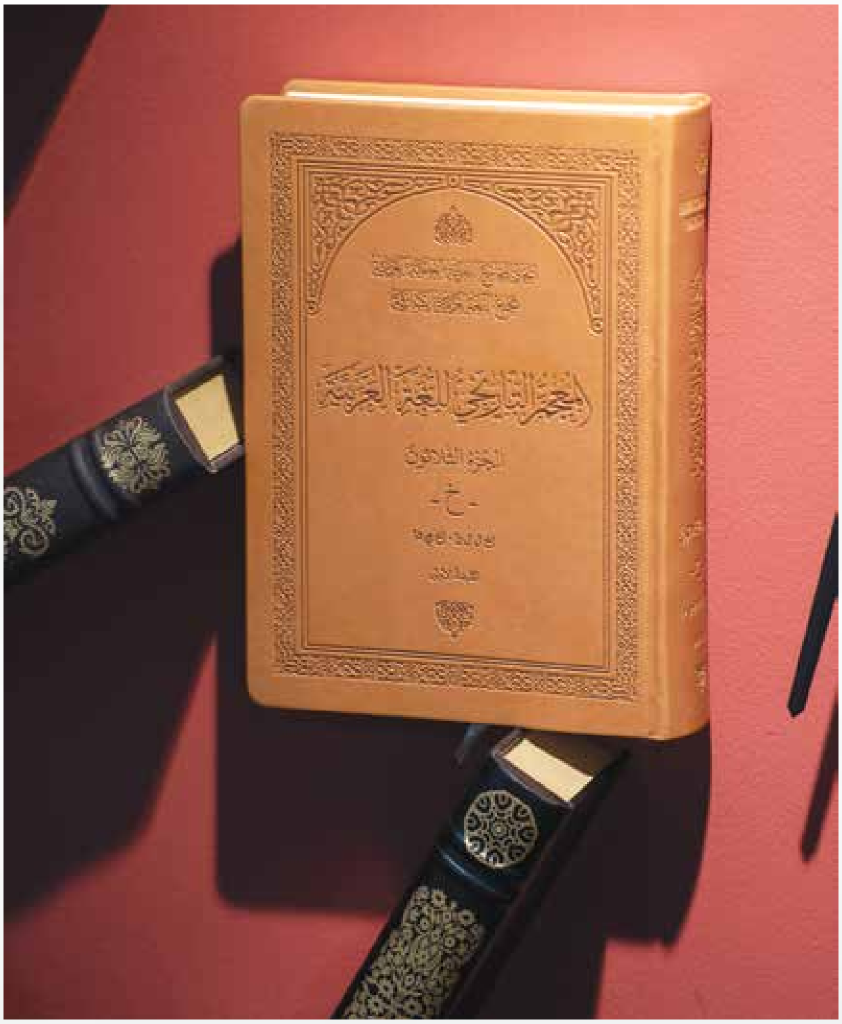


عماد الفزازي
باحث دكتوراه/جامعة محمد الخامس-المغرب

والحقيقةُ أنَّ هذه الفكرةَ، إذا كانت تبدو منطقيّةً في ظاهرِها، فإنَّها خاطئةٌ في جوهرِها، ذلك أنَّ المتحدّثَ العربيَّ لا يعرفُ كلَّ مفرداتِ لغتِه، وذلك لاعتباراتٍ عديدةٍ، من بينها: أوّلًا: لأنَّ اللّغةَ مُستوياتٌ؛ (العربيّةُ الكلاسيكيّةُ، العربيّةُ المعيارُ، اللّهجاتُ)، فإذا تمكّنَ من معرفةِ مستوًى لُغويٍّ معيّنٍ غابت عنه، في الغالبِ، مُستوياتٌ أخـرَى؛ وثانيًا: لأنّ الكلمةَ الواحدةَ قد تأخذُ أكثرَ من معنًى، وتختلفُ دلالتُها باختلافِ سياقاتِ استعمالِها؛ وثالثًا: إنَّ المعجمَ ليس مجرّدَ كتابٍ لشرح المفرداتِ، بل إلى جانبِ وظيفةِ الشّرح، يضطلعُ بوظائفَ أخرى على قدرٍ كبيرٍ منَ الأهميّة، منها تقديمُ معلوماتٍ صرفيّةٍ، ونحويّةٍ، وتاريخيّةٍ، وثقافيّةٍ.

لكلِّ هذه الاعتباراتِ، وغيرِها، باتَ منَ الضّروريِّ اعتمادُ المُعجمِ وَسيلةً أساسيَّةً لتعليم اللّغةِ وثقافتِها. ومن أجلِ التّدليلِ على الكفايةِ التّعليميّةِ للمُعجمِ العربيِّ، فإنّنا نصدرُ في هذا البحثِ من فرضيّةٍ أساسيّةٍ هي: أنَّ نشاطَ تصفُّحِ المتعلّمِ للمُعجمِ الإلكترونيِّ التّاريخيِّ بشكلٍ تلقائيٍّ سيحصّلُ لديه مجموعةً منَ الفوائدِ المنهجيّةِ واللّغويّةِ والثقافيّةِ. ممّا يُساعدُه في تعلّمِ اللّغةِ العربيّةِ وثقافتِها. وهذا الافتراضُ جاء بناءً على إشكاليّةٍ مطروحةٍ في الدّراساتِ المُعجميّةِ الحديثةِ هي: كيف يُمكنُ للمُعجمِ أن يُعلّمَ اللّغةَ العربيّةَ وثقافتَها؟

للإجابةِ عن هذا السؤال، سوفَ نتصوّرُ مُتَعلِّمًا استشارَ مُعجمًا إلكترونيًّا، وَلْيَكُنْ هَذَا المُسْتَشَارُهُوَ المُعْجَمَ التّاريخِيَّ للّغةِ العربيّةِ بالشّارقةِ في موقعه على الشّابكةِ (www.almojam.org) فوقعتْ عيناه على جذرٍ لُغويٍّ ما، ليَكُن هذا الجذرُ هو (حَ بَ بَ) الذي ينْتظِمُ تحت حرفِ (الحاء). لا رَيبَ أنَّ فضولَه المُعجميَّ سيدفعُه إلى القيامِ بجولةٍ قصيرةٍ سيكتشفُ خلالَها مجموعةً منَ المعلوماتِ المُتنوّعة، والتي من شأنِها إغْنَاءُ رصيدِهِ المُعجميِّ. تلك النّماذجُ المختارةُ، التي سنشرعُ في تحليلِها بعد قليلٍ، لعلّها كافيةٌ للتّدليل على حُجِّيَّة المُعجمِ وأهميّتِه في تعليم اللُّغةِ العربيّةِ وثقافتِها. وإنّنا نرَى أن نُقدّمَ النّماذجَ التّحليليّةَ على شكلِ نشاطٍ تطبيقيٍّ؛ بحيث يعيشُ معنا القارئُ تجربةَ "السّفر" في مدخلٍ واحدٍ، وجذرٍ لُغويٍّ واحدٍ، فيكتشفُ، بنفسه، الفوائدَ التي يمكنُ أن يَجْنيها المُطّلعُ على المُعجمِ، لعلّها تكونُ حافزًا له على الاستمرارِ في مطالعةِ مداخلَ مُعجميّةٍ أخرى، وتحصيلِ مزيدٍ منَ الفوائدِ اللُّغويّةِ والثّقافيّةِ الجَمّةِ.



إنَّ المعجمَ ليس مجرّدَ كتابٍ لشرحِ المفرداتِ، بل إلى جانبِ وظيفةِ الشّرحِ، يضطلعُ بوظائفَ أخرى على قدرٍ كبيرٍ منَ الأهميّةِ، منها تقديمُ معلوماتٍ صرفيّةٍ، ونحويّةٍ، وتاريخيّةٍ، وثقافيّةٍ

أوّلًا: دراسةٌ وصفيّةٌ لِلْمُعْطَيَاتِ المُعجميّةِ

إنَّ معالجتَنا للعيّناتِ المدروسةِ منَ المداخلِ المُتعلّقةِ بجذرِ (حَ بَ بَ)، ستتمُّ من زاويتَيْن: من حيث الشّكلُ، ومن حيث المحتوَى. نقصدُ بالشّكلِ كلّ العناصرِ التي يلتزمُ بها المُعجمُ في إخراجِه، ويَهتدِي بها المستعمِلُ، في سياقِ بحثِه عن كلمةٍ ما، عن طريقِ الملاحظةِ البصريّةِ، ونعني بالمُحتوَى مُجملَ المُعطيَاتِ التي يكتشفُها قارئُ المُعجمِ عن طريقِ القراءةِ الفاحصةِ للمَتنِ.

معلومٌ أنَّ أوّلَ مُستوًى من مستوياتِ قراءةِ أيِّ نصٍّ هو الملاحظةُ البصريّةُ لشكلِهِ الخارجيِّ ومختلفِ عناصرِه السيميائيّةِ، إذ إنها تُكوِّنُ الانطباعَ الأوّلَ لدى القارئِ حولَ المقروءِ، فيشكّلُ ذلك استعدادًا أوّليًّا لمواصلةِ القراءةِ، وتصوّرًا مبدئيًّا يساعدُه على فهمِ المُحتوَى، ومن ثمّ فإنَّ عرضَ مادّةِ المُعجمِ التّاريخيِّ للّغةِ العربيّةِ في صيغتِه الإلكترونيّةِ، وتوزيعَها حسبَ ترتيبِ الجذورِ اللّغويّةِ للكلمةِ، وترقيمَها، ثمّ تمْييزَها باللّونِ الأحمرِ، زِيادَةً على وضعِ خطٍّ أحمرَ (______) بدلَ إيرادِ الكلمةِ نفسِها، إذا كانت لها أكثرُ من دلالةٍ، تفاديًا لإثقالِ متْنِ المُعجمِ بالتّكرارِ، وكذا الاهتمامُ بالإخراجِ الفنّيِّ الجميلِ. كلُّ ذلك إشاراتٌ بصريّةٌ تَلْفِتُ انتباهَ المتعلّمِ وتثيرُ في ذهنِه فكرةَ الاتّساقِ والدّقّةِ والتّرابطِ بين العناصرِ، ومِنْ ثَمَّ تُسْهِمُ في إشاعةِ النّظامِ والرّوحِ العلميّةِ بين المُتعلّمين.

وتُعدّ صفةُ التّنظيمِ من أهمِّ صفاتِ التّفكيرِ العلميِّ، وهي صفةٌ منهجيّةٌ يُقصدُ بها "أنّنا لا نتركُ أفكارَنا تسيرُ حرّةً طليقةً، وإنّما نرتّبُها بطريقةٍ محدّدةٍ، ونُنظّمُها عن وعي، ونبذلُ جهدًا مقصودًا من أجل تحقيقِ أفضلِ تخطيطٍ ممكنٍ للطّريقةِ التي نفكّرُ بها»".

إنّ تمثُّلَ المُتعلّمِ فِكْرَةَ التّنظيمِ التي يُعلّمُه إيّاها المعجمُ، لا بدَّ أنَ تُساعدَه على تنظيمِ ليس طريقةَ تفكيرِه، ونشاطِهِ العقليِّ فحسب، بل ستساعدُه على تنظيمِ حياتِه ومحيطِه

الخارجيِّ أيضًا.

ونظرًا لِما يتضمّنُه المعجمُ من معلوماتٍ غزيرةٍ ومتنوّعةٍ، فإنّنا نفترضُ أنَّ المتعلّمَ لن يغادرَ موقعَ المعجمِ إلّا وقد حصّلَ ما يأتي:

إنّ أوّلَ ما يكتشفُه المتعلّمُ هو أنّه قد ورد الجذرُ (حَ بَ بَ) في عدد مِنَ النّقوشِ العربيّةِ الجنوبيّةِ، من بينِها نقشٌ سَبَئِيٌّ يعودُ تاريخُه إلى القرن الثّالث ميلادي (إرياني 16/1)، ورد فيه الاسمُ (ح ب ب hbb) أي: (مُحِبٌّ أو صاحب)، فجاء في النّقش: "و ب ن/ب ت ع/ م ح ب ب ت/ ي ف ر ع" أي: "وبنو بتع أصحابُ بني يفرع". (الإرياني، 1990م :122-123).

وسوفَ يَعرِفُ المُتعلّمُ أنّ للكلمة معنًى في النّظائر السّامية؛ إذِ احتفظت السّاميّاتُ بهذا الجذرِ منَ العربيّةِ الأمِّ، فقد وردَ الجذرُ (ح ب ب):

في الآرامية: ورد الفعلُ (حببڤ) habbeb بمعنى (ودّ/ مال إلى) ويُوافقُ الفِعْلَ العَرَبِيَّ (أحبّ) مبنًى ومعنًى. وكذلك الأمرُ بالنّسبةِ إلى باقي النّظائرِ السّاميةِ منَ اللّغات، حيث معنى (أحبّ) يتكرّرُ ورودُه، بالمعنى ذاتِـه، في الأوجاريتيّةِ، والعبريّةِ، والسّريانيّةِ، والجعزيّةِ .

ثمّ ينطلقُ المُعجمُ التّاريخيُّ في سردِ المعاني الكليةِ لجذرِ (حَ بَ بَ) ويذكرُ منها ثلاثةً: (1. اللّزومُ والثَّباتُ. 2.الحبَّةُ منَ الشّيء. 3. المحبَّةُ والمودَّةُ).

ويحصُرُ المُعجمُ عددَ الكلمات الإجماليَّ لمدخلِ (ح ب ب)، التي وقفَ عليها المُحرِّرُون، في (31) كلمةً. ثم يشرعُ في شرحِها بشكلٍ متواترٍ.

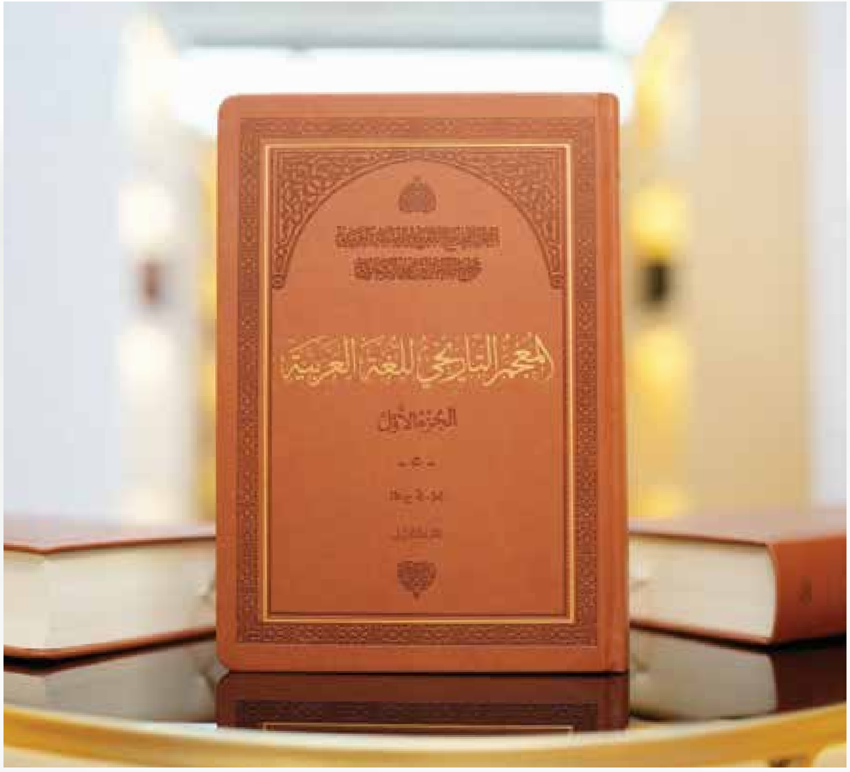
ولعلّ المتعلّمَ، وهو مُستغرقٌ في قراءة المعاني المُتعلّقةِ بهذا المدخلِ، لن يغادرَه إلّا وقد أغنَى مخزونَه اللُّغويَّ والثّقافيَّ. فيفهمُ، مثلا، أنَّ: (*حَبّ): (كضَرَبَ) فلانٌ يَحِبُّ (بكسر الحاء) حَبًّا: وقَفَ. وأنَّ استخدامَ هذه الكلمةِ بمعنى (وَقَفَ) يرجعُ تاريخيًّا إلى (ع = العصرُ العباسيّ) (133هـ/750م) (656هـ/1258م). ويُعزّزُ المتصفِّحُ ثقافتَه عَنْ هذا المعنى من خلال شاهدٍ من كتابِ (تهذيب اللّغة للأزهري، تح: عبد الله درويش، ج:4، ص: 8.) جاء فيه: «قال: ابنُ الأعرابي: «وحَبَّ: إذا وقَفَ». وينصّصُ المعجمُ على أنَّ (هذه الدلالة سجّلتْها المعاجمُ في بقيّةِ العصور). ويوردُ دلالةً أخرى لفعل (حَبَّ) الذي يأتي بمعنى: تَوَدَّدَ. مُستشهدًا بقولٍ لابن الأعرابيّ الذي جاء فيه: "وحبَّ: إذا توَدَّدَ». منَ المرجع ذاتِه. ثم يزيدُ المعنى إيضاحًا بإيراد الفعل (حبّ) في تركيب: «و———— فلانًا يحِبّهُ (بكسر الحاء) حُبًّا وحِبًّا: وَدَّهُ». (ق.س) (480 ق هـ/169م) (1ق هـ/621م).

يُتابعُ المتعلمُ التّطوّراتِ الدّلاليّةَ للفظِ (حَبَّ) عبرَ العصورِ اللّاحقة، فيلْحَظُ احتفاظَ اللّفظ بمعناه الدّالِّ على «الودّ» مع مجيءِ الإسلام، إذ يردُ في القرآن الكريم (1هـ/ 622م)، على قراءة أبي الرّجاءِ العُطارديِّ، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: 31). والمعنى ذاتُه سجّلَه الحديثُ النّبويُّ. قال النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: (أوثقُ عُرى الإيمان: الحُبُّ في الله، والبُغْضُ في الله).

وفي رحلتِه اللّغويّةِ هذه، يكتشفُ المتعلّمُ مختلفَ المُشتقّاتِ المُرتبطةِ بجذر (ح ب ب)، فيتعرّفُ على (حَبّ) بحالاتِها الصّرفيةِ الثّلاثِ في المضارع: (حَبَّ= يحِبُّ بكسر الحاء)، و(حَبَّ= يحَبُّ بفتح الحاء)، و(حَبَّ= يحُبُّ بضمِّ الحاء). وكلُّها تدلُّ على معنى: (صارَ حَبيبًا لهُ). ويتعرّفُ على مركّبٍ لُغويٍّ من (حبَّ+ ذا= حبّذا) والتي تعني: (حبّذا فلانٌ: أي هو حبيبٌ إليّ، صيغةٌ للمدح، مركّبٌ من (حبّ فعل ماض)، و(ذا اسم إشارة فاعل)، وتُطلقُ على المذكّرِ والمؤنّثِ في الإفرادِ والتّثنيةِ والجمعِ، وإنْ أردتَ الذّمَّ قُلتَ: لا حبّذا. وهي الدّلالةُ التي سجّلتْها المصادرُ منذ عصرِ ما

اعتمدَ المعجم التاريخي في منهجيته على تقديم الفعل على الاسم

ينطلقُ المُعجمُ التّاريخيُّ في سردِ المعاني الكليةِ لجذرِ (حَ بَ بَ) ويذكرُ منها ثلاثةً: (1. اللّزومُ والثَّباتُ. 2.الحبَّةُ منَ الشّيء. 3. المحبَّةُ والمودَّةُ)



إنّ تمثُّلَ المُتعلّم فِكْرَةَ التّنظيم التي يُعلّمُه إيّاها المعجمُ، لا بدَّ أن تُساعدَه على تنظيم ليس طريقة تفكيره، ونشاطِه العقليِّ فحسب، بل ستساعده على تنظيم حياتِه ومحيطِه الخارجيِّ أيضًا

قبل الإسلام. قال امرؤ القيس، يمدحُ بني ثُعَل:

وَاثُعَلاً وَأَيْنَ مِنّي بَنُو ثُعَلْ
أَلَا حَبّذَا قَوْمٌ يَحُلُّونَ بِالجَبَلْ

ومن صِيغةِ المبنيِّ للمعلوم، ينتقلُ المتعلّمُ إلى تَعَرُّفِ المبنيِّ للمجهولِ من خلال لفظِ (حُبّ)، و(حُبَّ فلانٌ: صارَ محبوبًا). وهي الدّلالةُ المسجَّلةُ للّفظِ عبْرَ كلِّ العصور. وبعد أن ينتهي من معرفة معانِي الجذرِ (حَ بَ بَ) في الفعل الثّلاثيّ المجرّد، ينطلقُ المتعلّمُ في اكتشافِ معانٍ أخرى في الأفعال المزيدة، فيعرف أنّ (أحبَّ) تأتي بمعانٍ مختلفةٍ، ومنها: (أَحَبَّ البعيرُ: برَكَ وحَرِنَ)، و(يُقالُ: أَحَبَّ البعيرُ: إذا قامَ. ورد هذا المعنى عند ابنِ فارسٍ في مقاييس اللغة)، (وأحَبَّ: أصابَهُ كسرٌ، أو مرَضٌ، فلم يبرح مكانَه، حتى يبرأ، أو يموتَ)، و(أحبَّ الـزَّرْعُ: صارَ فيه الحَبُّ)، و(أَحَبَّ فلانٌ: برئَ من مرضِه، إذ قال ابنُ سيده في المُحكم: والإحبابُ: البرءُ من كلّ مرض)، و(أَحَبَّ فلانٌ فلانًا: ودَّهُ، ومالَ إليه).

يُواصِلُ المُتعلّمُ تتبّعَ الكلمات المتواترةِ فيجدُ فعلاً آخرَ هو (حَابَّ)، و(حَابَّ فلانٌ فلانًا: ودّهُ، وصادَقَهُ). وفعلُ (حبَّبَ) الذي يأتي بمعانٍ مختلفة منها: (حببّتِ القطاةُ ونحوُها: امتلأ بطنُها ريّـا)، و(حببَ اللبنُ ونحوُهُ: ظهرتْ قِطعٌ فيه؛ لفساده)، و(حبَّبَ الشيءَ: نثرَهُ وفرّقَهُ في شكلِ حُبيباتٍ)، (وحبَّبَ الشيءَ إلى فلانٍ: جعَلَهُ محبوبا إليه). وفعل (تحابَّ) الذي يعني (تحابّ القومُ: أحبّ بعضُهم بعضا). و(تحبّبَ) الذي يحمل جملة من المعاني ومنها: (تحبّبَ فلانٌ وغيرُه: امتلأ ريّا)، و(وتحبّبَ الزّرعُ: ظهر فيه الحَبُّ)، و(وتحبّبَ اللّبنُ: تخثّرَ وتقطّعَ)، و(تحبّبَ فلانٌ: أظهر الحُبَّ)، و(تحبّبَ فلانٌ إلى فلانٍ: تودّد إليه). وفعل (استحبَّ) الذي يعني: (استحبّت الإبلُ: إذا أمسكتِ الماء وطال ظِمْؤُها)، و(استحبَّ فلانٌ الشيءَ: أحبّهُ واستحسنه)، و(استحبَّ الشيءَ على غيره: آثرَهُ).

ولأنَّ المُعجمَ التّاريخيَّ قدِ اعتمد في منهجيّتِه تقديمَ الفعلِ على الاسم، فإنّه بعد الانتهاء من سرد الأفعال المتعلّقةِ بجذرِ (ح ب ب) يمضي في ذكر الأسماءِ ومنها: (الاستِحْبَابُ) ويعني: (عند الفقهاء: طلبُ الشّارع للفعل طلبًا غيرَ جازم، وهذا الفعلُ يسمّى مستحبًّا ومندوبًا وتطوّعًا ونـفْلًا). و(حَباب) يدلُّ على معنى (حَباب الماء ونحوه:

فقاقيعه التي تطفو فوقه: واحـدُهُ: حَبابةٌ). و(الحُبابُ: الحبيبُ)، و(الحُبابُ: الشّيطانُ) كما ورد في الحديث النّبويّ: (دعِ الحُبابَ فإنّهُ اسمُ شيطان)، و(الحُباب: الحُبّ والمحبّة)، و(الحِبابُ: القُرطُ من حبّة واحدة). و(حِبٌّ) وتأتي بمعانٍ: (الحبيبُ، وهي: حِبٌّ، وحِبّة. (ج) أحبابٌ، وحِبّانٌ، وحُبوبٌ، وحِبَبَةٌ، وحُبٌّ. و(الحَبّةُ: بذرُ القمح والشّعير ونحوهما. (ج) حَبٌّ. و(المَحَبّةُ: صفةٌ فعليّةٌ ثابتةٌ لله تعالى تليق بجلاله غيرَ صفتَي الإرادة والرّضا؛ فهو سبحانه يحبُّ الصّالحين من عباده المتّقين المُحسنين، ويُحبُّ الأعمالَ الصّالحة الصّادرةَ عنهم). و(حِبْ عند المُحدّثين): رمزٌ وضعَه السّيوطيّ لِما أخرجه الحافظ ابنُ حِبّان البُستيّ (ت: 354هـ/ 965م)، منَ الأحاديث في كتابه (التقاسيم والأنواع) المشهورِ بصحيح ابنِ حِبّان. قال السّيوطي يذكر رموز كتابِ الجامعِ الصّغيرِ: (هذا كتابٌ أودعتُ فيه من الكلمِ النّبويِّ ألوفًا، ومنَ الحِكم المُصطفويّة صنوفًا (...) وهذه رموزه: (...) حِبْ: لابن حِبّان في صحيحه).

ثانيًا: دراسةٌ تحليليّةٌ للمُعطَياتِ المُعجميّةِ

وبَعْدُ، فإنّ السّؤالَ المطروحَ الآن هو: ماذا يجني المُتعلّمُ من هذه الجولةِ المعرفيّةِ، على قِصَرها، من معلوماتٍ وفوائدَ لُغويّةٍ وثقافيّةٍ؟

لا يخامرُنا شكٌّ أنَّ المتعلّمَ، عَنْ وَعْيٍ أو عَنْ غيرِ وعْيٍ، سوف يُغْني رصيدَه اللّغويَّ والثّقافيَّ بجملةٍ منَ المعلوماتِ المُتنوّعةِ. وتَبَعًا لطبيعةِ العيّناتِ المختارةِ سنحاولُ تصنيفَ تلك المعلوماتِ إلى أصنافٍ: معلوماتٍ منهجيّةٍ، ومعلوماتٍ لُغويّةٍ (صوتيّةٍ، وصرفيّةٍ، ونحويّةٍ ودلاليّةٍ)، ومعلوماتٍ ثقافيّةٍ واصطلاحيّةٍ، ثمّ معلوماتٍ تاريخيّةٍ.

1. المعلوماتُ المنهجيّةُ:

وقد رصدْنا من بينِها ما يأتي:

* توزيعُ المداخلِ وَفْـقَ الجذورِ وتفريعاتِها، مع ترقيمِها، وإيرادِ تطوّرِ معانِيها عبرَ العصورِ.

* تمييزُ كلِّ مدخلٍ مُعجميٍّ رئيسٍ بعلامةٍ (*).

* تمييزُ ألفاظِ المداخلِ باللّونِ الأحمرِ.

* توظيفُ الرّموزِ (ج)= لبيان الجمعِ، و____= للدّلالةِ على تَكرارِ الكلمةِ لمعنًى جديدٍ، و(ق س)= لعصرِ ما قبل الإسلام، و(س)= للعصرِ الإسلامــيّ، و(ع)= للعصرِ العباسيّ، و(د م)= لعصر الدُّول والإماراتِ، و(ح)= العصر الحديثِ).

* ترتيبُ الأسماءِ حسبَ الجذورِ، وَفْق الحرف الأولِ، فالثّاني، فالثالثِ من حروف الهجاءِ.

2. المعلوماتُ اللُّغويّةُ:

وتشملُ هذه المعلوماتُ مختلفَ الفوائدِ المتحصَّلِ عليها لبناء اللّغةِ، من معلوماتٍ صوتيّةٍ، ومعلوماتٍ صرفيّةٍ، ومعلوماتٍ نحويّةٍ. وهي إجمالاً ما يُمكّنُ مستعملَ لغةٍ ما منَ التّواصلِ بها شفاهةً وكتابةً على نحوٍ جيّدٍ. ونعرضُها كما يأتي:

2.1. المعلوماتُ الصّوتيّةُ:

ومنها: ضبطُ المداخلِ بالشّكلِ التّامِّ



(الحركاتِ) لمساعدة المُتعلّم على نُطقِ تلك الكلماتِ بصورةٍ صوتيّةٍ سليمةٍ، ومثالُه: (حَبَّ، أَحَبَّ، حَابَّهُ، اسْتَحَابَّ...)، وتمييزُ الكلماتِ المتشابهةِ في الصّورةِ الصّوتيّةِ، والمختلفةِ في المعاني، أو ما يُسمّى بالمثلّثات، ومثالُه: (الحُبُّ، الحِبُّ، الحَبُّ).

2.2. المعلوماتُ الصّرفيّةُ:

تصريفُ الأفعال، ومثالُه: (حَبّ، أَحَبَّ، حبّذا...). واشتقاقُ اسم الفاعل، والمفعولِ، والمصدرِ، ومثالُه: (أحبّ فهو مُحِبٌّ، وحَبّ فهو حبيبٌ، ومحبوبٌ، وحُبٌّ ومَحَبّة). وصِيَغُ المجرّدِ والمزيدِ، ومثالُه: (حَبّ، أحبّ، حابّ، حبّب، تحابّ، تحبّب، استحبّ)، وصِيَغُ التفضيلِ، ومثالُه: (أحبُّ إليّ).

3.2. المعلوماتُ النّحويّةُ:

منَ المعروفِ أنَّ المُعجمَ ليس كتابًا للنّحو، وإنّما هو كتابٌ يُوظّفُ، مِن بين ما يوظّفُه، المُعطياتِ النّحويّةَ في الشّرحِ، وذلك بإيرادِ شروحِ الكلماتِ في تراكيبَ تنضبطُ للقواعدِ النّحويّةِ العربيّةِ، ومن ذلك: الجملةُ الفعليّةُ، ومثالُها: (تحابّ القوم: أحبّ بعْضُهم بعضًا)، والجملةُ الاسميّةُ، ومثالُها: المحبّةُ صفةٌ فعليّةٌ ثابتةٌ لله تعالى.

3. المعلوماتُ الدّلاليّةُ:

وتشملُ كلَّ المُعطياتِ والوسائلِ التي يستخدمُها المعجمُ في شرح المداخلِ، وأهمُّها: تصنيفُ المعلوماتِ الدّلاليّةِ وترتيبُها، واختيارُ نوعٍ من أنواع التّعريفِ، وإيرادُ المداخل بحسبِ المعنَى الأصليِّ للجذرِ، والمعنَى العامِّ للأسرةِ اللّفظيّةِ والأوزانِ الصّرفيّةِ، وتوظيفُ الشّواهدِ.

1.3. تصنيفُ المعلوماتِ الدّلاليّةِ وترتيبُها:

بما أنَّ كلَّ كلمةٍ قد تكتسبُ من جرّاءِ الاستعمالِ الطّويلِ معانيَ متعدّدةً، فإنَّ المعجمَ يعملُ على تصنيفِ هذه المعاني وترتيبِها، ووَفْق ذلك قدّمَ المعجمُ التّاريخيُّ للّغةِ العربيّةِ، في النّماذجِ المدروسةِ، المعنَى الحسّيَّ على المعنَى العقليِّ، ومثالُه: تقديمُ (أحبَّ الـزّرْعُ: صار فيه الحَبُّ) على (أَحَبَّ فلانٌ فلانًا: ودَّهُ، ومالَ إليه)؛ حيث المعنَى الأوّلُ ماديٌّ ملموسٌ يرتبطُ بما يمكنُ أن يلاحظَه المُتعلّمُ في بيئتِه ومحيطِه، في حِينِ يتعلّقُ المعنَى الثّاني بمجالِ الوِجدانِ والعاطفةِ.

2.3. اختيارُ نوعٍ من أنواعِ التّعريفِ:

يكادُ يتّفقُ المُعجميّون على أنّ التّعريفَ هو الأداةُ الأساسُ في تقديم المعلوماتِ الدّلاليّةِ، إلّا أنّ خلافَهم قائمٌ حول نوعِ التّعريفِ المفيدِ، ومن ثمّ تتعدّدُ التّعريفاتُ في المعاجمِ. ومن بين تلك التّعريفاتِ التي وظّفَها المُعجمُ التّاريخيُّ للّغةِ العربيّةِ لشرحِ المداخلِ السّابقةِ ما يأتي:

* التّعريفُ المنطقيُّ: ويهدفُ إلى معرفةِ خصائصِ الشّيءِ الذي تدلُّ عليه الكلمةُ. ويميّزُ المناطقةُ بين نوعَيْن منَ التّعريفِ المنطقيِّ: التّعريفِ بالحَدِّ؛ الذي يحدّدُ الخصائصَ الجوهريّةَ فقط، ومثالُه: (الحبّة: بذر القمح). والتّعريفِ بالوَصْفِ؛ ويأتِي على خصائصِ المعرَّفِ الجوهريّةِ وغيرِ الجوهريّةِ، ومثالُه: (المحبّةُ: صفةٌ فعليّةٌ ثابتةٌ لله تعالى تليقُ بجلالهِ غيرَ صفتَي الإرادةِ والرّضا).

* التّعريفُ اللُّغويُّ: ويرمي إلى توضيحِ معنَى الكلمةِ في سياقِها اللُّغويِّ، أي اعتمادًا على علاقتِها بالكلماتِ الأخرى في الجملةِ، وهذه العلاقاتُ هي: التّرادفُ، ومثالُه: (الحُباب: الحبيبُ)، والاشتقاقُ، ومثالُه: (الحُباب: الحُبّ والمحبّة).

* التّعريفُ بالمثالِ: ويهدفُ إلى شرحِ الكلمةِ بضربِ مثالٍ توضيحيٍّ، ومثالُه: (حبَّبَ الشيءَ: نثرَهُ وفرّقَهُ في شكلِ حُبيباتٍ).

منَ المعروفِ أنَّ المُعجمَ ليس كتابًا للنّحو، وإنّما هو كتابٌ يُوظّفُ، مِن بين ما يوظّفُه، المُعطياتِ النّحويّةَ في الشّرح

يكادُ يتّفقُ المُعجميّون على أنّ التّعريفَ هو الأداةُ الأساسُ في تقديم المعلوماتِ الدّلاليّةِ

بما أنَّ كلَّ كلمةٍ قد تكتسبُ من جرّاءِ الاستعمالِ الطّويلِ معانيَ متعدّدةً، فإنَّ المعجمَ يعملُ على تصنيفِ هذه المعاني وترتيبِها

3.3. المعنَى الأصليّ للجذرِ:

وهي الظّاهرةُ التي اقترح الدّكتور عليّ القاسميّ تسميتَها بـ"الاشتراك الجذريّ»، ويتجلّى المعنَى الأصليّ للجذر في جميع الألفاظِ المشتقّةِ من ذلك الجذرِ، ومثالُه: (وحبَّ: إذا تودَّدَ)، و(حُبَّ فلانٌ: صار محبوبًا)، و(تحابّ القومُ: أحبّ بعضُهم بعضًا)، و(وتحبّبَ فلانٌ: أظهر الحُبَّ)، و(تحبّبَ فلانٌ إلى فلانٍ: تودّد إليه). فالمعنى الأصليّ للجذر (حَ بَ بَ) الدّالّ على (الودادِ وإظهارِ الحُبِّ)، هو الخيطُ النّاظمُ للألفاظِ السّابقةِ.

4.3. المعنَى العامّ للأسرةِ اللّفظيّةِ والأوزانِ الصّرفيّةِ:

تُتيحُ الخاصِّيَّةُ الاشتقاقيّةُ في اللّغةِ العربيّةِ إمكانيّةً هامّةً في تيسيرِ إمدادِ المُتعلّمِ بالمعلوماتِ الدّلاليّةِ؛ إذ كلُّ مُفردةٍ في الأسرةِ اللّفظيّةِ تُصاغُ وَفْقَ وزنٍ صرفيٍّ له معنًى معلومٌ شعوريًّا أو لا شعوريًّا لدى النّاطقِين باللّغةِ العربيّةِ، ومثالُها: (حَبّ: وزنه؛ فعَلَ، معناه؛ فعلٌ تامٌّ أو حدثٌ بالماضي). و(مَحبوب: وزنه؛ مفعول؛ ومعناه؛ الذي وقع عليه الفعلُ وهو مفردٌ، مذكّرٌ). إنّ مفرداتِ الأسرةِ اللّفظيّةِ تشتركُ في معنًى عامٍّ واحدٍ يُخصّصُ في كلِّ مُفردةٍ طبقًا لمعنى وزنِها الصّرفيِّ.

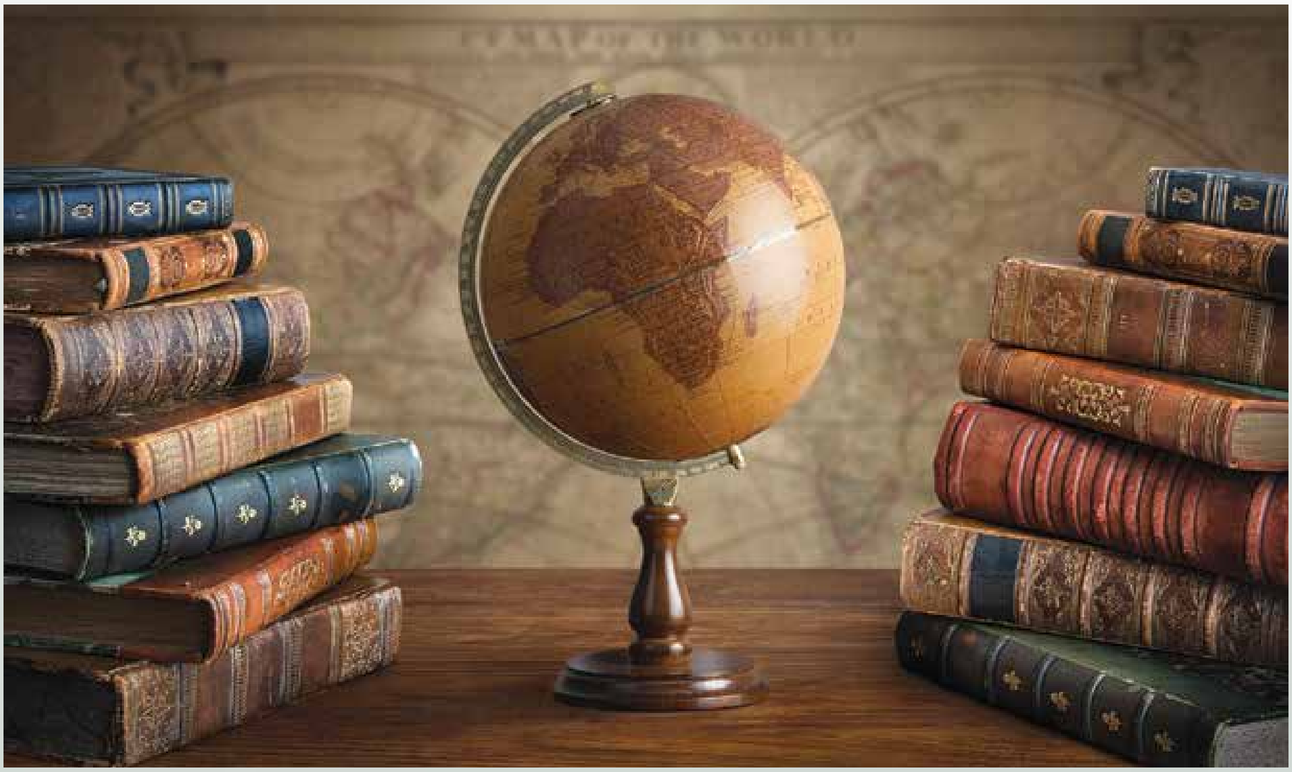
5.3. الشّواهدُ اللّفظيّةُ:

لكَيْ يزيدَ المعنى المطلوبَ جلاءً ووضوحًا، يستخدمُ المعجمُ التّاريخيّ للّغة العربيّةِ مجموعةً منَ الشّواهدِ اللّفظيّةِ، وقد رصدْنا منها في النّماذجِ المدروسةِ: شواهدَ منَ القرآنِ الكريم، ومثالُها: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: 31). وشواهدَ من الحديثِ الشّريفِ، ومثالُها: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أوثقُ عُرَى الإيمانِ، الحُبُّ في الله، والبُغْضُ في الله». وشواهدَ منَ الشّعرِ، ومثالُها: قال امرُؤُ القيس، يمدح بنِي ثُعَل:

ألا حَبَّذا قَوْمٌ يَحُلُّونَ بِالجَبَلْ
واثُعَلاَ وَأَيْنَ مِنِّي بَنُو ثُعَلْ

4. المعلوماتُ الاصطلاحيّةُ والثّقافيّةُ

وتُسمّى كذلك بالمعلوماتِ الحضاريّةِ أوِ الموسوعيّةِ، والمقصودُ بها مجملُ المعلوماتِ التي تمثّلُ جانبًا من جوانبِ الحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ والمعطياتِ التّاريخيّةِ والجغرافيّةِ وأسماءِ أعلامٍ مشهورةٍ وأعمالٍ أدبيّةٍ وفكريّةٍ، ومصطلحاتٍ أدبيّةٍ ونقديّةٍ وعلميّةٍ وفقهيّةٍ، وغيرِها. وغنيٌّ عنِ البيانِ أنَّ لهذا النّوعِ منَ المعلوماتِ فوائدَ جمّةً في إغناءِ الرّصيدِ الثّقافيّ والفكريِّ للمتعلّم. وممّا



وردَ منها في المداخلِ السّابقةِ: معلوماتٌ اصطلاحيّةٌ، ومثالُها: (الاستِحْبابُ (عند الفقهاء): طلبُ الشّارع للفعل طلبًا غيرَ جازم، وهذا الفعلُ يُسمّى مستحبًّا ومندوبًا وتطوّعًا ونَـفْلًا)، ومعلوماتٌ ثقافيّةٌ، ومثالُها: و(حِبْ (عند المحدثين): رمزٌ وضعَه السّيوطيّ لِما أخرجه الحافظُ ابنُ حِبّان البُستيّ (ت: 354هـ/ 965م)، من الأحاديث في كتابه (التقاسيم والأنواع) المشهورِ بصحيحِ ابنِ حِبّان. قال السّيوطي يذكرُ رموزَ كتابه الجامعِ الصغيرِ: "هذا كتابٌ أودعتُ فيه من الكلِمِ النّبويّ ألوفًا، ومنَ الحِكمِ المُصطفويّةِ صنوفًا (...) وهذه رموزه: (...) حِبْ: لابن حِبّان في صحيحه».

5. معلوماتٌ تاريخيّةٌ:

ثابتٌ أنّ أهمَّ ما يميّزُ المُعجمَ التّاريخيَّ عن أنواعِ المعاجمِ الأخرى هو اهتمامُه بالجانبِ التّاريخيِّ في عرْضِ المداخلِ المُعجميّة وشرحِها، وتتبّعِ التّغيّراتِ الدّلاليّةِ الطّارئةِ على كلِّ لفظٍ أو مصطلحٍ عبرَ الزّمنِ. ومعلومٌ أنَّ اللّغةَ العربيّةَ انتظرت قرونًا طويلةً لكي تشهدَ مُعجمًا تاريخيًّا؛ يُنظّمُ ذخيرتَها اللّغويّةَ، ويُسجّلُ تاريخَها الحضاريَّ الحافلَ بالأحداثِ الكبرى والإنجازاتِ العظمى. ونأملُ أن يكونَ اطّلاعُ المُتعلّم العربيِّ على المعجمِ التّاريخيِّ للّغةِ العربيّةِ فرصةً ثمينةً لاكتشاف تاريخِ أمّته المجيد، وإكْسَابِ مخزونه العلميِّ والأدبيِّ ثَراءً بما خلّفَه أجدادُه من تراثٍ غنيٍّ، لعلّ ذلك يكونُ حافزًا له إلَى اسْتِنْهاضِ مجْدِ أمّتِه، ورفْعِ رايتِها بين الأممِ.

وتتجلّى المُعطياتُ التّاريخيّةُ في المدخلِ السّابقِ في جملةٍ منَ العناصرِ، منها:

> **تُتيحُ الخاصّيّةُ الاشتقاقيّةُ في اللّغةِ العربيّةِ إمكانيّةً هامّةً في تيسيرِ إمدادِ المُتعلّمِ بالمعلوماتِ الدّلاليّةِ**

> **ثابتٌ أنّ أهمَّ ما يميّزُ المُعجمَ التّاريخيَّ عن أنواعِ المعاجمِ الأخرى هو اهتمامُه بالجانبِ التّاريخيِّ في عرْضِ المداخلِ المُعجميّةِ وشرحِها**

* رصدُ تطوّرِ دلالاتِ الألفاظِ، ما أمكنَ ذلك، عبْرَ العصورِ التّاريخيّةِ للّغة ، من أقدمِ معنًى إلى أحْدثِه؛

* ذكرُ المعنَى الأقدمِ أوّلًا، ثم تتوالى المعاني الأخرى مُرتّبةً ترتيبًا زمنيًّا حتى يصلَ إلى المعنَى الأحدثِ؛

* وضعُ الشّاهدِ عقبَ المعنَى مباشرةً مضبوطًا بالشّكلِ ضبطًا كاملًا، مسبوقًا برمزِ العصرِ فاسمِ قائلِه، فالتّاريخِ الدّقيقِ للنّصّ ما أمكنَ ذلك، فإن تعذّرَ فالتّاريخُ التّقريبيُّ الذي تُرَشّحُه القرائنُ (مثلُ دخولِ الشّاعرِ على أحدِ الخلفاءِ أو شهودِهِ يومًا معيّنًا من أيّامِ العربِ)، ويمكنُ في هذه الحالةِ استعمالُ عباراتٍ مثل: حوالي، تقريبًا، فإنْ تعذّرَ فتاريخُ الوفاةِ.

خاتمةٌ

لقد حاولَ هذا المقالُ بيانَ الأبعادِ التّعليميّةِ للمُعجمِ التّاريخيِّ للّغةِ العربيّةِ بالشّارقةِ، لاسيمَا مسألةَ تعليمِ وتعلّمِ اللّغةِ العربيّةِ وثقافتِها؛ وذلك بافتراضِ إمكانيةِ تعلّمِ الطّالبِ العربيّةَ وثقافتَها عن طريق تصفُّحِه الذّاتي للمعجمِ التّاريخيِّ للّغةِ العربيّةِ. وفعلًا، لقد تحققتْ صحّةُ هذا الافتراضِ إلى حدٍّ ما، وخلصْنا إلى أنَّ المعجمَ بما يشملُه من معلوماتٍ منهجيّةٍ ولُغويّةٍ وثقافيّةٍ وتاريخيّةٍ غنيّةٍ، في وُسْعِه أن يصبحَ وسيلةً تعليميّةً فعّالةً لتعلّمِ العربيّةِ وثقافتِها.

وبناءً على كلِّ ما تقدّمَ، يمكنُ تقديمُ الخُلاصاتِ والتَّوْصِيَاتِ الآتيةِ:

* تَأْكِيدُ الدّورِ الهامّ للمُعجمِ عمومًا، والمُعجمِ التّاريخيِّ على نحوٍ خاصٍّ، في تعليمِ وتعلّمِ اللّغةِ العربيّةِ وثقافتِها، باعتبارِه ليس وسيلةً لشرحِ ما استعصى فهمُه من مفرداتٍ فحسبُ، بل إنّهُ، إضافةً إلى ذلك، كتابُ تعلّمٍ وتعليمِ لغةٍ وثقافةٍ في آنٍ واحدٍ.

* التّنويهُ بفعَّاليّةِ التّصفّحِ الذّاتيِّ للمُعجمِ التّاريخيِّ في إغناءِ الرّصيدِ المُعجميّ للمتعلّمِ.

* اقتراحُ تضمينِ مناهجِ تعليمِ اللّغةِ العربيّةِ مادّةَ المعجمِ لتنضمَّ إلى النّحوِ والصّرفِ والبلاغةِ والنّصوصِ.

* دعوةُ الباحثين والمُعلّمين إلى العنايةِ الفائقةِ بِاسْتِعْمَالِ اللغةِ في سياقاتٍ تواصُليّةٍ، وتنميةِ الثّروةِ المُعجميّةِ لدى المُتعلّمين من أجلِ تطويرِ أساليبِ تعليمِ وتعلّمِ اللّغةِ العربيّةِ وثقافتِها، والتّمكينِ للُغةِ الضّادِ بين اللّغاتِ العالَميّةِ.

تَحْقِيقَاتٌ فِي المُعْجَمِ العَرَبِيِّ

كنتُ أبحثُ في مُعجم لسانِ العربِ لشأنِ بحثٍ أكاديميٍّ، وساقني القدرُ إلى حديثِ أبي ذرّ رضي الله عنه: «خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَضَ»، ولفتَ انتباهي أنَّ الجذرَ اللّغويَّ (ر ع ض) غيرُ موجودٍ في أوائلِ المعاجمِ اللّغويّةِ كالعينِ والتّهذيبِ والجمهرةِ والصّحاحِ والمقاييسِ والمحكمِ وغيرِها، وربّما لم يوجدْ قبلَ لسانِ العربِ. فماذا قالَ اللّسانُ عنِ المادّةِ اللّغويّةِ؟ قال: «رعض: النِّهايةُ لابْنِ الأثير: في حَديثِ أَبي ذَرٍّ: خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَضَ، أي: لَمّا قامَ مِنْ مُتَمعَّكِه انتفَضَ وارْتَعَدَ، وارْتَعَضَتِ الشَّجَرةُ إذا تَحَرَّكَتْ، ورَعَضَتْها الريحُ وأَرْعَضَتْها. وارْتَعَضَتِ الحَيّةُ إذا تَلَوَّتْ؛ ومِنْهُ الحَديثُ: فضَربت بيَدِها عَلَى عجُزها فارْتَعَضَتْ، أَي: تَلَوَّتْ وارْتَعَدَتْ».



د. عبد الحليم عبد اللّه
رئيس قسم اللغة العربية
في جامعة أردهان

لقد كانتِ المادّةُ اللّغويّةُ قليلةً جدًّا، ولكن هذا لا يمثّلُ مشكلةً، فبعضُ الجذور كذلك، مع العلمِ أنَّ المؤلّف – رحمه الله – أشارَ إلى أنَّ مصدرَ المادّة هو ابنُ الأثير في النّهاية، وَحِينَ العودةِ إلى النّهاية لابن الأثير كَانَتِ المفاجأةُ عَدَمَ وجودِ مادّةِ (ر ع ض)، لكنّني وقعتُ على مادة (رَ عَ صَ) في النّهاية لابن الأثير. قال ابن الأثير: «(رَعَصَ) فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: خَرَجَ بفَرس لَهُ فتَمَعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَصَ. أَيْ: لمّا قامَ مِنْ مُتَمَعَّكه انْتَفَض وارْتَعد. يُقالُ ارْتَعَصَتِ الشجَرة: أَيْ تَحرّكَت. ورَعَّصَتْها الرّيحُ وأَرْعَصَتْها. وارْتَعَصَتِ الحيَّةُ إذا تلوَّت. ومِنْهُ الحَديثُ: فَضَرَبَتْ بيَدِها عَلَى عَجُزِها فارْتَعَصَتْ. أَيْ: تَلَوَّتْ وارْتَعَدَتْ».

وبالمقارنةِ بَيْنَ المادّتين (ر ع ض) في اللسان و(ر ع ص) في النّهاية نجدُ أنّهما مُتَطابِقتانِ، وهذا أوّلُ الأدلّةِ على أنّ مادّةَ (ر ع ض) عند ابن منظور قد حُرِّفَتْ وأُخِذَت من مادة (ر ع ص) في النّهايَةِ لابن الأثير، ولكنْ بفارقٍ بسيطٍ وكبيرٍ في آنٍ واحدٍ، وهو أنّهُ قد وَقَعَ في المادّة تحريفٌ من (ر ع ص) إلى (ر ع ض)، لَكِنَّ ذلك قد لا يكون بفعلِ ابنِ منظورٍ نفسِهِ، فربّما يكونُ بسببِ خطأٍ في الطّباعةِ أو بفعل النُّسّاخ، لكنّنا عندما نبحثُ عن مادّة (ر ع ص) في اللّسان، نقعُ على مادَّةِ (ر ع ص) في اللسان مُشابِهَةٍ إلى حدودٍ كبيرةٍ المادَّةَ السّابِقَةَ. إذ قال ابنُ منظور: «رعص: الارْتِعاصُ: الاضطرابُ؛ رَعَصَه يَرْعَصُه رَعْصًا: هَزّه وحَرَّكَهُ. قالَ اللَّيْثُ: الرَّعْصُ بِمَنْزِلَةِ النَّفْضِ، وارْتَعَصَتِ الشجرةُ: اهْتَزَّت. ورَعَصَتْها الرِّيحُ وأَرْعَصَتْها: حَرّكتها. ورَعَصَ الثَّوْرُ الكلبَ رَعْصًا: طعنَه فاحْتَمَلَه عَلَى قَرنه وهزَّه ونفَضه. وضرَبه حَتَّى ارْتَعَص أَي التوى مِنْ شِدَّةِ الضَّرْب. وارْتَعَصَت الحَيَّةُ: التَوت؛ قالَ العَجّاج:

إنِّي لا أَسْعَى إلى داعِيَهْ
إلا ارْتِعاصًا كارْتِعاصِ الحَيَهْ

وارْتَعَصَتِ الحيّةُ إذا ضُرِبَت فلَوتْ ذَنَبَها مِثْل تَبَعْصَصَتْ. وفِي الحَدِيثِ: فضربَتْها بيدِها عَلَى عَجُزِها فارْتَعَصَت. أَي: تَلَوَّتْ وارْتَعَدتْ... وفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمَعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَصَ فَسَكَّنَه، وقالَ: اسْكُنْ فَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوتُك. يُرِيدُ أنه لَمّا قامَ مِنْ مَراغِه انتفضَ وارتعدَ"

وبالمقارنةِ بين مادّتَيْ (ر ع ض) و(ر ع ص) في لسان العربِ المعجمِ نفسِه، نجدُ أنّ المادّتين متقاربتان من حيث الكمُّ، وقد زادت مادّةُ (ر ع ص) على قرينتِها قليلاً، وأنّ كلَّ ما وردَ في مادّةِ (ر ع ض) وردَ نفسُه في مادّةِ (ر ع ص)، حتى الشّواهِدُ نَفْسُها، وأنَّ المعنَى العامَّ في المادّتَين واحدٌ، فكلتاهما تدلُّ على الحركةِ والاِضْطِرابِ، وكلُّ ذلك يَشِي بوقوعِ خطأٍ ولُبسٍ ما، لكنّنا لا نطمئنُّ إلى صحّةِ هذا الحكمِ ما لم نُوَازِنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُتُبِ الأمثالِ والنّظائرِ.

أوّلًا: قراءةُ المادّةِ اللّغويّةِ ومقارنتُها بالمعاجمِ النّظيرةِ

نقومُ في هذه الفقرة باستعراضِ المادّةِ المُعجميّةِ في غيرِ مُعجمٍ حتى نهايةِ القرن الرّابع الهجريِّ، ولاسِيما المعاجمَ التي حدّدها ابنُ منظورٍ مصدرًا من مصادرِ اللّسانِ.

1. كتابُ العين للفراهيديِّ (170ه)

بالرّجوعِ إلى أقدم مُعجمٍ لُغويٍّ عربيٍّ – وهو كتابُ العين للفراهيديِّ (ت 170ه) – لم نجدْ لمادّة (ر ع ض) أثرًا في العين، وإنّما وقفنا على مادّة (ر ع ص). قال: "رَعَصَ: الرَّعْصُ بِمَنْزِلةِ النَّفْضِ. ارْتَعَصَتِ الشَّجَرةُ، ورَعَصَتْها الرّيح، وأَرْعَصَتْها، لُغَتانِ. والثَّورُ يَحْتَمِلُ الكَلْبَ بِطَعْنَةٍ فَيَرْعَصُهُ رَعْصًا إذا هزّه ونفضَه».

2. الصّحاحُ للجوهريِّ (393ه)

وكذلك في كتابِ الصّحاحِ للجوهريِّ لم نقفْ على مادّةِ (ر ع ض) وإنّما وقفْنا على (ر ع ص). قال الجوهريُّ: "الارْتِعاصُ: الاضطرابُ. قال الأصمعيُّ: يقال ارْتَعَصَتِ الحيَّةُ، إذا ضُرِبَتْ فلوَتْ ذنَبَها، مثل تَبَعْصَصَتْ. قال العجّاجُ:

إِنِّيَ لا أَسْعَى إلى داعيَهْ
إلّا ارتعاصًا كارتعاصِ الحَيَّهْ»

3. المحكمُ: ابنُ سِيدَه (498ه)

وكذلك في كتاب المُحكمِ لابن سيدَه لم نقفْ على مادّةِ (ر ع ض) وإنّما وقفْنا على (ر ع ص). قال ابن سِيده: "رَعَصَه يَرْعَصُه رَعْصًا: هزّه وحرّكه. وارتعَصتِ الشَّجَرَة: اهتزّت. ورَعَصَتْها الرّيحُ، وأَرْعَصَتْها: حرّكتها. ورَعَص الثّورُ الكَلْبَ رَعْصًا: طعنَه، فاحتملَه على قرنه، وهزّه وضربه، حَتَّى ارْتَعَص، أَي التوى من شدَّة الضَّرْب، وارْتَعَصَتِ الحَيَّة: التَوَت، قالَ العجّاجُ:

إِنِّيَ لا أَسْعَى إلَى داعِيَهْ
إلّا ارْتِعاصًا كارْتِعاصِ الحَيَّهْ

وارْتَعَصَ الجديُ: طفرَ منَ النّشاط. وارْتَعَص الفرسُ كَذَلِك. وارْتَعَص البَرْقُ: اضْطربَ"، وقد سبقَ أن ذكرنا من قبْلُ أنّنا لم نقف على مادّةِ (ر ع ض) في النّهايةِ لابن الأثير، وإنّما وقفْنا على مادّةِ (ر ع ص)، وقد أوردناها من قبلُ.

4. تاجُ العروس: الزّبيديُّ (1205ه)

لقد وقفْنا في تاج العروسِ على مادّتَيْ (ر ع ض) و(ر ع ص)، ولا غرابةَ في ذلك فالزّبيديُّ متأخّرٌ عن ابنِ منظور بما يقربُ من خمسةِ قرونٍ، والمادّةُ التي أوردَها في رعض مُستقاةٌ منَ اللّسان، ولعلّنا نقدّمُ الكلامَ على رعص لعلّةٍ نبيّنُها فيما بعد. قال الزّبيديُّ في مادّة (ر ع ص): «ر ع ص الرَّعْصُ، كالمَنْعِ: النَّفْضُ، بالنُّونِ والفاء والضّادِ، عَنِ اللَّيْثِ، وقَدْ رَعَصَ، أَي: انْتَفَضَ، ومِنْه حَديثُ أَبي ذَرٍّ رَضيَ اللهُ تعالى عَنهُ أَنّه خَرَجَ بفَرَسٍ لَهُ فَتَمَعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ، ثُمَّ رَعَصَ، فسَكَّنَه، وقالَ: اسْكُنْ فقَدْ أُجيبَتْ دَعْوتُك. يُريدُ أَنَّهُ لَمّا قامَ مِنْ مَراغِهِ انْتَفَضَ وارْتَعَد. والرَّعْصُ: الهَزُّ والجَذْبُ والتَّحْريك، يُقالُ: رَعَصَه رَعْصًا، إذا هَزَّهُ وحَرَّكَه، وقالَ القُتَيْبيُّ: الثَّوْرُ يَطْعَنُ الكَلْبَ بقَرْنِه فيَحْمِلُه فيَرْعَصُه رَعْصًا، إذا هَزَّهُ ونَفَضَه، كالإرْعاصِ، يُقال: رَعَصَتِ الرّيحُ الشَّجَرةَ وأَرْعَصَتْها، إذا حَرَّكَتْها. وارْتَعَصَ: تَلَوَّى، قالَ الأَصْمَعيُّ: يُقال: ارْتَعَصَتِ الحَيَّةُ، إذا ضُرِبَتْ فَلَوَتْ ذَنَبَها، مِثْل تَبَعْصَصَتْ، قالَ العَجّاجُ:


تمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي في محافظة البصرة

إنّيَ لا أَسْعَى إلى داعِيَّهْ
إلّا ارْتِعاصًا كارْتِعاصِ الحَيَّهْ

وارْتَعَصَ: انْتَفَضَ، يُقال: ارْتَعَصَتِ الشَّجَرةُ، ورَعَصَتْها الرّيحُ».

وَقَـدْ وَرَدَتْ هذه المعاني في المعاجمِ السّابقةِ التي أَوْرَدْناها من قبلُ، فارتعص بمعنى انتفض، ويأتي لازمًا ومتعدّيًا، وكذلك وردَ في تاج العروسِ أيضًا، أمّا مادّةُ (ر ع ض) في التّاج فقد أوردَها الزَّبيديُّ مثلَما وردت في اللّسانِ، وعقّبَ عليها تعقيبًا لافِتًا الانْتِباهَ إلَيْهَا. إذ قال: «رَعَضَ الفَرَسُ، كمَنَع: انْتَفَضَ وارْتَعَدَ. وارْتَعَضتِ الشَّجَرةُ: تَحَرَّكَت ورَعَضَتْها الرّيحُ وأَرْعَضَتْها. وارْتَعَضتِ الحَيَّةُ: تَلَوَّتْ. هَكَذا ذَكَرَه صاحِبُ اللّسان هُنا عَن ابنِ الأثير، وأَهْمَلَه الجَماعةُ، وقد سَبَقَ ذلِكَ بعَيْنه في الصّادِ».

فتعقيبُ الزّبيديِّ على ما ورد في مادّة (ر ع ض) مُثيرٌ للدّهشةِ، ومُفاده: أنّ مادّةَ (ر ع ض) لم تردْ في معجم قبلَ اللّسان، وأنَّ جماعةَ المُعجميّينَ أهملُوا هذا الجذرَ، وأنّ ما ذكرَه ابنُ منظورٍ في مادّةِ (ر ع ض) قد سبقَ وأوردَه عَيْنَه في باب الصّادِ أي: في مادّةِ (ر ع ص).

ثانيًا: القراءةُ النّقديّةُ للشّواهدِ

ولعلّنا نعرِضُ المادّةَ مرّةً أخرَى لمناقشةِ الشّواهدِ فيها. قال ابنُ منظورٍ: «رعض: النِّهايةُ لِابْنِ الأثير: في حَديثِ أَبي ذَرٍّ: خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَضَ. أَي: لَمّا قامَ مِنْ مُتَمَعَّكِه انتَفَضَ وارْتَعَدَ، وارْتَعَضَتِ الشَّجَرةُ إذا تَحَرَّكَتْ، ورَعَضَتْها الريحُ وأَرْعَضَتْها، وارْتَعَضَت الحَيّةُ إذا تَلَوَّت؛ ومِنْهُ الحَديثُ: فضَربت بيَدِها عَلَى عجُزِها فارْتَعَضَتْ. أَي: تَلَوَّتْ وارْتَعَدَتْ».

إنّنا من خلالِ المادّةِ اللّغويّةِ السّابقةِ نقفُ على شاهدَينِ حديثيّينِ، الأوّلُ منهما: حَديثُ أَبي ذَرٍّ «خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَضَ فَسَكَّنَه، وقالَ: اسْكُنْ فَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوتُك» والآخرُ: حديث "فضَربت بيَدِها عَلَى عَجُزِها فارْتَعَضَتْ"، وفي الحديثين تفصيلٌ مهمٌّ وغيرُ قليلٍ.

أوّلًا: الحديثان مرويّان بالصّاد في مادّةِ (ر ع ص) إلى جانبِ الضّادِ في مادّةِ (ر ع ض) عند ابنِ منظورٍ نفسِه، أمّا في مصدره الذي أحالَ إليه وهو النّهايةُ لابن الأثيرِ (606هـ) فهما مَرويّان بالصّاد فقط، ولا يوجدُ لمادّة (ر ع ض) أثرٌ فيه.

ثانيًا: ابنُ الأثيرِ استقَى الحديثَين من مرويّاتِ ابنِ قُتيبة الدّينوريِّ (276هـ) في كتابِه (غريبُ الحديث)، وبينهما ما يقربُ من ثلاثة قرونٍ ونصفٍ.

ثالثًا: ابنُ قُتيبةَ الدّينوريُّ روى الحديثَين في كتابه - الذي أشرنا إليه من قبلُ- من دون أن يَعرفَ لهما قائلاً أو راويًا، وقد نصَّ على ذلك، بل أنكرَ أن يكونا حديثَين؛ إذ بوَّبهما في باب سمّاهُ: (أَحاديثُ سَمِعتُ أَصْحابَ اللُّغة يذكرونَها ولا أعرفُ أَصْحابَها)

وعنوانُه هذا للباب يَشِي بإنكارِ ابنِ قُتيبةَ لهذه الأحاديثِ التي لا يعرفُ لها أصلاً أو راويًا، وتبقَى المُشكلةُ في أنَّ غيرَ واحـدٍ ممّن كتبَ في غريب الحديثِ أو صنَّفَ في المعاجمِ استشهد بالحديثَين على أنّهما حديثان من دون الإشارةِ إلى أنّهما مجهولا القائلِ، أو أنّهما مُنكران أو أنّهما ليسا بحديثَين.



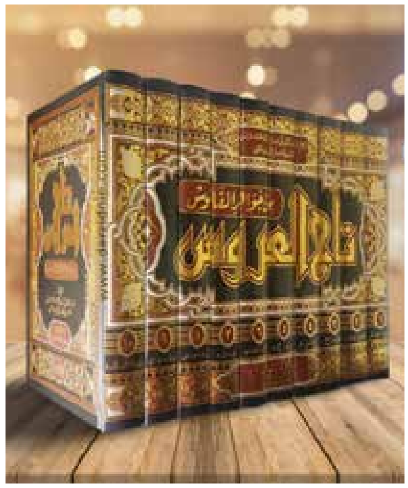
لكنَّ البحثَ والتّحقيقَ في الحديثَين لا يوصلُ إلى الشّاهدِ اللّغويِّ، وهو كالآتي:

1. حَديثُ أَبي ذَرٍّ «خَرَجَ بِفَرَسٍ لَهُ فَتَمعَّكَ ثُمَّ نَهَضَ ثُمَّ رَعَصَ فَسَكَّنَه، وقالَ: اسْكُنْ فَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكَ» بالعودةِ إلى كتبِ الحديثِ وجدنا أنّ الحديثَ وردَ في مسندِ الإمامِ أحمدَ بِصُورَةٍ مُختلفةٍ كُلِّيًّا، لا يوجدُ بينَه وبين روايةِ المُعجميّين تقاطعٌ إلّا فِي النَّزْرِ اليسيرِ جدًّا، وهو أنّ فرسَه مُستجابُ الدّعوة؛ إذ روى الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل الحديثَ، قال: «عَنِ ابْنِ مُعاوِيَةَ بْنِ حُدَيْجٍ مَرَّ عَلَى أَبِي ذَرٍّ، وهُو قائِمٌ عِنْدَ فَرَسٍ لَهُ فَسَأَلَهُ: ما تُعالِجُ مِنْ فَرَسِكَ هَذا؟ فَقالَ: إنِّي أَظُنُّ أَنَّ هَذا الفَرَسَ قَدِ اسْتُجِيبَ لَهُ دَعْوتُهُ. قالَ: وما دُعاءُ البَهِيمَةِ مِنَ البَهائِمِ؟ قالَ: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، ما مِنْ فَرَسٍ إلّا وهُو يَدْعُو كُلَّ سَحَرٍ فَيَقُولُ: اللهُمَّ أَنْتَ خَوَّلْتَنِي عَبْدًا مِنْ عِبادِكَ، وجَعَلْتَ رِزْقِي بِيَدِهِ، فاجْعَلْنِي أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ ومالِهِ وولَدِهِ».

وبناءً على النّصّ الصّحيحِ للحديثِ المرويِّ في كُتبِ السّنّةِ فالمعنى مختلفٌ واللّفظ مختلفٌ وموضعُ الاستشهادِ غيرُ موجودٍ في الحديث.

2. حَديثُ: «فضَربت بيَدِها عَلَى عَجُزِها فارْتَعَصتْ» وروايتُه عند ابنِ قُتيبة كما يأتي: «جاءَ في الحَديث: إن امْـرَأة جاءَت تشتري من رجل شَيْئا فَقالَ لَها: ادخلي البَيْت، فَدخلت فَضرب بيَدِهِ على عجزها فارتعصت».

والملاحظُ أنّ الرّوايةَ مختلفةٌ قليلاً عمّا جاء في النّهايةِ، فضلاً عن أنّ ابنَ قُتيبةَ رواه في الباب ذاتِه الذي سمّاهُ (أحاديثُ سَمِعت أَصْحابَ اللُّغة يذكرونَها ولا



أعرفُ أَصْحابَها) والذي قلنا عنه بأنّه يَشِي بإنكاره لهذه الأحاديث التي لم يعرف لها أصلاً أو راويًا.

وبعد التّحقيق في أصل الحديثِ والتّنقيبِ عنه في كتب السّنّة والسّيرة وحياةِ الصّحابة، وجدنا له مُشابهًا رواه أبو نعيم الأصبهانيُّ في كتابه (معرفة الصحابة) برقم (6473)، إذ قال: «عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [آل عمران:135]، قالَ: يُرِيدُ نَبْهانَ التَّمّارَ، وكُنْيَتُهُ أَبُو مُقْبِلٍ، أَتَتْهُ امْرَأَةٌ حَسْناءُ جَمِيلَةٌ، تَبْتاعُ مِنْهُ تَمْرًا، فَضَرَبَ عَلَى عَجُزِها، فَقالَتْ: واللهِ ما حَفِظْتَ غَيْبَةَ أَخِيكَ، ولا نِلْتَ حاجَتَكَ، فَأُسْقِطَ في يَدِهِ، فَذَهَبَ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: إيّاكَ أَنْ تَخُونَ امْرَأَةَ غازٍ. فَذَهَبَ يَبْكِي، فَقامَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ: النَّهارَ صائِمًا، واللَّيْلَ قائِمًا حَزِينًا، فَلَمّا كانَ اليَوْمُ الرّابِعُ أَنْزَلَ اللهُ تَعالَى فِيهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [آل عمران:135]، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِما نَزَلَ فيهِ، فَحَمِدَ اللهَ وشَكَرَهُ، وقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ تَوْبَتِي، قَبِلَها اللهُ مِنِّي، فَكَيْفَ لي حَتَّى يَقْبَلَ شُكْرِي؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:114] ».

وبالنّظر إلى رواية الحديثِ ذاتِه بين (معرفة الصّحابة) و(غريب الحديث) و(النّهاية) و(لسان العرب) نجدُ بينها بونًا شاسعًا جدًّا، فالشّاهدُ في اللّسان في (ارتعضت) بالضّاد والصّاد، وفي النّهاية وغريبِ ابنِ قتيبةَ بالصّاد (ارتعصت)، وتفرّد ابنُ قتيبة بأنّه أشار إلى أنّه ليسَ بحديثٍ، بل صاحبُه مجهولٌ، فأنكرَه، أمّا في رواية أبي نعيم فلا (ارتعضت ولا ارتعصت)، ولا شاهدَ فيها.

وبعد هذه الجولةِ السّريعةِ في مادّة (ر ع ض) غلب عندنا الظّنُّ بأنّها مادّة (ر ع ص) وقع فيها تحريفٌ غيرُ مقصودٍ بفعل النُّسّاخ، ولا سِيما أنّ المُعجميّين المُتأخّرين لم يأخذوا اللّغةَ مُشافهةً منَ الأعراب وإنّما أخذوها منَ الكُتب المنسوخةِ.. والله أعلم.

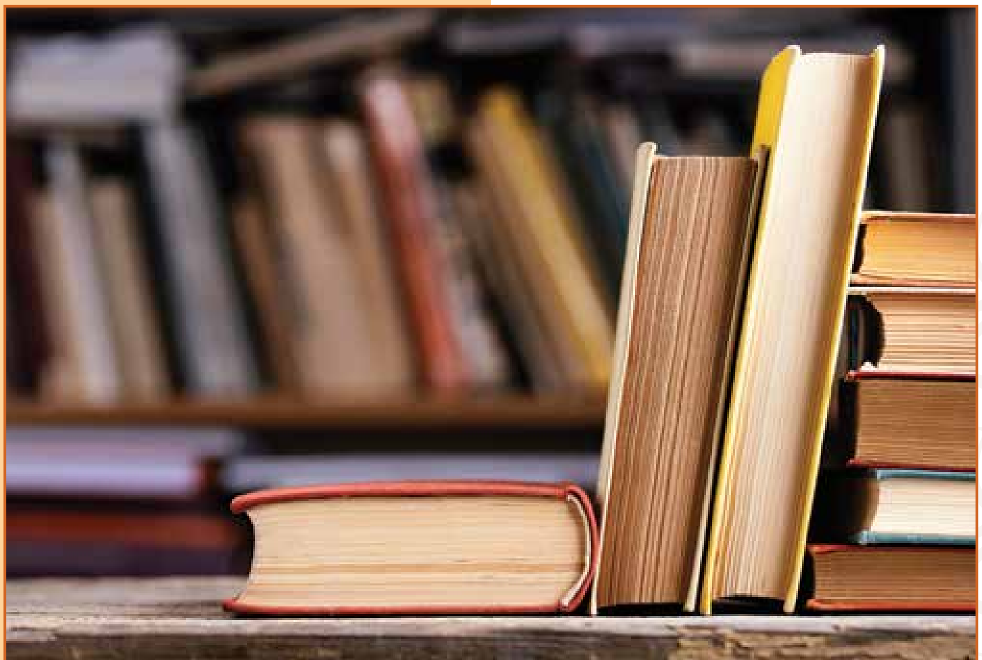
"ذكر الزبيدي أن مادة (ر ع ض) لم ترد في معجم قبل اللسان وأن جماعة المعجميين أهملوا هذا الجذر، وأنّ ما ذكره ابنُ منظورٍ في مادّةِ (ر ع ض) قدْ سبقَ وأورده عَيْنَه في باب الصّادِ أي: في مادّةِ (ر ع ص).

أَعْجَمِيٌّ بالباب



يُحْكى أنَّ رجُلاً من فارس كانَ يُجيدُ اللُّغةَ العربيَّةَ بِطَلاقَةٍ، حتَّى إذا كَلَّمَ أُناسًا من العَرَبِ سألوه: مِنْ أَيِّ قبائِلِ العَرَبِ أنتَ؟ فَيَضحَكُ ويَقول: أنا فارسِيٌّ وأُجيدُ العربيَّةَ أكْثَر من العَرَبِ.

وذاتَ يومٍ -وكَعادَتِهِ- وَجَدَ مجلِسَ قومٍ منَ العَرَبِ فَجلسَ عندَهم وتكلَّمَ معهَم فَسأَلوه: مِنْ أَيِّ قبائلِ العرَبِ أنت؟ فَضَحِكَ وقالَ: أنا من فارس وأُجيدُ العربيَّةَ خيرًا مِنكُم، فَقالَ له أَحَدُ الجُلوس: اذْهَبْ إلى فُلان بن فُلان وهو رَجُلٌ من الأَعرابِ وَكَلِّمْهُ فإنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّكَ من العَجَمِ فقَدْ نَجحْتَ وغلَبْتَنا كما زَعَمْت، وكانَ ذلكَ الأَعرابِيُّ ذا فراسَةٍ شَديدة، فَذَهَبَ الفارسيُّ إلى بيتِ الأَعرابيِّ و طَرقَ البابَ، فَإِذا بابْنةِ الأعرابيِّ وراءَ البابِ تسأل: مَنْ بالباب؟ فَرَدَّ الفارسيّ: أنا رَجلٌ منَ العَربِ وأُريدُ أباكِ، فَأَجابَتْهُ الطِّفلَة: «أبي فاءَ إلى الفَيافي فَإِذا فاءَ الفيءُ فاءَ»، وهي تَعني أَنَّ أَباها ذَهَبَ إِلى الصَّحراءِ فَإِذا حَلَّ الظَّلامُ أَتَى، فَلَمْ يَفهَم قصْدَها وسأَلَها: إلى أَيْنَ ذَهَب؟ فَرَدَّتْ عليهِ مَرَّةً أُخرى وأَعادَت الجَوابَ نفْسَه، فَأَخَذَ الفارسِيُّ يُراجِعُ الطِّفْلَةَ ويَسأَلُ وهي تُجيُبُ مِنْ وَراءِ البابِ، حَتّى سأَلَتْها أُمُّها: يا ابْنَتي مَنْ بِالبابِ؟ فَرَدَّت الطِّفْلَة: أَعْجَمِيٌّ بالبابِ يا أُمّي!



كُتُبٌ ودِراساتٌ

- وقفةٌ معَ الأعْمالِ الفائِزةِ في جائِزَةِ الشّارقَة للدّراساتِ اللّغَويّة والمُعجَميّة

- ابنُ سِنَانٍ الخَفَاجيُّ وكتابُه «سِرُّ الفَصَاحَةِ»

وقفةٌ معَ الأعْمالِ الفائِزةِ في جائِزَةِ الشّارقَةِ للدّراساتِ اللّغَويّةِ والمُعجَميّةِ

فَرع الدِّراسات اللُّغويَّة

كتاب: مَبدَأ الانسِجام في تَحليلِ الخِطابِ مِن خِلالِ عِلْمِ المُناسَباتِ

للدّكتور: شوقي البوعناني



هبة هشام
باحثة لغويّة في مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

لطالَما فَقِهَ العَرَبُ على اخْتلافِ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ ما للُّغَةِ من دَوْرٍ أساسيٍّ، وأَهميَّةٍ مَرْكَزيَّةٍ في حمايَةِ كَيْنونَةِ الأُمَّـةِ، والـذَّوْدِ عَنْ حِياضِها، وحِفْظِ تاريخِها، ونَقْلِ تُراثِها عبْرَ الأجيالِ والعُصورِ المُتَعاقِبَةِ، فَما كانَ مِنْهُم إلّا أَنْ تَرْجَموا هذا الإِدْراكَ إنْتاجًا علْميًّا غَزيرًا مِنَ المُؤَلَّفاتِ والدِّراساتِ اللُّغويَّةِ ذاتِ الاخْتِصاصاتِ والتَّوَجُّهاتِ المُتَبايِنَةِ، وانْطِلاقًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّه سَعَتْ جائزَةُ الشّارِقَةِ للدِّراساتِ اللُّغويَّةِ والمُعْجَميَّةِ إلى تَخْصيصِ مِحْوَرِ الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ لتسلِّطَ الضّوءَ على أَبْرَزِ المُنْجَزاتِ العلْميَّةِ الرَّصينَةِ الباحِثَةِ في واقِعِ اللُّغَةِ، وسُبُلِ تَعْزيزِ مَكانَتِها وحُضورِها بَيْنَ شَرائِحِ المُجْتَمَعِ كافَّةً.

مِنْ بَينِ عَدَدٍ مِنَ الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ الرَّصينَةِ، حَازَتْ دِراسَةُ الدُّكتور شَوقي البوعناني بِعُنْوان: (مَبْدَأ الانْسِجام في تَحْليلِ الخِطابِ مِنْ خِلالِ عِلْمِ المُناسَبات) المَرْكَزَ الأَوَّلَ ضِمْنَ مِحْوَرِ الدِّراساتِ اللُّغَوِيَّةِ في جائِزَةِ الشّارِقَةِ للدِّراساتِ اللُّغَويَّةِ والمُعْجَمِيَّةِ خلالَ دَوْرَتِها الثّالِثَةِ عامَ 2019م، وذلِكَ لما تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ أصالَةٍ في الطَّرْحِ، ودِقَّةٍ في المنْهَجِ، وعُمْقٍ في التَّحْليلِ، انْطِلاقًا مِنْ غَرَضٍ رئيسٍ تمثَّلَ في بَحْثِ مَظاهِرِ التَّفْكيرِ النَّصيِّ مِنْ خِلالِ مُمارَسَةِ عُلَماءِ المُناسَباتِ لِتَحليلِ الخِطابِ.



وقَدْ تَرَكَّزَ عملُ الباحِثِ على بَيانِ طَبيعَةِ المَنْهَجِ الّذي توخّاهُ عُلَماءُ المُناسَباتِ في تَحليلِ وُجوهِ المَناسَبَةِ في الخِطابِ القُرآنيِّ، بعْدَ أنْ تَبَيَّنَ للباحِثِ أنَّ الحَديثَ عَنْ مَبْدَأ الانْسِجامِ أَكْثَرُ مُلاءَمَةً لِجهودِهِم تلك؛ لأنَّهم لَمْ يَقْتَصِروا في تَحْليلِ الخِطابِ القُرآنيِّ على مَظاهِرِ الاتِّساقِ النَّحويِّ وحدَها، بَلْ تَجاوَزوها إلى سائِرِ أَنْماطِ المَعْرِفَةِ التّاريخيَّةِ والتَّداوليَّةِ العامَّةِ، ناهيكَ عن أنَّ الانسِجامَ يُمَثِّلُ خُلاصَةَ ما تَوَصَّلَتْ إلَيهِ جُهودُ الباحِثينَ المُعاصِرينَ في مَجالَي لِسانيّاتِ النَّصِّ وتَحليلِ الخِطابِ في تَعريفِ الخِطابِ والنَّصِّ، ولَمّا كانَ انْسِجامُ الخِطابِ غيرَ قابِلٍ للتَّحقيقِ بأَدَواتِ الاتِّساقِ النَّحويِّ والمُعْجميِّ وَحدَها، قدَّرَ الباحِثُ أنَّ مَنْهَجَ تَحْليلِ الخِطابِ هُوَ أَكْثَرُ المَناهِجِ مُلاءَمَةً واتِّساقًا؛ ذلكَ أنَّهُ يَتَّسِعُ إلى المَظاهِرِ النَّحويَّةِ، والأَبعادِ التَّداوليَّةِ والعِرفانيَّةِ في الخِطابِ. وعليْهِ فَإِنَّ المَطْلَبَ مِنْ هذهِ الدِّراسَةِ لَمْ يَنْشَغِلْ بِإِثْباتِ الانسِجام للخِطابِ القُرآنيّ أو نَفْيهِ

عَنْهُ، بَلْ رَكَّزَ على بَحْثِ المَنْهَجِ الّذي تَوَخّاهُ عُلَماءُ المُناسَبَةِ في إثْباتِ الانسِجامِ للخِطابِ القُرآنيّ.

هذه الدّراسة في أَصلِها رِسالَةٌ تقدَّم بها صاحِبُها لِنَيْلِ شهادَةِ الدُّكتوراه في اللُّغَةِ العربيَّةِ وآدابها في جامعة منوبة في تونس، وقَد انْتَظَمَ عِقْدُها في مُقَدِّمَةٍ وأربعَةِ أبوابٍ وخاتمة، احتوى كُلُّ بابٍ منها على مُقدِّمَة خاصَّة، ومَجموعَةٍ من الفُصول والمباحِث، وخاتِمَةٍ خاصَّةٍ لِكُلِّ بابٍ، جاءَتْ كُلُّها مُرَتَّبَةً على النَّحوِ الآتي:

البابُ الأوَّل: المناسَبَة والانْسِجام، وقَدْ قَسَمَه الباحِثُ على فَصلَين، تناولَ الأوَّلُ مِنْهُما مَفهومَ المُناسَبَةِ والنَّظريَّة اللُّغويَّة عندَ العرب، وما تَشْمَلُهُ مِنْ قَضايا مُخْتَلِفَةٍ مثل: خلفيّات مفهوم المناسبة، ومفهوم المناسبة في مُختَلَفِ مجالات البَحْثِ اللُّغَويّ، والمناسبة في علوم القرآن، بينَما تَناوَلَ الفَصْلُ الثّاني مفهومَ الانْسِجامِ والتَّوجّهات العامّة لِمُقارَبَتِهِ في المنجَزِ الغربيّ، وما يَنْدَرِجُ تحتَه من مواضيعَ مثل: الانْسِجام في النَّصِّ أو المقارَباتِ اللِّسانيَّةِ القائمةِ على الاتّساق، والانسجام في الذِّهْن، والانسجام في النَّصِّ والذِّهنِ معًا.

البابُ الثّاني: دَورُ المناسبَةِ في تجزِئَةِ الخِطابِ القُرآنيّ، وفيه أربعةُ فُصول، يُناقِشُ المُؤلِّفُ في الفَصلِ الأوَّلِ مِنْها طبيعةَ الوحدَةِ الأساسيَّة الّتي يتكوَّنُ منها الخِطاب أَهِيَ بينَ آياتٍ أم بينَ جُمَلٍ؟، بينما خصَّصَ الفصلَ الثّاني لمُعالَجةِ موضوع الاسْتِئْناف ومَنْزِلَتِه عندَ عُلَماءِ المُناسَباتِ، وما يَشْمَلُهُ من خَلفيّات عند عُلَماءِ المُناسباتِ القُدامى، والاستئناف عند ابن عاشور بِشِقَّيْهِ الابتدائيّ والبَيانِيّ، أمّا الفصل الثّالثُ من هذا الباب فيَعرِضُ فيه الباحثُ دَورَ المُكوِّن الاعتراضيّ في الانسِجامِ الموضعيّ للخِطابِ القرآنيّ، بينَما ناقشَ في الفصلِ الرّابعِ والأخيرِ من هذا الباب دَورَ الاعْتِراضِ في الانسِجامِ الكُلّيِّ للخِطابِ القرآنيّ، وما يتّصِلُ به مِنْ مُناقَشَةِ دَوْرِ الأبْنِيَةِ الكُبْرى والأبْنِيَةِ العُلْيا في تَحليلِ مُناسبَةِ الاعتراض والمُكَوِّن الاعتراضيّ.

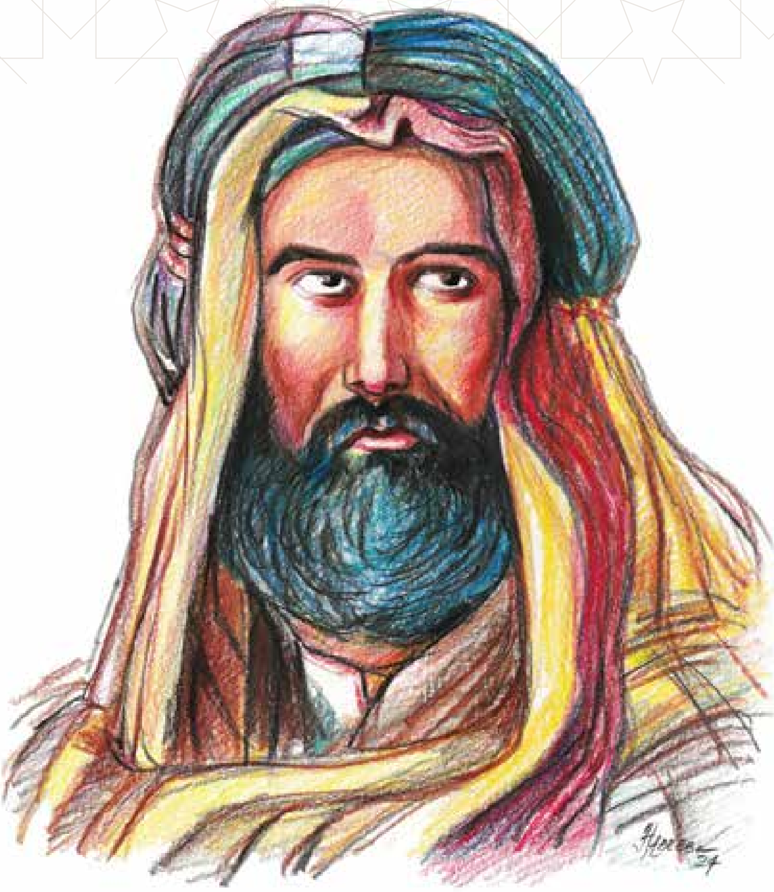
البابُ الثّالث: دَورُ الرَّوابط في انسِجامِ الخِطابِ القُرآنيّ، وفيه ثلاثَةُ فُصول، اعتَنى الأوَّلُ منها بمناقَشَةِ مَنْزِلَةِ الرَّوابِطِ من نَظَريَّةِ الفَصْلِ والوَصْل النَّحويَّة والبلاغيَّة، بينَما رَكَّزَ الثّاني على تَوظيفِ النَّظَرِيَّتَينِ النَّحويَّةِ والبَيانِيَّةِ في تحليل الرَّوابِطِ عند عُلَماءِ المُناسَبَةِ، أمَّا الفصل الثّالث والأخير فقد خُصِّصَ للبحث في العُدولِ عن النَّظَرِيَّتَين النَّحويَّة والبيانيَّةِ في تَحْليلِ الرَّوابط.

البابُ الرّابع: علاقات الانْسِجام في الخِطابِ القُرآنيّ، ويشتملُ على أربعةِ فُصول، بحثَ الأوَّل منها في علاقاتِ الانْسِجامِ في دِراساتِ تَحليلِ الخِطابِ، بينَما ناقَشَ الفَصْلُ الثّاني علاقات الانسجامِ البَيانيِّ في الخِطابِ القُرآنيّ، أمَّا الفصلُ الثّالث فقد بحثَ العلاقات السَّبَبيَّةَ في الخطاب القرآنيّ، وأمَّا الفصلُ الرّابِعُ والأخير فقد عُنِيَ بدراسة العلاقات الجمعِيَّةِ الخطابِ القُرْآنِيّ.



خلال تسلم الجائزة

وقد خَلُصَت الدِّراسَةُ إلى مجموعة من النَّتائج أهمُّها: أنَّ الانْسِجامَ يقْتَرِبُ من كونه خاصيَّةً للتَّمَثُّلِ الذِّهنيِّ للخِطابِ أكثَرَ من اقْتِرابِهِ من الخِطابِ نَفْسِه، وأنَّ المُتَكَلِّمَ يعمدُ إلى تَدعيم خِطابِهِ بالدَّلائِلِ والقَرائِنِ المُساعِدَةِ للمُخاطَبِ على بناءِ تَمَثُّلٍ ذِهْنِيٍّ للخِطاب هو أَقْرَبُ ما يَكونُ إلى تَحقيقِ مقاصِدِ المُتَكَلِّم، لكنَّ مُعطَياتِ السّياقِ والمقامِ تَفْرِضُ نَفْسَها على المُتَكَلِّمِ والسّامِع، فيَكونُ لها دَورٌ في تَحْديدِ تَمَثُّلِ السّامِعِ، مِمّا يَجْعَلُ التَّمَثُّلَ النّاشِئَ عن الخِطابِ مُخْتَلِفًا بالضَّرورَةِ عن التَّمَثُّلِ الّذي نَشَأَ منه الخِطاب، ولهذا يَكونُ تَقْدير الانْسِجامِ في الخِطابِ الواحِدِ مُخْتَلِفًا مِنْ مُخاطَبٍ إلى آخر، بل قدْ يَخْتَلِفُ لدى المُخاطَبِ الواحِدِ حسْبَ ما تَلوحُ له بِهِ الإمْكاناتُ المُتَعَدِّدَة، كما أشارَ الباحِثُ إلى أنَّ اعتمادَ عُلَماءِ المُناسَباتِ على نَظَرِيَّةِ الفَصْلِ والوَصْلِ في تحليل الخِطابِ القرآنيّ قد أَثْبَتَتْ عَجْزَها عن تَفْسيرِ الكَثيرِ مِن وَقائِعِ الخِطاب، مِمّا أدّى بهم إلى تَطْويرِ عَدَدٍ مِنَ المَفاهيمِ لتَكونَ أكثَرَ مُلاءمةً لوقائِعِ الخِطاب، ومن ذلك مثلاً تطويرِ مفهومَي التَّعقيب والمهلة، واستِبْدالُهُما بمفهومَي التَّفريع والتَّراخي، وهُما مَفْهومانِ قادِرانِ على اسْتيعابِ كُلِّ أَنواعِ العَلاقاتِ الأدبيَّة والتَّداوليَّة، وقد أَوصى الباحِثُ بتَخصيصِ الانْسِجامِ الإحاليّ بِبَحثٍ مُسْتَقِلٍّ؛ لأنَّه لم يتَناوَلْه في بَحثِه.



ابنُ سِنَانٍ الخَفَاجيُّ وكتابُه «سِرُّ الفَصَاحَةِ»



د.حنين إبراهيم معالي
دكتوراه لغة عربية/ الأردن

التَّعريفُ بمؤلِّفِ الكتابِ:

مؤلِّفُ كتابِ سرِّ الفصاحةِ هو أبو محمّدٍ عبدُ الله بنُ محمّدِ بن سعيدِ بن سِنانٍ الخفَاجيُّ الحلَبيُّ، يتّصلُ نسبُه بخفَاجةَ، وهي بطنٌ من قبيلةِ هـوازنَ، استوطنت الجزيرةَ العربيّةَ، ومع هجراتِ القبائلِ منَ الجزيرةِ العربيةِ، ذهبتِ القبيلةُ إلى الجزيرةِ الفُراتيّةِ، حتى بلغتْ حلَبَ، ولذلك انتسبَ ابنُ سنانٍ إلى حلَب.

ومن كُتبِ ابنِ سنانٍ: كتابُ سرِّ الفصاحةِ، أمّا بقيةُ كتبِه الأخرى فقد ضاعت، وتذكرُ كتبُ التّراجمِ منها: «العادلُ في الإمامةِ»، وكتابَ «حِكَمٌ منثورةٌ»، وكتابَ «العَروضُ» وغيرَها. وله أيضًا ديوانُ شعرٍ مطبوعٌ، ويَغلبُ على ديوان شعرِه قصائدُ في المديحِ والرِّثاءِ، فهو أديبٌ أيضًا.

توفي ابنُ سنانٍ عام (466هــ) (1)

كتابُ«سِرُّ الفصاحةِ»:

إنّ عُنوانَ الكتابِ قد وُضِــعَ على مخطوطاتِ الكتابِ جميعِها، وينسجمُ عُنوانُه مع الهدفِ الذي أراد المؤلّفُ أن يُحقّقَه، وهو البحثُ عن ماهيّةِ الفصاحة وحقيقتِها، وقدِ اختلفَ النّاسُ في تحديدِ ماهيّتِها، فمؤلّفُ الكتابِ وجدَ أنَّ منَ الضّروريِّ الوقوفَ على ماهيّةِ الفصاحةِ وسرِّها، وقد أشارَ إلى تأثيرِ الفصاحةِ في العلومِ الأدبيّةِ، ويَتبيّنُ هذا التّأثيرُ بدراسةِ نظْمِ الكلامِ ونقْدِه، بالإضافةِ إلى أنَّ للفصاحةِ أثرًا في العلومِ الشَّرعيَّةِ؛ لأنّها مُتّصلةٌ في البحثِ عن وجوهِ الإعجازِ القرآنيِّ(2)، وقد حُقّقَ الكتابُ مرّاتٍ عدّةً منها: تحقيقُ الدّكتورِ النّبوي عبد الواحد شعلان في عام (2003)، نشرتْه دارُ قباء في القاهرةِ، وهي الطّبعةُ التي اعتمدتُها في هذه المقالةِ، وقدِ اعتمدَ محقّقُها فيها على مخطوطتَين هما: مخطوطةُ معهدِ المخطوطاتِ مكتوبةٌ بخطِ النّسخِ، ومخطوطةٌ أخرى عثرَ عليها المحقّقُ في المكتبةِ المركزيّةِ في جامعةِ الإمامِ محمّدِ بنِ سعودٍ الإسلاميّةِ في الرّياض.

وإنَّ القارئَ لهذا الكتابِ يجدُ أنَّ مؤلِّفَه وضعَ له مُقدّمةً بيّنَ فيها سببَ



تأليفِه للكتاب، والموضوعاتِ التي عالجَها فيه، ويظهرُ سببُ تأليفِ الكتابِ واضحًا في قوله: «أمّا بعدُ فإنّي لمّا رأيتُ النّاسَ مُختلفِين في ماهيّةِ الفصاحةِ وحقيقتِها أودعتُ كتابِي هذا طرَفًا من شأنِها، وجملةً من بيانِها، وقرّبتُ ذلك على النّاظرِ، وأوضحْتُه للمتأمّلِ، ولم أَمِلْ بالاختصار إلى الإخلالِ، ولا مع الإسهابِ إلى الإملالِ..»، ويقول: «واعلم أنّ الغرضَ بهذا الكتابِ إذا كان معرفةَ حقيقةِ الفصاحةِ، والعلمَ بسرِّها، فمنَ الواجبِ أن نبيّنَ ثمرةَ ذلك وفائدتَه لتقعَ الرّغبةُ»(3)، ويُبيّنُ المؤلّفُ الفائدةَ الحاصلةَ منَ التّأليف في الفصاحةِ بالنّسبة إلى القارئِ، فمعرفةُ الفصاحةِ مهمّةٌ في العلوم الأدبيّةِ، والعلومِ الشّرعيّةِ التي تساعدُ في الوصولِ إلى إعجازِ القرآن الكريمِ(4).

ويشيرُ المؤلِّفُ إلى خصوصيّةِ كتابِه عنِ المؤلَّفاتِ التي سبقتْه، وذلك واضحٌ في قوله: "فإذا أعانَ الله تعالى ويسّرَ تمامَ كتابِنا هذا كان مُفردًا بغيرِ نظيرٍ منَ الكتبِ في معناه؛ وذلك أنّ المُتكلّمين، وإن صنّفُوا في الأصواتِ وأحكامِها، وحقيقةِ الـكلامِ ما هو، فلم يُبيّنوا مخارجَ الحروفِ وانقسامَ أصنافِها، وأحكامَ مجهورِها ومهموسِها، وشديدِها ورخْوِها، وأصحابُ النّحوِ وإن أحكمُوا بيانَ ذلك، فلم يذكرُوا ما أوضحَه المتكلّمون الذي هو الأصلُ والأسُّ، وأهلُ نقدِ الكلامِ فلم يتعرّضُوا لشيءٍ من جميعِ ذلك، وإن كان كلامُهم كالفرعِ عليه»(5).

فهنا يذكرُ المؤلّفُ تفرّدَ كتابِه على غيرِه منَ النّحويّين والمُتكلّمين ونُقّادِ الأدب.

وكتابُ «سرُّ الفصاحةِ» فيه حديثٌ مفصَّلٌ في الأدبِ والنّقدِ والبلاغةِ، يعتمدُ حُسْنَ التّأليفِ في بيان أسرارِ الفصاحةِ والبلاغةِ وأوصافِها على مستوَى الصّوتِ، والحرفِ، واللّفظِ، والسّياقِ الشّكليِّ والمعنويِّ، وقد ألّفَ ابنُ سنانٍ هذا الكتابَ في القرن الخامسِ الهجريِّ، وسارَ على ما سارَ عليه المؤلِّفون في زمانِه، فحدَّدَ مفهومَ الفصاحةِ والبلاغةِ، وتحدَّثَ عن إعجازِ القرآنِ، وجمعَ مجموعةً كبيرةً منَ الأفكارِ والنّظريّاتِ والقواعدِ التي ذُكِرَت في كتبٍ بلاغيّةٍ ونقديّةٍ ونحويّةٍ سبقتْه، واعتمدَ ابنُ سنانٍ في منهجِه على المنطقِ في الأساسِ، وكان يذكرُ الحُجَجَ ويناقشُ الآراءَ، ويذكرُ رأيَه في بعضِ القضايا، ويذكرُ نماذجَ منَ الشّعرِ والقرآنِ والنّثرِ؛ ليدلّلَ على بعضِ القضَايا النّقديةِ والأدبيّةِ التي ساقَها، ويمكنُ القولُ إنّ ابنَ سنانٍ حاولَ أن يكونَ موضوعيًّا في كتابِه فلا يتّبعَ الهوَى، كما حاولَ أن يبثَّ بعضَ آرائه في الكتابِ من خلال مناقشتِه لبعضِ القضايا المختلفةِ، ومناقشتِه لبعضِ الآراءِ التي ذكرَها من قبْلِه النّقّادُ والأدباءُ(6).

اعتمدَ ابنُ سنانٍ في منهجِه على المنطقِ في الأساسِ، وكان يذكرُ الحُجَجَ ويناقشُ الآراءَ، ويذكرُ رأيَه في بعضِ القضايا، ويذكرُ نماذجَ منَ الشّعرِ والقرآنِ والنّثرِ.

وتنبعُ أهميّةُ هذا الكتابِ من خلالِ القضايا النّقديّةِ المختلفةِ التي عرضَها، وقدّمَ للقارئِ مادّةً أدبيّةً ولُغويّةً ونقديّةً يستطيعُ الإفادةَ منها، ونجدُ أنَّ المؤلّفَ تأثّرَ بالعديد منَ الكتبِ والمؤلّفاتِ التي أُلّفت قبْلَ سرِّ الفصاحةِ، وكان يذكرُهم صراحةً عند الوقوفِ على آرائِهم، وقد لا يذكرُهم، فقد تأثّرَ بابنِ جنّي في حديثه عنِ اللّغة والأصـواتِ في كتابِه "سرُّ صناعةِ الإعرابِ"، وكذلك تأثّرَ في حديثِه عنِ الأدبِ والشّعرِ بكثيرٍ منَ الكُتّابِ ومنهم: ابنُ قتيبةَ في «الشّعرُ والشّعراءُ»، والجاحظُ في كتابِ «البيانُ والتّبيينُ» ولا سِيما في حديثِه عنِ البلاغة والفصاحةِ،

وقُدامةُ بنُ جعفر في «نقدُ الشّعرِ» في حديثِه عن حدِّ الشّعر، وعيوبِه، وعيوبِ القوافي، وغيرِها، بالإضافة إلى المُبرِّد في كتابه «الكاملُ» والآمديِّ في الموازنةِ والصّوليّ في أخبار أبي تمّام، وغيرِها منَ الكُتب(7)

ويذهبُ بعضُ النّقّادِ إلى تأثُّرِ ابن سنانٍ بأبي العلاءِ المعريِّ.

ومن أهمِّ النّقّادِ والبلاغيّين الذين تأثّروا بكتابِ ابـنِ سنانٍ «سرُّ الفصاحةِ» ابنُ الأثيرِ في كتابَيْه: «المثلُ السّائرُ» و«الجامعُ الكبيرُ»، وقد صرَّح ابنُ الأثير في «المثلُ السّائرُ» بإعجابِه بكتابِ سرِّ الفصاحةِ لابنِ سنانٍ(8)، ونظرًا إلى أهمّيّة هذا الكتابِ سأتحدّثُ عن محتواه، وأهمِّ القضايا النّقديةِ التي وردت فيه:

بدأ المؤلفُ كتابَه «سرُّ الفصاحةِ» بمقدّمةٍ بيّنَ فيها سببَ تأليفِ الكتابِ، ثمّ جعلَ الكتابَ يتألَّفُ من عشرة فصولٍ:

* **فصْلٌ في الأصواتِ**: ومنَ الأمورِ التي تحدّث عنها: الأصواتُ واشتقاقُها، وطريقةُ إدراكها.

* **فصْلٌ في الـحـروفِ**: وتحدّث فيه عن معنى الحرفِ وتسميتِه، ومخارجِ الحروفِ في العربيّةِ، واختلافِها باختلاف مقاطعِ الأصوات، وتقسيمِ الحروف حسبَ مخارجِها، وناقش بعضَ آراءِ العلماء في قضايا الحرفِ والأصواتِ.

* **فـصـلٌ فـي الـــكـلامِ**: تحدّث فيه عنِ الاخـتـلاف في تعريفِ الكلامِ، واخـتـلافِ العلماء فيه، وأقسامِه، بالإضافة إلى الحديث عنِ الكلام المهملِ والمستعملِ، ورأيِ النَّحويّين في الكلام.



* **فصلٌ في اللّـغـة**: تحدّث فيه عن تعريف اللّغةِ، وذكرَ ميزةَ اللّغةِ العربيّةِ واتساعَها وفضلَها على كلّ اللّغاتِ، واختصاصَ اللّغة العربيّةِ بوجودِ حرفَي الضّاد والظّاء فيها دون غيرها منَ اللّغات، وتحدّث عن قضيةِ هلِ اللّغةُ توقيفيّةٌ أم مُواضعةٌ، وذهبَ ابنُ سنانٍ إلى أنَّ اللّغةَ مُواضعةٌ وليست توقيفًا؛ لأنّها لو كانت توقيفًا لمَا استطعْنا أن نضيفَ على اللّغة أيَّ مُفردةٍ جديدةٍ.

* **فصلُ الكلامِ في الفصاحةِ**: ذكرَ فيه المؤلّفُ تعريفَ الفصاحةِ، والفرقَ بين الفصاحةِ والبلاغةِ من حيث إنّ الفصاحةَ مقصورةٌ على الألفاظ، أمّا البلاغة فتختصُّ بالألفاظ مع معانيها، كما ذكرَ بعضَ تعريفاتِ البلاغةِ عند بعض النّقّادِ الّذين سبقوه مثل: الجاحظِ وردَّ عليها، وهو أيضًا جعلَ الفصاحةَ تشتملُ على فصاحة اللّفظةِ المفردةِ ووضَعَ لها شروطًا مثل: أن يكونَ تأليفُ اللّفظةِ من حروفٍ متباعدةِ المخارجِ.

* **فصلُ الكلامِ في الألفاظِ المُؤلَّفةِ**: تحدَّث عنِ فصاحة الألفاظِ المؤلَّفةِ وشروطِها ومنها: حُسْنُ التَّأليفِ في الموضوع المختارِ، وأن تكونَ الألفاظُ الّتي تتألّفُ منها العباراتُ تلتزمُ بالشّروطِ الّتي وضعَها في الفصلِ السّابقِ، وذكرَ أمثلةً منَ الشّعر والنّثر والقرآن توضّحُ ما ذَهَبَ إليه، وناقشَ آراءَ قُدامةَ بنِ جعفر في كتابه «نقدُ الشّعر»، وتحدّث عنِ القافية وعيوبِها أيضًا وعنِ السّجعِ، والفواصلِ القرآنيّةِ.

* **فصلُ الكلامِ في المعاني المُفردةِ**: يرى المؤلّفُ أنّه منَ الصّعب أن نحصرَ المعانيَ جميعَها، ونضعَ لها شروطًا، ومنَ الشروط التي وضعَها: الصّحةُ والكمالُ والمبالغةُ، الصّحةُ

في التّقسيم، صحّةُ التّشبيه، صحّةُ التّفسير والتّعليل وغيرُها، والقارئُ يجدُ في هذا الفصل والفصلِ السّابق تأثُّرَ ابنِ سنانٍ الخفَاجيِّ الصّريحَ بقدامةَ بنِ جعفر حتّى إنّه في بعض الأحيان يذكرُ اسمَه.

* **فصلُ ذكرِ الأقوالِ الفاسدةِ في نقدِ الكلام:** ذكرَ المؤلّفُ في هذا الفصل بعضَ آراءِ النُّقّادِ التي رآها فاسدةً وردَّ عليها، ومن أهمِّ القضايا التي طرَحَها في هذا البابِ قضيّةُ أشعارِ القُدماءِ والمُحدَثين، وذكرَ آراءَ كلٍّ منَ الأصمعي، وابنِ قُتيبة وغيرِهما.

* **فصلُ ذكرِ الفرقِ بينَ المنظومِ والمنثور:** فرّق المؤلّفُ بين المنظوم والمنثور، وعرّفَ الشّعرَ بأنّه: "قولٌ موزونٌ مُقفّى يدلُّ على معنًى"، وتحدّث عنِ اشتقاق كلمةِ الشّعرِ، وتَحَدَّثَ عنِ التّفضيل بين المنظوم والمنثور وميزةِ كلٍّ منها وخصائصِه.

* **فصلٌ:** ذكرُ ما يحتاجُ مؤلّفُ الكلام إلى المعرفةِ به: وهنا ذكرَ المؤلّفُ الأدواتِ التي يَحْتاجُ إلَيْها الأديبُ حتّى يكون أديبًا، ومنها: معرفةُ اللّغةِ ودلالةِ مفرداتِها، ومعرفةُ النّحو لتجنُّبِ اللَّحْنِ، ويحتاجُ الشّاعرُ إلى معرفةِ الأوزانِ الشّعريّةِ، كما أنّه منَ الضّروريّ أن يكونَ عارفًا بأخبارِ العربِ وأنسابِها وأمثالِها، ومنَ المهمِّ أن يكونَ الأديبُ مَطْبوعًا في أدبِه، وأن يتجنَّبَ التَّكلّفَ(9).

وقدِ اهتمَّ الكتابُ بمجموعةٍ منَ القضايا النَّقديةِ، من أبرزِها:

* **معنَى الفصاحةِ عندَ ابنِ سنانٍ:** يقول ابنُ سنانٍ في معنى الفصاحة: «الفصاحةُ الظّهورُ والبيانُ، ومنها أَفْصَحَ اللَّبَنُ إذا انجلتْ رَغوتُه، وفَصُحَ فهو فَصيحٌ، قال الشّاعرُ: وتحت الرّغوةِ اللَّبَنُ الفصيحُ، ويقال: أَفْصَحَ الصُّبحُ إذا بدا ضوءُه، وأَفْصَحَ كلُّ شيء إذا وضحَ...»، ويقول أيضًا: «وسُمّيَ الكلامُ الفصيح فصيحًا – كما سَمَّوْهُ بيانًا – لإعرابِه عما عبّرَ به عنه، وإظهارِه له إظهارًا جليًّا. رُويَ عنِ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «أنا أفصحُ العرب، بَيْدَ أنّي من قريش»، والفرقُ بين الفصاحةِ والبلاغةِ، أنّ الفصاحةَ مقصورةٌ على وصفِ الألفاظِ، والبلاغةُ لا تكونُ إلّا وصفًا للألفاظ مع المعاني.

يقول ابنُ سنانٍ في معنى الفصاحة: «الفصاحةُ الظّهورُ والبيانُ، ومنها أَفْصَحَ اللَّبَنُ إذا انجلتْ رَغوتُه»

يشترطُ ابنُ سنانٍ للسّجعِ شروطًا حتى يكونَ محمودًا فهو يقولُ: «والمذهبُ الصّحيحُ أنّ السّجعَ محمودٌ إذا وقع سهلًا متيسّرًا بلا كُلفةٍ ولا مشقّةٍ»

لا يُقالُ في كلمةٍ واحدةٍ لا تدلُّ على معنًى يَفضُلُ عن مثلِها بليغةٌ، وإن قيل فيها فصيحةٌ. وكلُّ كلامٍ بليغٍ فَصيحٌ وليس كلُّ فصيحٍ بليغًا، كالّذي يقعُ فيه الإسهابُ في غير موضعِه»(10).

فقد ذكرَ المؤلّفُ المعنى اللُّغويَّ والمعنى الاصطلاحيَّ للفصاحةِ وفرّقَها عنِ البلاغة، فالفصاحةُ وصفٌ للألفاظ، أمّا البلاغةُ فهي وصفٌ للألفاظ مع معانِيها.

ويشيرُ ابنُ سنانٍ أنّه من معانِي الفصاحةِ أيضًا «حُسْنُ التّأليفِ في الموضوعِ المختارِ»(11).

* **سببُ إعجازِ القرآنِ الكريم عندَ ابنِ سنانٍ:** يُرجِعُ ابنُ سنانٍ إعجازَ القرآنِ الكريم إلى مَذْهَبِ الصَّرْفَةِ فهو يقولُ موضّحًا معنَى الصَّرفة: «وإذا عدنا إلى التّحقيقِ وجدنا وجْهَ إعجازِ القرآنِ صَرفَ العربِ عن معارضتِه بأن سلبُوا العلومَ التي كانوا يتمكّنون منَ المعارضةِ في وقت مرامِهم ذلك، وإذا كان الأمرُ على هذا فنحن بمعزلٍ عنِ ادّعاء ما ذهبَ إليه من أنَّ بين تأليفِ حروفِ القرآن وبين غيرِه من كلام العرب كما بين المُتنافرِ والمتلائم»(12)، ويُظهرُ ابنُ سنانٍ بذلك بعضَ الآراءِ في إعجازِ القرآن الكريم، فمنهم من يقولُ: بالصّرفة، ومنهم من يرى إعجازَ القرآنِ في فصاحتِه ما بين المُعجزِ والمُمكنِ.

* **السَّجعُ:** ويشترطُ ابنُ سنانٍ للسّجعِ شروطًا حتى يكونَ محمودًا فهو يقولُ: «والمذهبُ الصّحيحُ أنّ السّجعَ محمودٌ إذا وقع سهلًا متيسّرًا بلا كُلفةٍ ولا مشقّةٍ، وبحيث يظهرُ أنّه لم يقصدْ في نفسِه ولا أحضره إلّا صدقُ معناه دون موافقة لفظِه، ولا يكونُ الكلامُ الذي قبْله إنّما يتخيّلُ لأجلِه وورد ليصيرَ وصلةً إليه، فإنّا متى حمِدنا هذا الجنسَ منَ السَّجعِ كنّا قد وافقنا دليلَ من كرهَه وعَمِلْنا بمُوجبِه؛ لأنّه إنّما دلّ على قُبحِ ما يقعُ منَ السَّجعِ بتعمّلٍ وتكلّفٍ».

وفصلَ بين السّجع في النّثر وبين ما سمّاه الفاصلةَ القرآنيّةَ، وبيَّن سببَ تسميتِها بذلك، وفي هذا يقول: «فأمّا الفواصلُ التي في القرآن فإنّهم سمَّوها فواصلَ ولم يسمُّوها أسجاعًا وفرَّقوا فقالوا: إنَّ السَّجعَ هو الذي يُقصَدُ في نفسه ثمَّ يُحمَلُ المعنى عليه، والفواصلُ التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودَة في أنفسها»(13)، ويرفضُ ابنُ سنانٍ أن يجعل الرّسالةَ كلَّها مسجوعةً على حرفٍ واحدٍ؛ لأنّ ذلك سيؤدّي إلى التَّكرارِ والتَّكلُّفِ(14).

* **الغُموضُ**: يرى ابنُ سنانٍ أنّ من شروط الفصاحةِ أن يكونَ معنَى الكلامِ واضحًا، فلا يحتاجُ المُتلقّي إلى جُهْدٍ في استخراج معناه، وهذا ينطبقُ على الشّعرِ والنّثرِ، ولذلك فإنّه يرَى أنَّ الغموضَ يحدثُ لستّةِ أسبابٍ: اثنان منها في اللّفظِ، واثنان في الألفاظِ المؤتلفةِ، واثنان في المعنَى.

فالغُموضُ في اللَّفظ يحدثُ عندما تكونُ الكلمةُ غريبةً من وحشيِّ اللّغةِ، وعندما تكونُ اللَّفظةُ مِنَ الأسماء المشتركةِ مثل الصّدَى: وهو العطشُ، وارتدادُ الصَّوت.

> **يـرى ابـنُ سـنـانٍ أنّ من شروطِ الفصاحةِ أن يكونَ معنَى الكلامِ واضحًا، فلا يحتاجُ المُتلقّي إلى جُهْدٍ في استخراجِ معناه، وهذا ينطبقُ على الشّعرِ والنّثرِ**

وفي الألفاظِ المؤلّفةِ يحدثُ الغموضُ من خلال فرطِ الإيجازِ، وإغلاقِ النّظمِ مثل المنطقِ عند أرسطو.

أمّا في المعنَى فيكونُ الغموضُ عندما يكونُ المعنَى دقيقًا، وأن يحتاجَ المعنَى إلى مُقدّماتٍ لفهمِه(15).

* **المُبالغةُ والغُلُوّ**: وفي ذلك يقولُ: «وأمّا المبالغةُ في المعنَى والغلوّ: فإنّ النّاس مُختلفون في حمْدِ الغُلُوِّ وذمِّه فمنهم من يختارُه ويقولُ: أحسنُ الشّعرِ أكذبُه، ويستدلُّ بقولِ النّابغةِ، وقد سُئلَ: من أشعرُ النّاس؟ فقال: مَنِ استُجيد كذبُه، وأُضحك رديئُه، وهذا هو مذهب اليونانيّين في شعرهم. ومنهم من يكرهُ الغُلوَّ والمبالغةَ التي تخرجُ إلى الإحالة، ويختارُ ما قاربَ الحقيقةَ ودانى الصّحةَ» وهنا نلاحظُ أنَّ ابنَ سنانٍ عرضَ رأيَ الفريقَين، ويذهبُ مع الفريق الأول فيميلُ إلى المبالغة في الشّعر، على أن يستخدمَ في ذلك ألفاظًا تدلُّ عليها مثل: كادَ وما يجري مَجراها(16).

* **القديمُ والحديثُ**: يذكرُ ابنُ سنانٍ رأيَ النُّقّادِ في قضيةِ القديمِ والحديثِ، ويرَى أنّ الفريقَ الأوّلَ يفضّلُ الشّعرَ القديمَ لمجرّدِ التّقدّمِ في الزّمن، وهذا جهلٌ في رأيِه.

أمّا الفريقُ الثّاني فيذهبُ إلى تفضيل القديم؛ لأنَّ لهم فضيلةَ السَّبْقِ في المعاني. وفريقٌ آخرُ يذهبُ إلى تفضيل الشّعرِ القديم، لأنَّ شعرَ القدماءِ مطبوعٌ، أمّا شعرُ المُحْدَثين فمتكلَّفٌ.

أمّا ابنُ سنانٍ فإنّه يفضّلُ الاستشهادَ بالشِّعْرِ القديم ليس للزّمن الذي قيلَ فيه، ولكن لأنَّ العربَ اختلطُوا بعد حِقْبة عصرِ الاحتجاجِ بغيرِ العربِ(17).

---

(1) الأنصاري، سليم: كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي: تحقيق ودراسة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، العراق، 1975م، ص6، ص30-32.
(2) المرجع نفسه، ص56، ص60.
(3) الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، تح: النبوي عبد الواحد شعلان،(د.ط)، دار قباء، القاهرة، (2003)، ص3.
(4) المصدر نفسه، ص4.
(5) المصدر نفسه، ص5.
(6) ابن عمر، بلملياني، قضايا الأدب والنقد في سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، رسالة ماجستير غير منشورة، ،الجامعة الأردنية، الأردن، 1988 م، ص360،356،354،352،350.
(7) الربداوي، محمود، المتخير من كتب النقد العربي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ص294.
(8)المرجع نفسه، ص294-295.
(9) انظر الكتاب كاملاً: الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، تح: النبوي عبد الواحد شعلان،(د.ط)، دار قباء، القاهرة، (2003).
(10) المصدر نفسه، ص66-67.
(11) المصدر نفسه، ص129.
(12) المصدر نفسه، ص135.
(13) المصدر نفسه، ص253-254.
(14)المصدر نفسه، ص262.
(15)المصدر نفسه، ص231-232.
(16)المصدر نفسه، ص405-406.
(17) المصدر نفسه، ص423،416.



مِن أعْلامِ العَرَبِيّة

- الوَجْهُ الآخَرُ لأهْجَى شُعراءِ العَرَبِ «الحُطَيْئَةِ»

- «العلَّامَةُ (أبو فِهر) الأستاذُ محمود محمد شاكر.. أشواقٌ لا تَنطفئُ..

الوَجْهُ الآخَرُ لأهْجَى شُعراءِ العَرَبِ «الحُطَيْئَةِ»

الحُطَيْئَة لقبٌ غلبَ على ذلك الشّاعرِ الذي عُرِفَ بلُؤمِ طباعِه وخُبثِ لِسانِه وضَعفِ إيمانِه، وهو الذي عقَّ أُمَّه ولم يعرفْ أباه، ورغمَ هذا كانت رِقَّةُ قلبِه تظهرُ في بعضِ الأحيانِ فتدفعُنا إلى التّعاطفِ معه، وهذا لأنّه كما يبدُو من سيرتِه ليس شرِّيرًا بطبعِه؛ وإنّما لظروفٍ قاسيةٍ فُرِضَت عليه منذ أن وُلِد.

لقد كان الحُطَيئةُ رجلًا عجيبًا يجمعُ بين دَناءةِ النّفسِ والبخلِ وقُبحِ المنظرِ، وبينَ العطفِ والحنانِ البالغِ على أطفالِه وزوجتِه، وما كان حبُّه للهجاءِ إلّا لمرارةٍ في نفسِه، وحِرمانٍ مؤلمٍ صنعَ منه ذاك الشّخصَ الغضوبَ المُتشائمَ الذي يَحبسُه الفاروقُ عمرُ بنُ الخطّابِ رضيَ الله عنه.

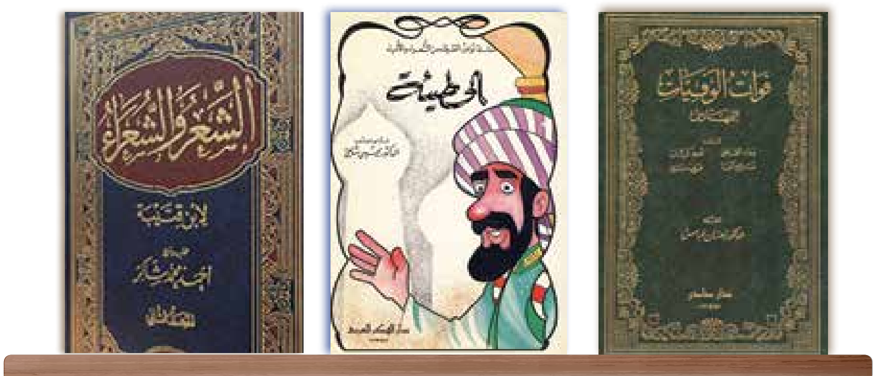


حاتم السروي
شاعر وقاصّ/ مصر

ثمّ يَرِقُّ له ويُخرجُه منَ الحبسِ ويَنهاه عنِ الهجاءِ، فيقولُ: إذن تموتُ عيالِي جُوعًا، هذا مكسبِي ومنه معاشِي! فيقولُ عمر: إياك والمُقْذِعَ. قال: وما المُقذِعُ؟ قال: أن تُخَايِرَ بين النّاس فتقولُ: فلانٌ خيرٌ من فلان، وآلُ فلان خيرٌ من آلِ فلان. قال الحُطيئةُ: فأنت والله أهجَى منّي! فغضبَ عمرُ وقال: لولا أن تكونَ سُنَّةً لقطعتُ لسانَه.

وهذه القصّةُ التي رواها الكُتُبِيُّ في الجزءِ الأول من "فَوَاتُ الوَفَيَاتِ" واحـدةٌ من قصصٍ عـدّةٍ حاز بها الحطيئةُ مكانًا ومكانةً بين كبار شُعراءِ العربيّةِ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى بين الأشرارِ الظُّرَفَاءِ؛ فما أصلُ حكايةِ هذا الرّجل؟.

اسمُهُ الحقيقيُّ جَرْوَلُ بنُ أَوْسِ بنِ مالكِ بن جُؤَيَّةَ بنِ مخزومِ بنِ مالكِ بنِ غالبِ بنِ قُطَيْعَةَ بنِ عَبْسِ بنِ بغيضِ بن الرَّيْثِ بن غَطَفانَ بنِ سعدِ بن قيسِ بن عيلانَ بن مُضَرَ بن نزار،



ولُقِّبَ الحُطيئةَ لقِصَرِ قامته وقُربه منَ الأرض، أما كُنْيَتُه فهو أبو مُلَيْكَة.

وتُخبرنا مصادرُ ترجمةِ الحُطيئةِ أنّه كان مغمورَ النّسبِ، وهو نسبٌ مُتَدَافَعٌ بين القبائلِ؛ فنراه ينتمي إلى كلِّ واحدةٍ منها إذا غضبَ على الأخرى! والحُطيئةُ منَ المخضرمين إذْ أدرك الجاهليّةَ والإسلامَ، وكان في جملةِ مَنِ ارتدُّوا بعد وفاةِ الرّسولِ صلّى الله عليه وسلم وله في ذلك بيتانِ ذكرَهما الأصفهانيُّ في أغانِيه، فهو يقولُ:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا
فَيَا لَعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِـي بَكْرِ
أَيُورِثُـها بـكـرًا إذا مَـاتَ بعْدَه
وَتلك لعَمْرُ الله قاصِمةُ الظّهْرِ

وتدلُّنا المصادرُ أيضًا على مفتاحِ شقائه وأصل بَلِيَّتِه؛ إذ يقول ابنُ الكلبيِّ: "كان

الحُطيئةُ من أولاد الزّنا الذين شرفُوا" فقد كانت أمُّه جاريةً اسمُها "الضَّرَّاء" وأبوه "أوس بنُ مالك" عرفَ أمَّه ثم تزوّج امرأةً حرّةً، وهي ابنةُ عمرو بنِ عوفٍ من بني شيبانَ بْنِ ذُهْلٍ، فرُزِقَ منه بوليد ثم مات، وأمّا الضَّرَّاءُ أمّ الحُطيئةِ فتزوّجها رجلٌ عبسيٌّ يقال له "الكلب بن كُنَيْس" فولدت له ولدين هي الأخرى! وأصبح للحطيئة أربعةُ إخوة يتقاسمُهما أبوه وأمّه، وكلّهم من عبس.

فلما كَبُرَ الحطيئةُ أتى أَخَوَيْهِ من أبيه، وقال لهما: أَفْرِدَا إليَّ من مالِكُما قطعةً، فقالا: لا، ولكن أقم معنا فنحن نُواسِيك. فأنشد:

أَأَمْرتُمَانِي أَنْ أُقِيمَ عَلَيْكُمَا
كَلاَّ لَعَمْرُ أَبِيكُمَا الحَبَّاقِ
عَبْدَانِ خَيْرُهُما يُشَلُّ بِضَبْعِهِ
شَلَّ الأَجِيرِ قَلائِصَ الوَرَّاقِ

ثمّ إنّه ارتحل إلى اليمامة حتى يلحقَ بأهل امرأةِ أبيه الذُّهْلِيِّينَ، وادّعى أنّه ابن أخيها المعروفِ بالأفقم، وكانت أمّ الحُطيئةِ قد مَوَّهَت عليه بهذا في نشأتِه الأولى فصَدَّقَها بدايةً ثمّ عرفَ الحقيقةَ، على أنّه آثرَ أن يستثمرَ الكَذْبَةَ، وأقبل بعد موتِ الأفقم يطلبُ ميراثَه منه! وجعلَ يقولُ شعرًا يمدحُ فيه بني ذُهْلٍ، ويُصَرِّحُ بانتسابِه إليهم، فكان ممّا قال:

قَومِي بَنُو عَمْرِو ابْنِ عَوْ
فٍ إِنْ أَرَادَ العِلْمَ عَالِمْ

فأشفق عليه أولادُ الأفقم، ومنحُوه نخلاتٍ يأكلُ من تمرِها ويبيعُه، وأصبح اسمُها "نخلات أمّ مُلَيْكَة" وهي كنيةُ امرأةِ الحُطيئةِ، ولم يقنعِ الشّاعرُ بالنّخلات؛ بل



ظلَّ يسألُ ميراثَه كاملاً منَ الأفقم الذي قالت له أمُّه إنّه أبوه، فلم يُعطِه أبناءُ الأفقم شيئًا بل ضربوه، فغضبَ عليهم وأخذ يهجُوهم.

ونَستطيعُ أن نلمسَ ممّا سبقَ حقيقةً هامّةً في حياةِ الحُطَيْئَةِ، وهي أنَّ التّردّدَ في نسبِهِ جَـرَّدَهُ من عصبيّةِ العربِ لقبائلِهم وافتخارِهم بالأنساب، فلهذا قضَى حياتَه مشرّدًا بين القبائلِ ينتسبُ إلى من يرى معهم مصلحتَه، ولم يكن يستحِي مِنَ السّؤال؛ بل يصفُه الأصمعيُّ بأنّه "كان سؤولاً مُلْحِفًا دنيءَ النّفس" وكان يمدحُ من يُكثرُ له العطاءَ، أو يخافُ هو منه، ويهجُو من يمنعُه، حتى صار هَجَّاءً كبيرًا لا يُباريهِ في سِبَابِهِ أحدٌ! بل إنّه احترفَ الهِجَاءَ وجعلَ منه وسيلةً للكسبِ، ولم تكن له مهارةٌ إلّا قولَ الشّعرِ.

ويحكِي لنا ابنُ قتيبةَ في "الشّعر والشّعراء" أنَّ عبدَ الرّحمن بنَ أبي بكرةَ رآه بذات عِرق – وهي أرضٌ بين نجدٍ وتِهامَةَ – فقال: يا أبا مُليكة أيُّ النّاس أشعرُ؟ فأخرج لسانًا دقيقًا كأنّه لسانُ حيَّةٍ، وقال: هذا إذا طَمِعَ.

وكان شاعرُنا في هجائِه لا يرحمُ أحدًا، فنراه يهجُو أقربَ النّاسِ إليه، مثلاً يقولُ في هجاء أمِّه:

جَـزَاكِ اللهُ شَـرًا مِـنْ عَجُـوزٍ
وَلَقَّـاكِ العُقُـوقَ مِـنَ البَنِينِ
فَقَدْ مُلِّكْتِ أَمْـرَ بَنِيكِ حَتَّى
تَـرَكْتِـهِمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

لسانُكِ مِبْرَدٌ لا خيرَ فِيهِ.. وَدَرُّكِ دَرُّ جاذِبَةٍ دَهِينِ والجاذبةُ هنا يعني البخيلةَ، وأصلُها في اللّغة منَ النّاقة التي جذبت لبنَها في ضرْعِها داخلَها فذهبَ صاعدًا، والدّهين هي النّاقةُ قليلةُ اللّبن التي يُمْرَى ضرعُها فلا يتنزّلُ منه قطرةٌ.

وتبدُو عقدتُه الكبرَى من أمِّه وصفاتِها في هذه الأبياتِ، والتي يقولُ فيها:

تَنَحَّيْ فَاجْلِسِي مِنِّي بَعِيدًا
أَرَاحَ اللَّـهُ مِنْـكِ العَالَمِينَا
أَغِـرْبَـالاً إِذَا اسْتُـودِعْتِ سِـرًّا
وَكَـانُـونًا عَلَى المُتَحَدِّثِينَا
حَيَاتُكِ مَا عَلِمْتُ حَيَاةُ سُوءٍ
وَمَـوْتُـكِ قَدْ يَسُرُّ الصَّالِحِينَا

وهجا أباه أيضًا فكان ممّا قال:

لَحَاكَ اللَّـهُ ثُـمَّ لَحَاكَ حَقًّا
أَبًـا وَلَـحَـاكَ مِـنْ عَـمٍّ وَخَـالِ
فَنِعْمَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى المَخَازِي
وَبِئْسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى المَعَالِي
جَمَعْتَ اللُّؤْمَ لاَ حَيَّاكَ رَبِّي
وَأَنْـوَاعَ السَّفَـاهَـةِ وَالـضَّلاَلِ

وحُكِيَ عنه أنه كان معتادًا على البذاءة، وذاتَ يومٍ التمس إنسانًا يهجُوه فلم يجدْه، فضاق صدرُه وأنشأ يقولُ:

أَبَتْ شَفَتَايَ الـيَـوْمَ إلَّا تَكَلُّمًا
بِشَرٍّ فَمَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهْ

ويكرّرُ البيتَ ولا يرى إنسانًا، ثم رأى نفسَه في حوضِ مياهٍ، فلمّا طالع قُبحَ وجهِه قال:

أرَى لِيَ وَجْهًا شَـوَّهَ اللهُ خلقَهُ
فَقُبِّحَ مِنْ وَجْـهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

فكان بهذا أوّلَ من هجا نفسَه!.

ورغم هذا كلِّه نلمحُ فيه شيئًا منَ الخيرِ، فهو يحنُو على أُسرتِه ويَرِقُّ لبنيِهِ ويجعلُهم أملَه وغايتَه، وهو الذي قال حينَ سجنَهُ الفاروقُ رضيَ الله عنه يستعطفُه:

مَـاذَا تَقُولُ لأَفْـرَاخٍ بِـذِي مَرَخٍ
زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا مَاءٌ ولا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يَا عُمَرُ

فأخرجه عمرُ، وقيل إنّه لمّا أطلقَه وحتى يُؤكّدَ عليه الحُجّةَ اشترى منه أعراضَ المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

وذات مرّة أراد السّفر فأتته امرأتُه وقالت:

اُذْكُـرْ تَحَنُّنَنَا إلَيْـكَ وَشَوْقَنَا
وَاذْكُـرْ بَنَـاتِكَ إنَّـهُنَّ صِغَارُ

فقال: حطّوا، لا رحلتُ لسفرٍ أبدًا.

وشعرُ الحُطيئةِ متينٌ باتّفاقِ النّقّادِ، وكان راويةً لأشعارِ زُهير بنِ أبي سُلمى وابنِه كعب وآلِه جميعًا، وأجادَ في مدح بني قريعٍ، وفي بعض شعرِه حكمةٌ اكتسبها من معلّمِه زُهير، ثمّ طوّرَها في الأسلوبِ والمضمونِ بفضلِ تأثيرِ القرآنِ الكريمِ، ومن أشعارِه الحكيمة:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ
وَلَـكِـنَّ الـتَّـقِـيَّ هُـوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللهِ خَيْرُ الـزَّادِ ذُخْـرًا
وَعِـنْـدَ الـلـهِ لِلأَتْـقَـى مَـزِيـدُ
وَمَـا لابُـدَّ أَنْ يَـأْتِـي قَـرِيـبٌ
وَلَـكِـنَّ الَّـذِي يَـمْـضِي بَعِيدُ

كما يتميّزُ الحُطيئةُ بالرّقّة، والظّرفِ والفُكاهة، واستعمالِ التّهكّم والسّخريّةِ شديدةِ التّأثيرِ في خصومِه، ويقولُ النّاقدُ اللّبنانيُّ الدكتور «حَنَّا نصر الحتِّي»: «شعرُه متينُ السّبكِ، سليمُ التّركيبِ، يمتازُ مدحُه بالفخامةِ، واستعطافُه بالرّقّةِ، وهجاؤه بشدّةِ الوقعِ والإيلام».

وفي احتضارِه كان الحُطيئةُ لا يتكلّمُ إلّا عنِ الشّعر وبالشّعرِ، إذِ اجتمع إليه قومُه ساعةَ وفاته، فقالوا: يا أبا مُلَيْكَةَ أَوْصِ، فقال: ويلٌ للشّعراء من رُواة السُّوءِ، فأعادُوها عليه قالوا: أوصِ يَرحمك الله، فقال: من هو الذي يقول:

إذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ
تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الْجَنَائِزُ

قالوا: أوْصِ وَيْحك بما يَنْفعُك! قال: أبلغوا أهلَ امْرِئَ القيسِ أنّه أشعرُ العربِ حيثُ يقول:

فيا لَـكَ مِـنْ لَيْلٍ كـأنَّ نُجومَهُ
بِكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ومغارُ الفتلِ هو الحبلُ المُحْكَم..

قالوا: اتَّقِ اللهَ ودَعْ عنكَ هذا؛ قال: أبلِغوا الأنصارَ أنَّ صاحِبَهم (يعني حسّان بن ثابت) أشعرُ العربِ حيث يقول:

يُغْشَوْنَ حتّى ما تَهِرُّ كِلابُهم
لا يَسْألونَ عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ

قالوا: هذا لا يُغني عنك شيئًا، فقُلْ غيرَ ما أنتَ فيه، فقال:

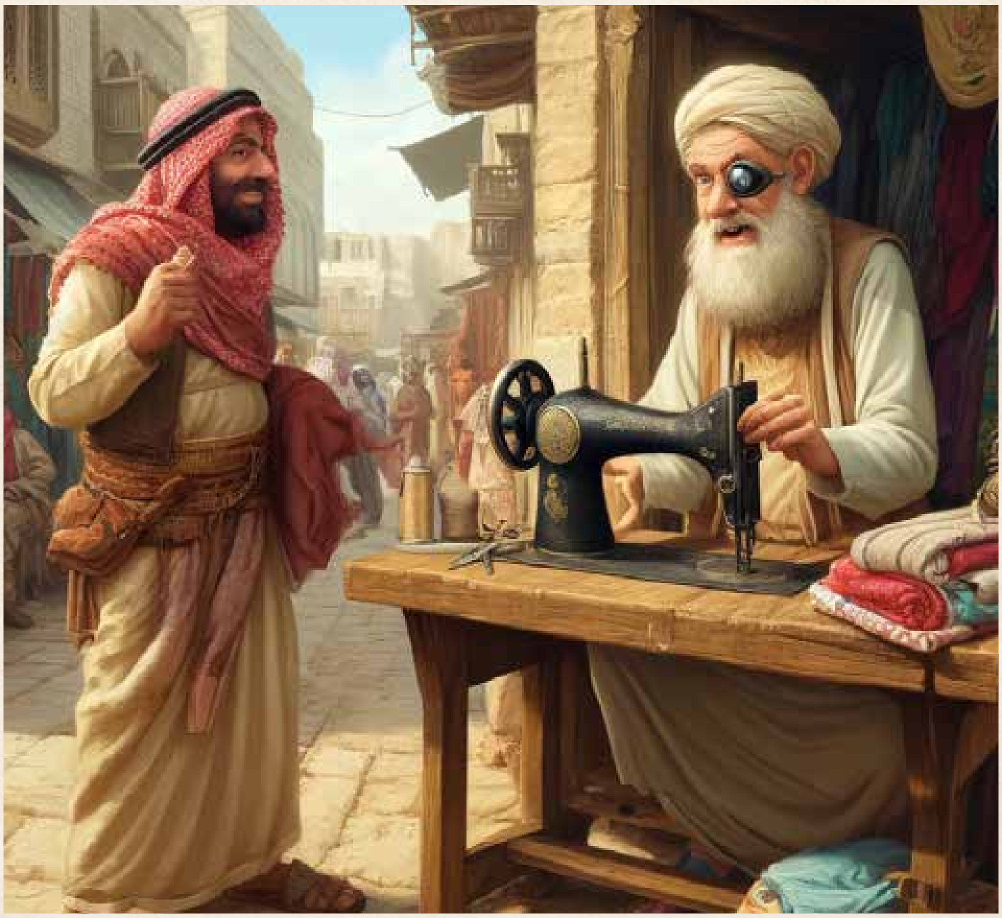
الشِّعْرُ صَـعْـبٌ وطـويـلٌ سُلَّمُهْ
إذا ارْتَقَى فيه الّذي لا يَعْلَمُهْ
زَلَّتْ بِهِ إلى الحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُـرِيـدُ أنْ يُـعْـرِبَـهُ فَيُعْجِمُهْ

ويَستمرُّ الرّواةُ في سردِ خبرِ وصيّتِه العجيبةِ وهو على فراشِ الموتِ، فهو مثلًا يوصِي الفقراءَ بالمسألةِ والإلحاحِ فيها حتى يَضعفَ صبرُ المسئولِ فيُعطيَهم! ويجعلُ للأنثى من بناتِه مثلَ حظِّ الذّكر! أمّا اليتامَى فكلُوا أموالَهم وافعلُوا بأمّهاتِهم! يالهُ من مُعَقَّدٍ، وأخيرًا يطلبُ ممّن معه أن يحملُوه على أتانٍ (أنثى الحمارِ) ويتركُوه راكبًا عليها حتى يموتَ، فإنّ الكريمَ لا يموتُ على فراشِه، والأتانُ لم يمتْ عليها كريمٌ قطّ، فحملُوه على أتانٍ وجعلوا يذهبُون به ويَجيئُون حتى ماتَ وهو يقولُ:

لا أَحَـدٌ أَلْأَمُ مِـنْ حُـطَـيَّـهْ
هَجَا بَنِـيـهِ وَهَـجَـا الـمُـرِيَّـهْ

مِنْ لُؤْمِهِ مَاتَ عَلَى فُرَيَّهْ وكانت وفاتُه سنة 30هـ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفّان رضي الله عنه.

أَعرابِيٌّ وخَيّاطٌ أَعْوَر



رُوِيَ عنِ الأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قال: بَيْنَما كنتُ أَسيرُ في أَحَدِ شَوارِعِ الكوفَةِ رأَيْتُ أَعْرابِيًّا يَحْمِلُ قِطْعَةً مِن القُماشِ، فَسَأَلَني أَنْ أَدُلَّهُ على خيَّاطٍ قريبٍ، فَأَخَذْتُه إلى خيَّاطٍ يُدعَى زَيْدًا، وكانَ أَعْوَر، فَقالَ للأَعْرابِيّ: وَاللهِ لَأَخيطَنَّهُ خِياطَةً لا تَدْري أَقَباءٌ هوَ أَمْ دراج، -والقَباءُ ثوبٌ يُلْبَسُ فوقَ الثِّيابِ أو القَميص، أمّا الدّراج فهو لِباسٌ يوضَعُ تحتَ الثَّوبِ- فَقالَ الأَعْرابِيُّ: واللهِ لَأَقولَنَّ فيكَ شِعْرًا لا تَدْري أَمَدْحٌ هُوَ أَمْ هِجاءٌ، فَلَمَّا أَتَمَّ الخَيَّاطُ الثَّوْبَ أَخَذَهُ الأَعْرابِيُّ وَلَمْ يَعْرِفْ أَيَلْبَسُه على أَنَّهُ قَبَاء أو دراج، فَقالَ في الخَيّاطِ:

خاطَ لي زَيْدٌ قَبَاءْ
لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَواءْ

فَلَمْ يَدْرِ الخَيَّاطُ أَهُوَ دُعاءٌ لَهُ أَمْ دُعاءٌ عَلَيه.



من حُرّاسِ اللّغةِ العربيّةِ

العلّامَةُ (أبو فِهر) الأستاذُ محمود محمد شاكر.. أشواقٌ لا تَنطفئُ..

عُرف بأنّه شيخُ مشايخ العربيّة، عشقَها، فعشقتْهُ، وهامتْ به، كان متعدّدَ الشّواغلِ فيها، يضربُ في مناكبِها شرقًا وغربًا، وقيل إنّه حارسٌ للتّراث، وَهيَ الحقيقةُ لا مجاملةٌ، أستاذُ جيلٍ، وقائدُ رعيلٍ، قَلَّ أن يجودَ بمثلِه الزّمانُ وقد لا يجودُ . الوضوحُ السّاطعُ هو مفتاحُ شخصيّتِه، هو العلاّمةُ الكبيرُ، الشّيخُ الجليلُ، الأستاذُ محمود محمد شاكر، عليه سحائبُ الرّحمةِ والمغفرةِ..

كان أفرسَ الخلائقِ- في عصره - ببيتِ الشِّعر، فعبْرَ وسائلِ الإعلامِ المرئيّةِ، ها أنا في مساحةِ التّذكارِ هذه أستحضرُ روحَه الطيّبةَ، ومقامَه الذي يعزفُ على ناي الحضور، كنتُ أُنصتُ لبحّةِ صوتِه، وأتابعُ يدَيه في تماهيه مع إيقاعِ حديثِه، كان أسلوبُه كالبُنيانِ القويِّ المتينِ، نَدبَ نفسَه سادنًا للُغةِ القرآن، وحاميًا لتراثِ الأمّةِ.



أيمن عبد السميع حسن
كاتب وباحث مصري.

ونذيرًا لها من هجمةِ التّغريبِ الشّرسةِ، كما يُعدّ محمود شاكر من أكبرِ الرّموزِ الثّقافيّةِ العربيّةِ المعاصرةِ التي وقفتْ شامخةً، سامقةً، شمَّاءَ، في وجه التّشويهِ الثّقافيِّ بكلِّ صُـوَرِه، والضّعفِ الذي أصابَ الفكرَ العربيَّ بالعطَبِ والتّبعيّةِ غيرِ الـمُسَوَّغَةِ، رُزقَ حظوةً ما أظنُّ أحدًا منَ العلماء نالها قبْلَه في عصرِه، وفي السّياقِ ذاتِه، جمع أيضًا في أوصالِه شمائلَ كثيرةً، ما بين غيرةِ العربيّ على هُويّتِه، وشجاعةِ المحاربِ، و التحف – عبْرَ عمرِه المديدِ – بطبيعةِ المسامحِ وطيبةِ الطّفل البريءِ.. عُرف بين مُحبّيه وتلاميذِه وبين لِدَاتِ الطّفولة أيضًا، بأنّه صاحبُ القلبِ الذي يسعُ العَالَم، كان يُوزِّعُ عليهم أورادَ محبّتِه في كلِّ مكانٍ يحطّ فيه بظلّه الرّائع، يرسمُ لهمُ الأملَ في الحياةِ؛ ليُعطيَها مذاقًا خاصًّا بروحِه الحُلوةِ، يقابلُك في كلِّ الظّروف بابتسامةٍ صافيةٍ ينشرحُ لها عقلُك وقلبُك وتَصفو بها..

يُعدُّ العلّامةُ « أبو فهرٍ» الأستاذُ محمود

محمد شاكر (1327–1418هـ / 1909–1997 م)، عَلَمًا فريدًا من أعلام عصْرِه أديبًا ومثقّفًا من طرازٍ فريدٍ، قِبلَةَ العِلْمِ ومنالَ الوُرَّاد، وشاعرًا مبدعًا حقّقَ في الإبداعِ الشّعريِّ، كاتبًا له طريقتُه الخاصّةُ لا تُبارى أو تُحاكَى، مفكّرًا متوهّجَ العقلِ ينقضُ أعتى المسلَّماتِ، ومحققًا بارعًا لكتُبِ التّراثِ، قادرًا على فكّ رموزِها وقراءةِ طلاسمِها، ومثقّفًا واسعَ الاطّلاع، كان على سَعةِ علْمِه وتبحُّرِه – الذي سبقَ به غَيْرَهُ – عزيزَ النّفس، مُتوقّدًا بالأنفةِ التي عصمتْهُ من إعارةِ عقْلِه لأعجميٍّ يعبثُ بالفكرِ واللّغةِ والبيانِ والتّاريخ، ويجهدُ جَهدَه في طمْسِ حضارةِ هذه الأمّـةِ بطمْسِ عقولِ أبنائِها الذين لا يعرفون أمّتَهم وتاريخَها معرفةً علميّةً صحيحةً.. تبحَّر في علوم كثيرةٍ، لكنّه ألقَى شِراعَه في المنطقةِ التي يرومُها ويعشقُها، اللّغةِ العربيّةِ، فسعَى إلى نصبِ الصّواري يُرشدُ السّائرين، ويدُلُّهم على النّهجِ الذي يحقّقون به أنفسَهم في ميدانِ الوجودِ.. عاش هذا الوهجُ الحيُّ ثمانيةً وثمانين عامًا، وَلـمّا انطفأ أبقَى في النّفوس حسرةً لا تنقضِي..!!

• بدءُ مراحلِ التّكوين:

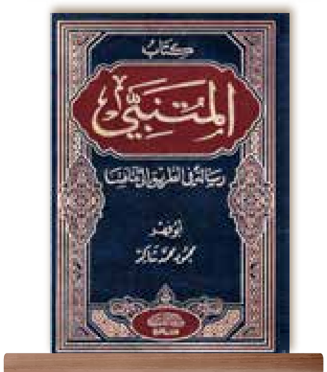
هو: محمودُ بنُ محمّدِ بنِ شاكرِ بنِ أحمدَ بنِ عبد القادر ، من أشرافِ جرجا بصعيد مصرَ، وينتهي نسبُه إلى الإمامِ الحسين بنِ عليٍّ رضي الله عنهما.

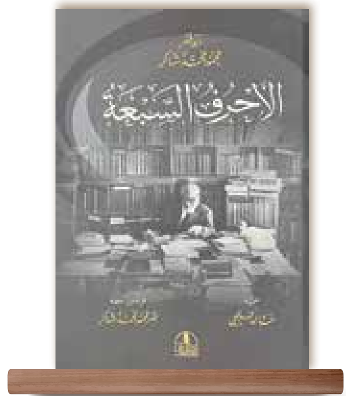
وفي الإسكندريةِ، تحديدًا، في بيتِ العلّامة الشّهيرِ القاضِي الشّريفِ محمّد شاكر رحمَه الله وأثابَه، وُلد هذا الطّفلُ، أوّلَ فبراير عام 1909م، تلقّى محمودٌ أوّلَ مراحلِه التّعليميّةِ في مدرسةِ (الوالدة أم عباس) في القاهرة سنة 1916، وبعد ثورةِ 1919م انتقلَ إلى مدرسةٍ قريبةٍ منَ البيت بدرب الجماميز، وفي سنة 1921 دخلَ المدرسةَ الخديويّةَ الثّانويةَ، والأجواءُ التي نشأَ فيها الصّبيّ وترعرعَ، جعلت منه شخصًا غريبَ الأطوار، إذ كان يعشقُ مجالسَ العلماءِ، فنفسُه المرهفةُ التّوّاقةُ لم تكن تكفُّ عنِ النّظرِ والتّأمّلِ والتّفكيرِ والتّرقّبِ، يركنُ جُلَّ اهتمامِه إلى الحواراتِ والمناقشاتِ التي كانت تُعقدُ في ضيافة والدِه، يغوصُ بين اللّذّةِ والنّشوةِ وحلاوةِ السّامرِ، كان يطيلُ النّظرَ، كالمبهوتِ، لا تكادُ عينُه تطرفُ، وصوتُه الخافتُ ينحدرُ في أقصى أعماقِ نفسِه كأنّه وابلٌ منهمرٌ، ولعلّ هذا التلقّي الفيّاضَ المتوهّجَ في هذا السّامرِ الثّريّ برجالِه الفُضلاء، هو الذي هيأ تلك النّفسَ الحيّةَ لتلقّي الأسرارِ والكنوزِ الدّفينةِ للّغةِ العربيّةِ. واظبَ على حضورِ الجلساتِ في بيتِ أبيه، فعرفَ السّياسيّين والعلماءَ الذين كانوا يتردّدون على والدِه، فاتّصلَ مباشرةً بعلماءِ العصْرِ أمثال: محبِّ الدّين الخطيبِ، وأحمدَ باشا تيمور، والشّيخِ محمّد الخضِر حسين، وحمد أمين الخانجيّ، وغيرِهم، كما تعرَّفَ إلى الشّاعرِ الكبيرِ أحمد شوقي، وراسلَ الأستاذَ مصطفى صادق الرّافعي، وهو في شِرَّة الشّباب، كان يُغلقُ على نفسه بابَ صمْتِه، ويكسرُ قلمَه..نشأ مُحمَّلاً بكلماتِ الكبارِ، من أهل الفكرِ والرّأيِ والأدبِ، حيث تعلّقَ بالشّيخ، الشّاعرِ السّيد بن علي المرصفيِّ صاحبِ كتابِ (رغبةُ الآملِ من كتابِ الكامل)، و(أسرارُ الحماسةِ)، وهو شيخُه الذي أثّر فيه كثيرًا، فتبرقُ عيناه، وتُضيئُ معارفُ وجهِه، ويهتزُّ رأسُه يمنةً ويسرةً، وتتحرّكُ شفتا الصّبيّ، يتمتمُ بالكلماتِ؛ كي يَحفرَها في قلبِه، فَالمشهدُ يفوقُ كلَّ تصوّرٍ..

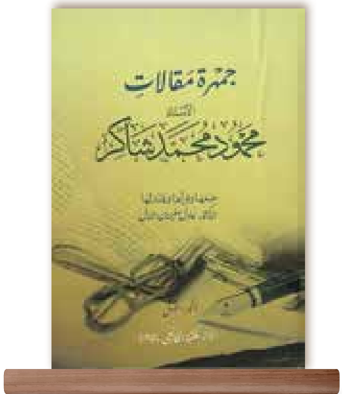
وأيضًا، فأسبابُ العلمِ والمعرفةِ، مع تتابُعِ قوافلِ الأيّامِ، كانت تمتدُّ بين يدي الشّابِّ الذي شبَّ وترعرعَ، إذ توفرت لدَيه مكتبةٌ عامرةٌ وافرةٌ بِأُمّاتِ الكتبِ والذّخائرِ منها، في مختلفِ أنواعِ المعارفِ والعلومِ العربيّةِ، هيَّأها له والدُه الشّيخُ











محمّد شاكر، وكيلُ الجامعِ الأزهرِ، وشيخُ علماءِ الإسكندريّةِ، أَضِفْ إلى ذلك، فذاكرةُ الشّابِّ أدَّتْ دورًا رئيسيًّا في بناءِ كيانهِ الثّقافيِّ، إذ حباه الله بذاكرةٍ واعيةٍ لا تكادُ تخرمُ شيئًا، تلقّفُ كلَّ ما تقرؤه وتضعُه في مكانه من خزانةِ نفسِه، وتستدعيه في حلِّه وترحالِه، وقتمَا شاءتْ.. تعلَّقَ محمود شاكر بأدبِ الرّافعيِّ، وغاصَ في دروبِه وشِعَابِهِ، وحين تُوُفِّيَ الرافعيُّ، تطايرت نفسُه مِزَقًا، وانهدمَ تحت وطأةِ معاولِ الحزنِ والألمِ؛ فقد تعلّقَ به كثيرًا، التحقَ بكلّيّةِ الآدابِ الجامعةِ المصريّةِ (قسم اللّغةِ العربيّة) واستمرّ بها إلى السّنةِ الثّانيةِ، حيث نشبَ خلافٌ شديدٌ بينَه وبين أستاذِه الدّكتور طه حسين حولَ منهجِ دراسةِ الشّعرِ الجاهليِّ، كما بيّنَه في مقدّمةِ الطّبعةِ الثّانيةِ من كتابِ (المتنبي)، وترتّبَ على ذلك تركُه الدّراساتِ الجامعيّةَ، وسافرَ إلى الحجازِ مُهاجرًا، وعملَ مديرًا لمدرسةٍ ابتدائيةٍ بجدّة، ثمَّ عادَ إلى القاهرة عام 1929م، انصرفَ إلى الأدبِ والكتابةِ، فكتبَ في مجلّتَي (الفتح) و(الزّهراء) لصاحبِهما الأستاذِ محبّ الدّين الخطيبِ، ويحسنُ بي هنا أن أدلفَ إلى جانبٍ آخَرَ من شخصيّةِ شيخِنا، وعندما أراد المولى عزّ وجلَّ لأبي فهرٍ أن يحجَّ، انطلقَ في لباسِ الإحرامِ، نراه في هذا الوجدِ الخائفِ والنّشيجِ الرّاجفِ، يجرُّ رجلَيْه منَ الرّهبِ جرًّا، ويقضِي الشّيخُ مناسكَه كاملةً، مُعرِضًا عنِ اللّغوِ، مُقبلًا على الذّكرِ والدّعاءِ والصّلاةِ، نراه نفسًا حانيةً، شديدةَ الرِّقة، مفعمةً بالحنانِ البالغِ والرّحمةِ الودودِ..

كرّمتْه الدّولة فأهدتْهُ جائزةَ الدّولةِ التّقديرية عام 1981م ؛ تقديرًا لجهودهِ وإسهاماتِه المتعدّدةِ في خدمةِ تُراثِ الإسلامِ ودرايتِه الواسعةِ بعلومِ العربيّةِ، ومكانتِه المتميّزةِ في تاريخِ الفكرِ الإسلاميِّ..

كما انتُخبَ عُضوًا عاملًا في مجمعِ اللّغةِ العربيّةِ بالقاهرةِ سنة 1982م، وحصلَ على جائزةِ الملكِ فيصل العالميّةِ في الأدبِ العربي سنة 1984م، وعملَ عُضوًا للمجلسِ الاستشاريِّ لمؤسّسةِ الفرقانِ للتّراثِ الإسلاميِّ خلالَ المُدَّةِ (1991-1997م)، كَمَا عَمِلَ أيضًا عُضوًا بمجلسِ إدارةِ دارِ الكُتبِ والوثائقِ القوميّةِ مِنْ عَامِ (1994م إلى 1997م)..

أولًا : مؤلفاته..

* (المتنبي)، نُشر في عددٍ مُستقلٍّ من مجلّةِ المقتطفِ سنة 1936م، ثمّ نُشر في مجلّدين عام 1977م.
* (القوس العذراء)، نُشرت طبعتُها الأولى عام 1952م بالقاهرة.
* (أباطيل وأسمار)، وهو مجموعةُ مقالاتٍ نشرَها بمجلّةِ الرّسالةِ 1965م، ثم نُشرَ في مجلدين عام 1977م.
* (طبقات فحول الشعراء)، طُبع بالقاهرة عام 1980م.
* (نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيفٌ/ مجموعةُ مقالات)، نُشر ط1 في جدة سنة 1997م.
* (قضيّة الشّعر الجاهليّ في كتابِ ابنِ سلام)، نُشر ط1 في جدة سنة 1997م.
* (رسالة في الطّريق إلى ثقافتنا)، نُشر ط1، ضمْنَ سلسلةِ كتابِ الهلال بالقاهرة.

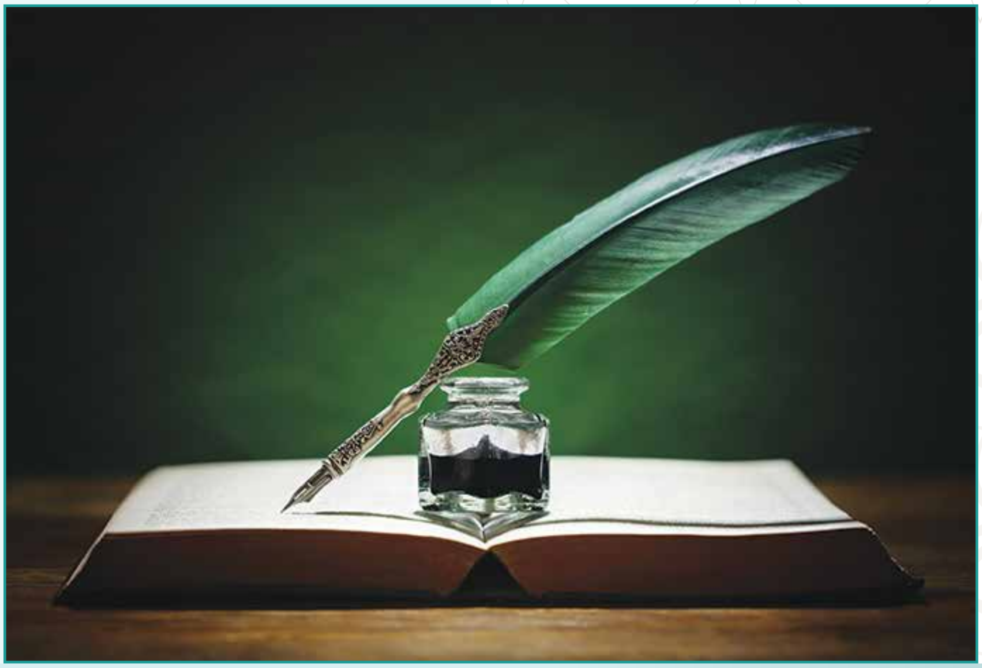
ثانيًا: تحقيقاتُه لكُتبِ التّراثِ.

عملَ محمود محمد شاكر على تحقيقِ مؤلّفاتٍ كثيرةٍ، نذكرُ منها على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ:

* (فضلُ العطاءِ على العُسرِ لأبي هلالٍ العسكريّ)، القاهرة، ط1)1934م.
* (إمتاعُ الأسماعِ بما للرّسول منَ الأبناءِ والأموالِ والحفَدةِ والمتاعِ للمقريزي)، القاهرة، ط1، 1940م..
* (المكافأة وحُسنُ العاقبةِ لابنِ الدّاية الكاتبِ)، القاهرة،ط1، 1940م
* (تفسيرُ الطّبري)، في ستة أجزاء، القاهرة بين عاميْ (1954-1969م).
* (دلائلُ الإعجازِ لعبد القاهر الجُرجاني)، القاهرة،ط1، 1989م.

وفاته

انتقلَ إلى جوار ربِّه مساءَ يوم الخميس 3 ربيع الآخر 1418هــ، الموافق 7 أغسطس 1997م، رحمَه الله، وأنزلَه منازلَ الأبرارِ والصّالحين.



أَدَبٌ ونَقدٌ

لِسَانِيّاتُ دي سُوسِير وأثرُها في النَّقدِ الأدبيِّ



رشيد الخديري
ناقد وباحث من المغرب

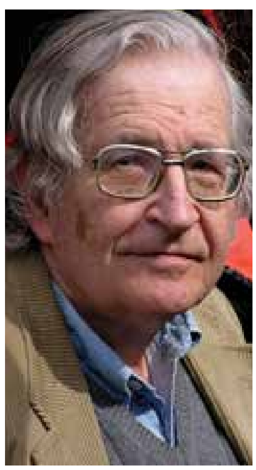
تَتَعَدَّدُ الخلفيّاتُ والأسئلةُ التي تعملُ على تبْئيرِ الممارسةِ النّقديةِ، ويعودُ هذا إلى سببٍ بسيطٍ، هُوَ كَوْنُ الإنتاجِ الأدبيِّ الذي على ضوئِه يُبْنَى فعلُ النّقدِ، يأتي أيضًا موجّهًا بتصوُّراتٍ معيّنةٍ، والإشكالُ يتجلّى ها هنا في كيفيّاتِ تلقّي العملِ الإبداعيِّ بشكلٍ بريءٍ وشفّافٍ، ودونَ أيّةِ أحكامٍ قيميّةٍ سَابِقَةٍ. إنّه لَمِنَ البَدهيِّ، أَنْ يُتَلَقَّى أيُّ عملٍ أدبيٍّ بِمَعْزِلٍ عَنْ خلفيّاتٍ معرفيّةٍ قَبْلِيّةٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَمَلّكِ آلياتٍ قرائيّةٍ دقيقةٍ ومُحدّدةٍ، والحالُ، كما يبدُو من هذه المُسلَّمةِ التي تقولُ بحتميّةِ توفُّرِ المعرفةِ من أجلِ الإمساكِ بتلابيبِ النّصوصِ والعملِ على مساءلتِها وَفْقَ منهجٍ قرائيٍّ علميٍّ معيّنٍ، ذلك أنَّ "الخلْطَ بين المناهجِ المُتعدّدةِ، سعيًا وراءَ استنفادِ الباحثِ للنّصِّ الواحدِ، لا يخلُو من مفارقةٍ صارخةٍ،

وهي التّوفيقُ التّلفيقيُّ بين مناهجَ مُتنابذةٍ إِبِسْتِيمُولُوجِيًّا وإجرائيًّا، الذي يترتّبُ عنه تحييدُ النّصِ وحرمانُه من غريزةِ المقاومةِ، التي هي جوهرُ الأدبِ، مقاومتُه للقولبةِ والانتماطيّةِ، ومن ثَمّ تطويعُه قسرًا ليكونَ في خدمةِ هذه المناهجِ، والحالُ أنَّ الحسَّ السّليمَ يقتضِي تطويعَ المناهجِ لتكونَ في خدمةِ الأدبِ، لكنْ شريطةَ ألّا يُنَفِّذَهُ النّاقدُ نفسُه على النّصّ نفسِه، بل نُقّادٌ مُتعدّدون على نَصٍّ واحدٍ أو نصوصٍ مُتعدّدةٍ»[1].

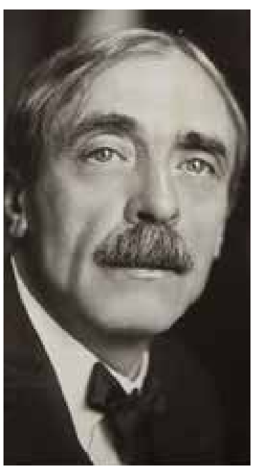
لقد بدَا جليًّا، أنَّ قراءةَ الأعمالِ الأدبيّةِ لا تنهضُ تحتَ مظلّةِ الموسوعيّةِ والتّكاملِ بين النّظريّاتِ والمناهجِ، لأنَّ في ذلك تَعسّفًا وفوضَى وقصورًا، وإنّما ينبغي التَّوجّهُ نحوَ أُفُقٍ نقْديٍّ مُلتزمٍ بضوابطَ بحثيّةٍ وعلميّةٍ محدّدةٍ ودقيقةٍ. إنَّ النّقدَ الأدبيَّ حين يتعيَّنُ بوصْفِه إبداعًا ثانيًا، فهو مُرتهنٌ باشتراطاتٍ قرائيّةٍ لا بدَّ من توفُّرِها



دو سوسير



تشومسكي



بول فاليري

في ناقدِ الأدبِ ودارسِــه، من جهة أخرى، لا ينبغِي أن يُفهمَ من هذا الكلامِ، أنّنا ننتصرُ لنظريّةٍ نقديّةٍ ما على حسابِ نظريّةٍ أخرى، بل القصدُ هو توسيعُ المداركِ وامتلاكُ أجهزةٍ مفاهيميّةٍ تُمكّنُنا من قراءةِ الأشياءِ قراءةً ناقدةً، لكنَّ المعضلةَ الكبرَى التي تحولُ دون انتشارِ النّقدِ وسَطَ شريحةٍ كبيرةٍ منَ القُرّاءِ هو طابعُه النّخبويُّ، ولغتُه المُغرقةُ في التّعقيدِ، ممّا يُفقدُه القدرةَ على التَّواصلِ، إنّنا لا نريدُ للنّقدِ أن يتخلَّى عن لُغتِه المُعقّدةِ، وتبنِّي لغةٍ قريبةٍ من نبضِ المجتمعِ أو توافقُ تفكيرَ فئةٍ عريضةٍ منَ القُرّاءِ، وإنّما أن يتحلّى ببُعدٍ تنويريٍّ تحريريٍّ، مُنشغلٍ أكثرَ بقضايا الإنسانِ حتى لا نقولَ بقضايا المَعرفةِ، فـ"بعضُ النّقّادِ يظنّونَ أنّ التّوجُّهَ إلى شريحةٍ أوسعَ منَ القُرّاءِ وتبسيطَ المعرفةِ النّقديّةِ، لتبصيرِ

القُرّاءِ ببعضِ مشاغلِ النّقدِ في علاقتِه مع النّصوصِ، يُهدّدُ الطّابعَ التّخصّصيَّ للنّقدِ ويقلّلُ من شأنِه كحقلٍ معرفيٍّ له مَرجعيّاتُه المحدّدةُ ولغتُه الاصطلاحيّةُ الخاصّةُ به»[2].

والحديثُ عنِ المناهجِ والنّظريّاتِ يتّسعُ ليشملَ كلَّ ما أنتجَتْه وراكمَتْه الإنسانيّةُ منذ ظهورِ الأدبِ، واليومَ، صرْنا نتحدّثُ عن «نظريّةِ كلِّ شيءٍ»، والنّاقدُ – في نظري – هو كائنٌ غيرُ ملتزم بنظريّةٍ أو منهج نقديٍّ ما، وإنّما يعملُ بطابعٍ انتقائيٍّ أو يُكيِّفُ نظريّةً نقديّةً ما مع خلفياتِه المعرفيّةِ، وغالبًا ما يَنتهي هذا «الحماسُ الشّخصيُّ» لتبنِّي نظريّةٍ والالتزام بها إلى الارتماءِ في حضْنِ نظريّةٍ ما، والنّاقدُ في كلِّ الأحوالِ تَعَدُّدِيٌّ آليٌّ انفجاريٌّ يميلُ مع النّصِّ وتعدّدِ زوايا النّظرِ إليه، فهو يظلُّ "إشارةً مفتوحةً على عددٍ لا نهائيٍّ منَ المعاني والدّلالاتِ، لأنّه بناءٌ بلا إطارٍ ولا مركزٍ يتميّزُ بالحركيّةِ والفاعليّةِ المُستمرّةِ، ويَنطوِي على تعدُّدِ المعنَى الذي لا يمكنُ أن تَقتنصَه شبكةُ التّفسيراتِ؛ لأنّ له طبيعةً انفجاريّةً كما أنّه يتفاعلُ مع غيرِه منَ النّصوصِ وينتمِي إلى مجالٍ تناصّيٍّ... وهو يربطُ عمليّةَ الكتابةِ بعمليّةِ القراءةِ الخلّاقةِ والفعّالةِ التي تتعاملُ معه من مُنطلقِ المُتعة والمُشاركةِ في تحقيقِ يُوتوبياه الاجتماعيّةِ واللّغويّةِ الخاصّةِ»[3].

2. أُسُسُ لِسانيّاتِ دي سُوسير وأثرُها في النّقدِ الأدبيِّ

تجنحُ هذه الورقةُ البَحْثيَّةُ لِمُغامَرةِ الإجابةِ عن سؤالٍ جوهريٍّ، وهو: ما تأثيرُ لِسانيّاتِ دي سوسير في النّقد الأدبيِّ؟ وطبعًا، لا ندعِّي أنّنا سنقدّمُ أجوبةً كافيةً وشافيةً في المَوْضُوعِ، وإنّما هي الحاجةُ إلى توسيعِ المداركِ والتّزودِ بالمعرفةِ الخلّاقةِ، لأنّ دو سوسيرـ بكلِّ بساطةٍ ـ هو أكبرُ مقامًا من أن تجيبَ عَنْهُ ورقةُ ناقدٍ

> **الحديثُ عنِ المناهجِ والنّظريّاتِ يتّسعُ ليشملَ كلَّ ما أنتجَتْه وراكمَتْه الإنسانيّةُ منذ ظهورِ الأدبِ، واليومَ، صرْنا نتحدّثُ عن «نظريّةِ كلِّ شيءٍ»**

> **إنَّ النّقدَ الأدبيَّ حين يتعيَّنُ بوصْفه إبداعًا ثانيًا، فهو مُرتهنٌ باشتراطاتٍ قرائيّةٍ لا بدَّ من توفُّرها في ناقدِ الأدب ودارسِه**



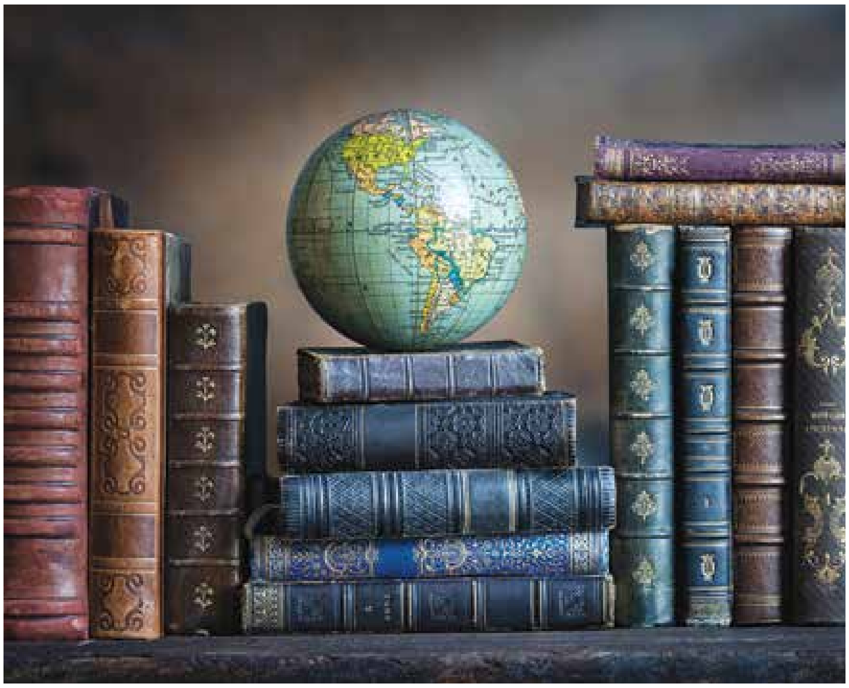
ناشئٍ مثلي، ولا غروَ في القول، إنَّ هذا العالِمَ اللّسانيَّ، قد أحدث ثورةً كبيرةً في مجالِ اللّسانيّاتِ الحديثةِ، وأعطَى لآلياتِ القراءة بُعدًا مُغايرًا، فقد «فرضت وجودَها على كلِّ ميادين المعرفةِ الإنسانيّةِ؛ لأنّها أصبحتْ تبحثُ في أصولِ آليةِ الإنتاج العلميِّ التي تُفرَزُ بها كلُّ العلومِ اللّغويّةِ، ولهذا امتدَّ تأثيرُ اللّسانيّاتِ إلى النّقدِ الأدبيِّ ويعيدُ بناءَ جهازِه المعرفيِّ، وعملَ على تغييرِ أدواتِه العلميّةِ ومُعجمِها النّقديِّ»[4]، خاصّةً أنّ فرديناند دي سوسير، أحدث ثورةً كبيرةً على مُستوى اللّغةِ من حيث هي بؤرةٌ جديدةٌ للانشغالِ النّقديِّ، ولا بدَّ منَ الإشارة ها هنا، أنّه لا يوجدُ ناقدٌ أدبيٌّ أو عالمُ لُغويّاتٍ، لم يتشبعْ برُؤى وأفكارِ هذا اللّسانيِّ، لذلك، فأثرُه واضحٌ وبيِّنٌ، فإليه يرجعُ الفضلُ في إخراجِ اللّغةِ من بعدِها التّاريخيِّ إلى النّظرِ إليها بوَصْفِهَا نِظَامًا قائمًا منَ العلامات، وفي هذا الصّددِ، يرى دي سوسير أنَّ «اللّغةَ ليست مجموعةً حسابيّةً للعباراتِ التي تفوّه بها قسمٌ منَ النّاسِ، بل إنّها شيءٌ آخرُ يربطُهم جميعًا في إطارٍ مُنتظمٍ، فهي نظامٌ منَ الدّلائلِ موجودٌ في أدمغةِ الجمهورِ يُمارسُ عند اللّفظِ لدى جماعةٍ منَ الأشخاصِ المُنتمين إلى مجموعةٍ واحدةٍ، فهي ليست تامّةً عند فرْدٍ بمُفردِه ولا وجودَ لها على الوجه الأكملِ إلّا عندَ الجمهورِ»[5]، من هذا المُنطلقِ، فاللّغةُ لا تتحدّدُ – بحسب دي سوسير- إلّا في إطارِ جماعةٍ منَ النّاس، ووفْقَ نظامٍ علاماتيٍّ معيّنٍ ومتواضَعٍ عليه منَ الجميع، فالفردُ، وإنِ امتلكَ ناصيةَ اللّغةِ، فهو يبدُو عاجزًا عن تمثّلِها

الثّابتُ، أنَّ دي سوسير أرسَى قواعدَ لسانيّةً جديدةً، كانت هي المَهْدَ الأوّلَ لتأسيس المنهج البنيويِّ الذي بات فيما بعدُ منهجًا قائمَ الذّاتِ في تحليلِ واستسعافِ النّصّ الأدبيِّ



بشكلٍ تامٍّ إلّا إذا تمّتْ في إطارٍ مُنتظمٍ، وها هنا، يُمكنُنا فهمُ تلك الإلماحاتِ القيّمةِ للشّاعرِ بول فاليري حولَ اللّغةِ، إذ يَعتبرُها بؤرةَ العملِ الأدبيِّ، وعلى ضوئِها تتحدّدُ وظيفةُ الأدب، وفي هذا السّياقِ، فهو يُميِّزُ بين لُغتَي الشِّعرِ والنّثرِ، إذ أقرَّ بأنَّ لغةَ الشِّعرِ هي رقْصٌ، بينما لُغةُ النّثرِ هي مشْيٌ، وذلك للدّلالةِ على أنّ اللّغةَ هي بؤرةُ العملِ الأدبيِّ، والثّابتُ، أنَّ دي سوسير، أرسَى قواعدَ لسانيّةً جديدةً، كانت هي المَهْدَ الأوّلَ لتأسيس المنهجِ البنيويِّ الذي بات فيما بعدُ منهجًا قائمَ الذّاتِ في تحليلِ واستسعافِ النّصِّ الأدبيِّ. لقد كانت دراسةُ اللّغةِ تتّسمُ بطابعٍ تاريخيٍّ صِرفٍ، أي مناقشتُها داخلَ المُتغيراتِ الزّمنيّةِ، بالاعتمادِ على الوصْفِ الجُزئيِّ وتحليلِ الأحداثِ الفرديّةِ. ما نَودُّ تأكيدَهُ، هو أنَّ دي سوسير قام بتثويرِ وظيفةِ اللّغةِ وإخراجِها من طابعِها التّاريخيِّ الوصْفيِّ الدّياكرونيِّ إلى الطابعِ النّسقيِّ، ونقصدُ بذلك، منظومةً منَ العلاماتِ، وتتحدّدُ هذه الظّاهرةُ اللّغويّةُ في اللّسانيّاتِ الحديثةِ، انطلاقًا من ثلاثةِ مُستوياتٍ، وهي: اللّغةُ langage، الكلامُ parole اللّسانُ langue، غيرَ أنَّ ما هو أساسيٌّ في اللّسانيّاتِ البنيويّةِ هو اللّسانُ بوصْفِه نسقًا منَ القواعدِ للُغةٍ محدّدةٍ، مدعومًا بالقدرةِ بالمفهومِ التّشومسكوي، وهو مجموعُ القواعدِ المجرّدةِ التي يشترك فيها مستعملُو لغةٍ معيّنةٍ. يُقرُّ الباحثُ عبدُ الحميد عبد الواحد أنَّ "هذا المبدأ العلميَّ المفترضَ يُقرُّ بالقطيعةِ المعرفيَّةِ (أو الإبستمولوجيّة) بين اللّسانيّات الحديثةِ واللِّسانيّاتِ القديمةِ، واعتبارِ أنّ الأُولى قامت على أنقاضِ الثّانيةِ. وعمومًا يلخّصُ دي سوسير اتّجاهاتِ هذه اللّسانيّاتِ القديمةِ في الأطوارِ الآتيةِ:

* النّحوُ القديمُ: وهو ما يُعرفُ بالنّحوِ المعياريِّ أوِ التّقعيديِّ وقوامُه المنطقُ، وهمُّه التّمييزُ بين الصّحيحِ والخطأ في الاستعمالِ، وضبطُ القاعدةِ النّحويّةِ المتعلّقةِ بالاستعمالِ الأمثلِ le bon usage .
* فقهُ اللّغةِ (أو الفيلولوجيا): وهو يَدرسُ اللّغةَ من خلال النّصوصِ



المُدوّنةِ وتأويلِها، وذلك في علاقتِها بالتّاريخِ أوِ الأدبِ أوِ الدّين .

* النّحوُ المقارنُ: ويبحثُ في أصل اللُّغاتِ، والتّوافُقاتِ أوِ الاختلافاتِ الموجودةِ بين لِسانَيْن مختلفَيْن، أو بين ألسُنٍ مُختلفةٍ ترجعُ إلى أرومةٍ واحدةٍ.

إنّ هذه الاتّجاهاتِ اللّسانيّةَ القديمةَ حسبَ دي سوسير لم تُؤسّسْ علمًا حقيقيًّا، ولم تضبطْ منهجًا مُحدّدًا، ولم تُحدّدِ أهدافًا واضحةً إلّا في ما نَدرَ. وهذا ما يُشرّعُ في تصوّرِه إرساءَ ما يُسمّى باللّسانيّاتِ الحديثةِ»[6]، وغنيٌّ عنِ البيانِ، أنَّ الرّابطَ الذي يجمعُ بين هذه الاتّجاهاتِ اللّسانيّةِ والنّحويّةِ باللّسانيّاتِ الحديثةِ هو اللّغةُ، لكنْ لكلِّ اتّجاهٌ يتناولُها من منظورٍ معيّنٍ، إمّا من جانبِها التّأصيليِّ التّقعيديِّ أو جانبِ التّدوينِ أوِ النّحويّةِ المقارنة، إلّا أنَّ لسانيّاتِ دي سوسير اختطّت لنفسِها اتّجاهًا آخرَ وهو دراسةُ اللّغةِ على أنّها بِنيةٌ منَ العلاماتِ، وفي هذا الصّددِ، يقولُ:" إنَّ العلامةَ ليست بسيطةً بل هي مُكوّنةٌ من مفهوم سمّاه مدلولاً وصورةٍ سمعيّةٍ سمَاها دالًّا، فالعلامةُ إذًا ليست هي الدَّالَّ بعينِه ولا المدلولَ بذاتِه، بل هي بِنيتُها، وهذا مُتعلّقٌ بالمفردةِ ولكنْ أضافَ إليها نشاطًا آخرَ هو نشاطُ الرّبطِ والتّنسيقِ". إنَّ هذه المبادئَ في دراسةِ النّظامِ اللّغويِّ التي اقترحَها دي سوسير كفيلةٌ بإبرازِ مدَى أَهَمِّيَّةِ اللّغةِ كنظامٍ منَ العلاماتِ، وأيضًا تضيفُ إليها دراسةً سياقيّةً إلى جانبِ الدّراسةِ التّاريخيّةِ الزّمنيّةِ، غيرَ أنَّ العالِمَ اللّسانيَّ نعومُ تشومسكي وجّه سيلاً منَ الانتقاداتِ إلى البِنيويّةِ الوصْفيّةِ بدعوى أنّها "ليست إلّا مرحلةً، ولا غايةً قُصوَى فيجبُ على اللّغويِّ أن يَبتكرَ مناهجَ جديدةً لتحليلِ المُستوَى التّركيبيِّ، بلِ اللّسان كلّه، هذا وقد أغفلتِ البنوكُ الكلاسيكيّةُ، ولم تُولِ اهتمامًا لتلكِ الميزةِ البشريّةِ الأساسيّةِ المُتمثّلةِ في قُدرةِ الإنسانِ على حدوثِ جُملٍ غيرِ مُتناهيةِ العددِ، لم يسمعْها، ولم يتفوّه بها قطّ من قبلُ، وفي نفس الوقتِ قدرتُه على إدراك عددٍ لا مُتناهٍ اسمُها ولم يتفوّه بها من قبلُ«[7]، ورغمَ سيْلِ الانتقاداتِ التي وجّهها إلى لِسانيّات دي سوسير، فإنّه لا يُمكنُنا تجاهلُ حقيقةِ تأثّرِ لِسانيّاتِ تشومسكي بالمبادئِ اللّسانيّةِ التي أرسَى دعائمَها الرّائدُ دي سوسير.

---

1 – رشيد بنحدو، ضمن كتاب: جمالية التلقي، هانس روبيرت ياوس، منشورات الاختلاف- كلمة- منشورات ضفاف- دار الأمان، ط 1، 2016، ص 10.

2 – فخري صالح، النقد والمجتمع – حوارات-، دار كنعان للدراسات والنشر، ط 1، 2004، ص 5-6.

3 – صبري حافظ، التناص وإشاريات العمل الأدبي، مجلة عيون المقالات،المغرب، العدد 2، 1986، ص 86.

4 –أنظر: محمد حناش: البنيوية في اللسانيات – دار الرشاد الحديثة – المغرب، ط1 ، ،1980 ص 6.

5 – فرديناند ديسوسير ، دروس في الألسنية العامة ، ترجمة : صالح الفرماوي وآخرين ، الدار العربية للكتاب، تونس،1985، ص 355

6 – ينظر: عبد الحميد عبد الواحد، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، العدد 04، 2014، ص 11.

7 – حكمت صباغ الخطيب، (يمنى العيد): في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي، دار الآفاق للنشر-بيروت- ط 3-1985 ، ص 28

نحو أدب رقَمي جديد

يموج الواقع الثقافي العربي بكثير من التيارات التي واكبت تطوّر هذا الواقع وتحوُّلاته عبر أزمانه المتعاقبة، وقد عبّر الأدب عن هذا الواقع خير تعبير؛ فشهد صعودًا، ثمّ تراجعًا، ثمّ صعودًا مرة أخرى، وفقًا لكلّ مرحلة تاريخية، وما يواجهه الأديب فيها من حثٍّ وتشجيع، أو إهمال وإقصاء، إلاّ أنّ ما يلفت الانتباه في واقعنا الثقافي الحالي أنّنا أصبحنا نستقبل النظريات النقدية والأدبية بديلاً عن إنتاجها؛ فأصبحت الجهود النقدية العربية ردّة فعل للتطوّرات في العالم الغربي، ولعلّنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنّ الواقع الثقافي العربي المعاصر بات أسيرًا لتحوّلات الثقافة الغربية ينهل من نظرياتها ويتأثر بآراء نقّادها ويسير على هديها.



د /علاء النجار
أستاذ البلاغة العربية والنقد الأدبي المشارك

ومِن رحم هذه التحوّلات ظهر ما يسمّى بالأدب التفاعلي أو الأدب الرقَمي الذي عدّه كثير من النقّاد تطوّرًا للأدب الورقي المكتوب؛ فقد اسْتُبْدِلَ الكتاب الإلكتروني بالكتاب الورقي، وظهرت فيه مؤثرات صوتية وحركية أضفت على هذا اللون من الأدب بُعدًا جديدًا يواكب ما حدث من تطوّر هائل في وسائل التواصل الإلكترونية المختلفة.

والأدب التفاعلي هو: (الأدب الذي يوظِّف معطَيات التكنولوجيا الحديثة في تقديم جنس أدبي جديد يجمع بين الأدبية والإلكترونية، ولا يمكن أن يتأتّى لمتلقّيه إلّا عبر الوسيط الإلكتروني، ولا يمكن أن يكون هذا الأدب تفاعليًّا إلّا إذا أعطى المتلقّي مساحةً تعادل أو تزيد عن مساحة المبدع الأصلي للنص)، وتأتي أهميّة الأدب الرقَمي في إبرازه معايير جماليّةً جديدة، وخصائصَ لم تكن متاحة من قبلُ في النصِّ الورقي كخاصِيّة تعدُّدِ المبدع، والتأليفِ الجماعيّ للنصّ الرقَمي، وتعدُّدِ الروابط التي تؤدّي بدورها إلى تعدُّد النصوص حسب اختيارات المتلقين.

الأدب من الشفَهيّة إلى الرقَميّة

مثَّل الأدب عبر عصوره المختلفة المرآةَ التي تعكس واقع المجتمعات وثقافتَها في كثير من الأحيان، سـواء أكانت سياسية، أم اجتماعية، أم ثقافية، إلى غير ذلك، في جميع مَناحي الحياة؛ حيث حفظ لنا قِيَمًا وتقاليدَ يصعب الكشف عنها بعيدًا عن الأدب.

وكانت المشافهة هي الوسيلة الأولى التي انتشر من خلالها الأدب؛ فقد كانت مجالس الشعراء والأدبـاء في العصر الجاهلي التي كانت تُعقد في الأسواق للحكم على الشعراء منتدًى للقاء الشعراء والتنافس فيما بينهم، بل إنّ ما وصل إلينا من شعر جاهلي في أغلبه كان عن طريق الرواية والمشافهة ؛ لذلك فقدنا كمًّا كبيرًا من هذا الشعر نتيجة موتِ الرواة، وغير ذلك من الأسباب، (لقد كان السمع، وليس البصر، هو الذي هَيْمَن على العالم الفكري القديم بطرق لها دلالتها، واستمرّ ذلك وقتًا طويلًا حتى بعد أن تمَّ استيعاب الكتابة استيعابًا عميقًا) . والمشافهة لها ما يميّزها رغم ما قد يكتنفها من عيوب؛ فالشاعر عن طريق المشافهة يستطيع نقل تجربته مباشرة إلى المتلقّي، موظّفًا إمكاناته الصوتية في التأثير إيجابًا على المتلقّي، وتتميّز الشِّفاهة بالمرونة والقدرة على استخدام وسائلَ مساعدة كتنويع الأصوات من خلال النَّبْر والتنغيم، والإطناب في الكلام أو الإيجاز، وما يصاحب الحديثَ من حركات الوجه واليدين والعينين، وجميعُها أفعالٌ كلاميّة لها دورها الحاسم في تحديد المعنى المنطوق والمسموع ، أمّا المرحلة الثانية من وسائل انتشار الأدب فتمثّلت في الكتابة وظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، وانتشار الكتاب الورقي المطبوع على نحو غير مسبوق، ورغم افتقاد الكتابة لبعض

مقوِّمات مرحلة المشافهة من تنغيم في الأصوات واستخدام إشارات الجسد؛ إلّا أنّها حافظت على الانتشار الكبير للأدب من خلال التوسُّعِ الكبير غير النهائي في استخدام الألفاظ وتحديد المعاني وعرض الأفكار، وبقَدْر ما يقف اللبس والغموض والمجاز عائقًا أمام الإيضاح بقَدْر ما يمثّل وسائل جيّدةً لتحميل اللفظ أكثر من معناه، أو طمسِ المعنى الذي يخلّفه أثرُه.

وظهر نوع آخر من الكتابة التي تخاطب العين والأذن عن طريق استخدام الألوان وتوظيف العلامات الترقيمية في أشكال طباعية سِيْمْيائيّة فيما عُرف بالقصيدة الكونكريتية (هي قصيدة المكان والكتابة التي تتناقض مع قصيدة الكلام والدالِّ الشفوي، ومن ثَمَّ فهي قصيدة حسّيّة ملموسة تتعامل مع الخط والجرافيك والوحدات الخطية والتبئير الطباعي، كما ترتكز على التشكيل والتلوين وتوظيف الأشكال البصرية، وعلى التلاعب الساخر والمفارق بالعلامات الترقيمية التي ترد في أشكال طباعية سِيْمْيائية دالّة) وهي تختلف عن القصائد العمودية في أنّها تتأرجح بين الإنشاد والكتابة المجسّمة؛ فهي قصيدة سَماعية وبصرية في آنٍ واحد تنبني على التنوّع السِّيْمْيائي للخطّ، وتبئير علامات الترقيم، وقد عُرفت في العصور المتأخّرة مع الشعراء الأندلسيين والمغاربة ، وكان ظهورها في المغرب بعد منتصف السبعينيات من القرن العشرين وامتدّت إلى دول عربية أخرى مثلِ تونس وسوريا ولبنان، واشتهر من الشعراء في كتابتها أدونيس، وعبدالقادر أرناؤوط، وصادق الصائغ ، وقد سبقهم مَن تقدّم من الشعراء والنقّاد في الاهتمام بالبعد البصري أو المكاني، كما فعل ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة حينما تحدّث عن مجموعة من الأشكال الشعرية البصرية التي انزاحت عن الفضاء العمودي السّيْمِتْري المتناظر، مثل الشكل القواديسي والمسمط ، وعرف العرب الشعر البصري منذ العصر المملوكي، وأطلقوا عليه في ذلك الوقت تسميات كثيرة، منها: الشعر المشجّر، والشعر المرسوم، والشعر الهندسي، وغيرَها. ولعلّ فنّ الخطّ العربي الذي ازدهر في العصر العباسي، وتأثّر به عدد كبير من الفنّانين الغربيين، دليلٌ آخر على اهتمام العرب بالبعد البصري وإدراكِ أثره في التلقّي ، ثمّ تأتي المرحلة الثالثة في الوسيط الصوتي؛ فعُرف الأدب الصوتي والقصيدة الصوتية، ويعني هذا أنّ المبدع كان يسوق نصَّه الإبداعي الأدبي والفنّي والجمالي بصوته؛ عبر تسجيله في أشرطة وأقراص صلبة، أو الحفاظِ عليه بواسطة جهاز تسجيل الصوت ، وعُرفت القصائد الصوتية المسجّلة والمذاعة عبر أجهزة التسجيل الصوتي أوّلًا، واشتهر في ذلك الكثير من الشعراء، ثمّ القصائد



المسجّلة عبر أجهزة التسجيل الصوتية والمرئية، وبدأت الوسائل التكنولوجية تتطوّر بسرعة فائقة بعد ذلك؛ خاصّة بعد ظهور الحاسب الآلي، ثمّ الإنترنت وما يحتويه من مواقع تعرض الأدب المرئي والمسموع، ومن أبرزها (youtube-Facebook)، وغيرهما من المواقع الإلكترونية الأخرى، والمنتديات الثقافية، والمواقع الأدبية، حتى ظهر ما عرف الآن بالقصيدة الرقمية التفاعلية،) أين نهاية النص الذي بدايته هذا القوس وفيها سيطر التطوّر الإلكتروني على كلّ شيء، وأصبح زمن السرعة التي تكاد لا تدرك، وفاقت السرعة قدرةَ الإبداع والنقد على الملاحقة؛ ومن ثَمّ جاء الانتشار السريع للأدب عبر الإنترنت الذي حطّم كثيرًا من الحواجز والعوائق التي كانت تقف أمام انتشاره، وجاءت مرحلة الحداثة الرقمية لتقضي على ما يسمّى بالإبداع الفردي، (واستحدثت بديله في الإبداع الجماعي، وغياب الفردية، وسيطرة الجماعيّة)، وسَرعانَ ما انتشرت مصطلحات الأدب المرتبطة بالحاسوب؛ (فوجدنا مصطلحا الأدب الإلكتروني والأدب الرقمي ينتشران سريعًا في الساحة الثقافية والإعلامية الفرنكفونية، بينما جاء مصطلح النصّ المترابط (Hyper text) أكثر انتشارًا في الثقافة الأنجلوسكسونية) ، (ومن يتابع التحوّلات الثقافية يمكنه أن يدرك أنّ الفضاء الإلكتروني يُعدّ نوعًا من هذه التحوّلات، سواء في الأدب أم النقد، بل يمكن القول إنّه تحوّل ذو خصوصيّة مفارقة لما سبقها من تحوّلات؛ ذلك أنّه شطَر الأدبَ ونقدَه شطرين بينهما بعضُ التوافق وكثيرٌ من التخالف: الشطر الأوّل «الإبداع المطبوع»، والآخر «الإبداع غير المطبوع») ، ومثَّل الأدبُ الرقمي من خلال استخدام الوسيط الإعلامي وتوظيف الحاسوب في تحقيق الحداثة الفنية والجمالية في الأدب عاملَ جذبٍ كبير للمبدع المعاصر، بعد أنْ أضناه كثيرًا الوسيط اللغوي أو الطباعي أو الصوتي، وجعله يستنفد كلَّ طاقاته الإبداعية والفكرية .

ومن ثَمَّ نشأ الأدب الرقمي في خِضَمِّ الفضاءات الافتراضية، يفيد من كلٍّ ما تتيحه له من إمكانيات وأدوات وأفكار؛ حيث خرج النصّ الأدبي من حدود الورقة وقوانينها السطرية، وتَحرَّر من دَفَّتي الكتاب الورقي؛ ليجد نفسه سابحًا في فضاء حُرٍّ بعيدًا عن الجاذبية الحبرية الملتصقة بالورق، خارقًا قوانين القراءة الأفقية الخطّية التقليدية، متّخذًا من الأيقونات والعلامات السابحة في الفضاء مفاتيح الولوج إلى أعماقه وسَبْرِ أغواره بعد أن صار يكتب بطريقة تراكُمِيَّة ، وأصبح من المعتاد أن يُقِيم الخطاب السَّرْدي حوارًا بين شخوص متباينة زمانًا ومكانًا، وشخوص ربّما لم تتقابل مطلقًا، ولم تربطها ببعضها علاقة ما، وبرغم ذلك تتحاور وتتبادل الرأي والفكر؛ بل وتتبادل التأثير والتأثُّر دون مواجهة مباشرة ويجب أن ندرك أنّ استخدام الحاسوب في كتابة الأدب بديلاً عن الكتابة الورقية لا يعني أنّ هذا الأدب قد تحوّل إلى أدب رقمي؛ بل لا بدّ أن تكون الرقمية رُكنًا من أركان بنائه الفني بحيث يتحقَّق التفاعل بين المبدع والمتلقّي؛ (فمعروف أنّ تدوين الأدب الشفهي لا يعني أنّه قد تحوّل إلى أدب كتابي؛ فالأدب لا يكون أدبًا كتابيًّا إلاّ إذا أصبحت الكتابية رُكنًا من أركانه الفنية الأساسية، وكذلك الأمر عند الحديث عن الأدب الرقمي، فنشر الأدب إلكترونيًّا لا يحوّله إلى أدب رقمي؛ بل إنّه لا يكون كذلك إلّا إذا كانت الرقمية رُكنًا من أركان بنائه الفني، فلا يكفي تغيُّر وسط القراءة – سطح الورقة أو شاشة الحاسوب – حتى نقول عن نصّ: إنّه رقمي) ؛ فالنصّ الرقمي يُعرَض ويُقرأ ويُسمع، ومن ثَّمَّ فهو يعتمد على جميع حواسِّ الإنسان الإدراكية، ولا يقف عند فعلِ القراءة فقط مثلَ الورقي، ويشير مانويل كاستلز إلى أنّ (أشكال الاتّصال المختلفة تتكامل في شبكة متداخلة وتنتج ما يسمّى بالنصّ الفائق واللغة الشارحة التي يتكامل فيها لأوّل مرّة في التاريخ الكتابيُّ والشفهيُّ والسمعيُّ والبصريُّ في أشكال الاتّصال الإنساني بما يغيّر طبيعة الاتّصال بشكل أساسي) ؛ فأصبح من العسير على النصّ الورقي استيعاب مثل هذه التطورات، ويقول "جورج لاندو": (الفرق بين النصّ الورقي التقليدي وبين «الهايبرتكست» هو أنّ الأوّل ذو شكل ثابت ومحدَّد، ويقرأ بطريقة خطّيّة متسلسلة، بينما يعتبر الهايبرتكست شبكة مركّبة من عدّة نصوص وليست

مثَّل الأدبُ الرقمي من خلال استخدام الوسيط الإعلامي وتوظيف الحاسوب في تحقيق الحداثة الفنية والجمالية في الأدب عاملَ جذبٍ كبير للمبدع المعاصر

ذات شكل محدّد، ويمكن قراءتها بطريقة غير خطّيّة وغير متسلسلة، كذلك فإنّ النصّ التقليدي يعرض أمام القارئ على الورق سواء كان ذلك في كتاب أو مجلة، بينما يُعرض الهايبرتكست أمام القارئ من خلال شاشة الكمبيوتر فقط) . لقد عمَد الأدب الرقمي إلى إيجادِ مجتمعات جديدة تحرّرت من قيود المكان، وانفصمت فيها عُرى الانتماءات والهُوِيّات، واضمحلّت فيها الاختلافات بين ثقافات الشعوب، وأصبح الانتماء الأصيل الذي زالت فيه الحدود بين الدول إلى هذا العالم الافتراضي الذي ثار على كلّ الروابط العِرقية واللغوية والاجتماعية والدينية، وأصبحت فيه الذات الجَمْعيّة هي صاحبة الكلمة العليا، وسيطرت اللغة الرقمية فيه على كل المستخدمين لها، وأصبح الوسيط الإلكتروني (الحاسب) هو عماد هذا العالم الافتراضي، هذا العالم الذي جذب إليه المتلقّين من كلّ مكان، وحوّلَ اهتماماتهم إلى مجاراته ومحاولة اللَّحاق بركبه، وجعلَ المؤلّف الأوّل (المبدع) يلهث متتبعًا آراء المتلقّين، ومدى تفاعلهم مع عمله الأدبي؛ سعيًا إلى انتشار هذا العمل في شكل يتحوّل في بعض الأحيان إلى نوع من المحاباة من أصدقاء المبدع أو ذويه، وإذا كان المتلّقي قد تحرّر من سلطة المبدع على النصّ؛ فإنّه بلا شكٍّ قد ظلّ رهنًا لثقافته الذاتية، ومحاولته توليد إبداعٍ يتفوّق به على المبدع الأوّل للنصّ، ويحوّله هو أيضًا إلى مبدع جديد، وكان من نتيجة سِمَةِ التفاعلية في الأدب الرقمي خلخلةُ عناصر العملية الإبداعية؛ بترجيحها كِفَةَ المتلقّي للنصوص الإبداعية الرقمية على المبدع الأول؛ لفاعليّته في التلقّي والقراءة بالمستوى البسيط، والتفسير والتأويل بالمستوى المركّب.

وعلى الأديـب أن يجيد استخدام الحاسوب؛ حتى يستطيع الإفادة منه في إيصال أدبه بيسر إلى المتلقّين بعيدًا عن تعقيدات الطباعة ومراغمات التوزيع، فالأديب يستطيع أن يتدخّل بنفسه في إنتاج نصِّه معتمدًا على البرمجيات المختلفة التي تساعده على توظيف الصوت والصورة والموسيقى والتشكيل بطرائق لا حصر لها تفتحُ له مجال الإبداع، وتمكّنه من إظهار منتجه الثقافي في صور متعدّدة .

وقد ظهرت أوّلُ رِواية رقمية عربية في عام «2001م» للرِّوائي الأردني محمد السناجلة بعنوان «ظلال الواحد»؛ فهو أوّل رِوائي عربي يستخدم تقنية النصّ المتفرِّع وما يتاح فيها من روابطَ لإنتاج رواية تفاعلية تعتمد عدم الخطّيّة في تسلسل أحداثها وعناصر بنائها القصصي، وتوالت بعد ذلك أعمالُه الرِّوائية، منها شات، وصقيع، وغيرُها، أمّا السَّرْد الرقمي (فقد ظهر أوّل مرة لدى مايكل جويس في الولايات المتحدة الأمريكية في عام (1985م) الذي ظهرت فيه أيضًا أوّل قصيدة شعرية رقمية) ، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ مصطلح الأدب الرقمي، والأدب الإلكتروني، قد انتشرا بسرعة في الساحة الثقافية والإعلامية الفرنكفونية، وشاع استخدام مصطلح الأدب الإلكتروني في فرنسا بين عامي (1980-1990)، بينما جاء مصطلح النصّ المترابط «Hyper text» أكثر انتشارًا في الثقافة الأنجلوسكسونية، (وتفضل بلدان أخرى في أوربا استخدام مصطلح أدب الصورة أو الأدب الديجيتالي الذي يحيل إلى الصورة الرقمية من جهة، ومجال التصوير الإنعكاسي والمسح الإشعاعي من جهة أخرى) .

وأخيرًا

يمكننا أن نقول:

❋ الأدب الرقمي التفاعلي هو نوع جديد من الأنواع التي تمخَّضت عنها منجزات الحداثة، وقد شغل النقَّادَ والباحثين منذ نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحادي والعشرين، وامتدَّ الاهتمام به من الغرب إلى أدبائنا، بَدْءًا من محمد سناجلة من الأردن في روايات (شات- صقيع – ظلال الواحد)، ثمّ عباس مشتاق من العراق (تباريح لسيرة بعضها أزرق)، وأحمد خالد توفيق من مصر (قصة ربع مخيفة)، وغيرهم.

❋ محدودية انتشار هذا النوع من الأدب في ثقافتنا العربية المعاصرة التي تعاني من وجود نسبةِ أمّيّةٍ عالية في التطبيقات التكنولوجية الحديثة؛ تُحتّم ضرورةَ العمل على نشر هذا النوع الأدبي باعتباره تطوّرًا مهمًّا يواكب منجزات الحضارة الحديثة .

❋ لا شكّ في ضرورة امتلاك الأديب الرقّمي للمهارات المتعدِّدة التي تساعده على إخراج عمله الأدبي؛ فالصورة والصوت عناصر مهمّة في عملية التخييل التي يمارسها الأديب، ومن ثَمَّ أصبحت المؤثّرات الصوتية والحركية والوسائط الإلكترونية جزءًا مهمًّا من أجزاء العمل الأدبي.

❋ للأدب الرقمي التفاعلي دور كبير في تحويل المتلقّي إلى مشارك للمبدع في العمل الإبداعي، دون إهدار حقٍّ المؤلف أو المبدع الأول للعمل الأدبي بوصفه نواةَ هذا العمل وصاحبَ السَّبق فيه.



شِعْرية الوفاء

في نُونيّة ابن زيدون

يشكِّل الوفاء في نونيَة ابن زيدون البؤرة المعنوية التي تتفرَّع عنها المعاني النَّوَوية وتدور في فلكها، ويتأرجح ذِكره بين التعبير المباشر والضِّمْني، ورغم تردُّده في ثنايا أبيات القصيدة يحافظ معنى الوفاء على حرارته ونبضه وتأثيره، ويعود ذلك إلى براعة الإخراج التي تُبنى على شعرية الاختلاف. يصل عدد أبيات موضوعة الوفاء في نونيّة ابن زيدون إلى 17 بيتًا من أصل 51 بيتًا؛ أي ما يقارب 34 في المائة، وتُحيل هذه النسبة إلى التعلُّق العميق والرغبةِ الخفيّة في إقناع النفس بسَراب الوصال، وكذا إيهامِ المحبوبةِ بصدق الودّ. يحيا الشاعر في دائرة الماضي لا يغادرها، ويَجِد في التغنّي بحفظ الودّ سبيلاً إلى إطالة أمد العلاقة التي أنهاها الفراق، ويصير الوفاء شعورًا يسقي شجرة الودّ في الوِجْدان؛ إذ يُحوِّله الشاعر إلى واقعة لغوية حيّة تقي الذكريات والمشاعرَ خطرَ المَحْوِ والنّسيان، وبيْن استدعاءِ الماضي ونقش صورته تعبيريّاً، يصير الوفاء نشيدًا صادقًا يرتّله الشاعر ويصدح به تعبيرًا عن حقيقة المحبّة.



د. سعيد بكور
أستاذ الأدب العربي القديم،
جامعة ابن طُفيل، المغرب.

إنّ الوفاء عند ابن زيدون ليس مجرَّدَ شعور أو موقف؛ بل هو عقيدة يؤمن بها، ودِين يدين به:

لمْ نعتقدْ بعدكم إلاّ الوفاءَ لكم
رأيا، ولم نتقلّد غيره دِينا

يعدّ هذا البيت النواة المعنويّة التي تتناسل عنها أبياتُ الوفاء؛ إذ يوظِّف الشاعر صورةً تعبيريّة يتصدَّرها النفي الذي يَرِد مرتين تأكيدًا ونفيًا لأيِّ ظنٍّ أو تُهَمة. إنّها محاولة أخيرة لاستجلاب عطف المحبوبة التي حسمت قرارها بالتنائي، وعليه لم يبقَ للشاعر إلاّ أن يصدح بنشيد الوفاء بعدما داخله اليأس من الوصال.

يُعدُّ الشوق والبكاء من لوازم الوفاء، حيث يرتبطان به ارتباطًا عضويًّا سببيًّا:

بِنْتُم وبِنّا، فما ابْتَلّتْ جوانِحُنا
شوْقًا إليكم، ولا جَفّتْ مآقينا

إنّ عدم جفاف المآقي يفيد استمرار الارتباط الشعوري، ويعكس

الوفاء المتوقد الذي لم يَخْفِت. بين (بِنْتُم) و (بِنّا) مسافةٌ زمنية صوّرها لنا حرف الواو الذي تحوّل إلى فاصل زمني قاهر حاسم، هذا إلى جانب الفصل الضمائري بين (تُم) و (نا) الذي يؤكد اتساع الهوّة بين الشاعر ومحبوبته. إنّها اللغة عندما تعكس المعنى والواقع.

من تجلّيات الوفاء لجوء الشاعر إلى مناجاة المحبوبة طلبًا للتنفيس وهروبًا من واقع الفراق:

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأَسِّينا

لم يبق للشاعر إلّا أن يتخيل المحبوبة ويناجيها بعد أن صار متعذَّرًا عليه مقابلتُها. إنّها طريقة لتعويض الفشل في التلاقي، ولأنّ المناجاة ترهق وتبعث الأسى يستنجد الشاعر بالتأسّي الذي يتحوّل إلى واقٍ يحول دون الوصول إلى حافة الموت. هكذا يصبح التأسّي مانعًا يَهَبُه جرعة الأمل، ويؤجّل النهاية.

يمثل الجمع (ضمائر) اختيارًا أسلوبيًّا دالًّا يصوّر فَرْط الشوق، ويزيد من فاعليّته بُعدُه التشخيصي؛ إذ نتصوّر الضمائر جوقة تصدح بالمناجاة علّها تنفّس عمّا بالشاعر من وَلَهٍ يكاد يقضي عليه.

رغم بيْنِ المحبوبة لا يزال الشاعر متعلّقًا بها، حيث يستثمر الأسلوب الإنشائي لتصوير تدفّقه الانفعالي وبَوْحه النفسي:

لِيُسْقَ عهدُكم عهدُ السّرور، فما
كنتم لأرواحنا إلّا رياحينا
لا تحسبوا نأْيكم عنّا يغيّرنا
أنْ طالما غيّر النّأيُ المحبّينا



واللهِ ما طلبتْ أهواؤُنا بدَلًا
منكم، ولا انصرَفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلًا عنكِ يَشغلنا
ولا اتّخذنا بديلًا منكِ يُسْلينا

يلجأ الشاعر إلى تقنية التشخيص ليمنح تعبيره الحركية التي تعكس واقعًا لا يهدأ، وفي هذا السياق يدعو لعهد الهوى بالسقيا كأنّه مازال يُمنّي النفس ببعثه، ويوظّف أسلوب النفي ليؤكّد الثبات على العهد ونفيَ التغيّر عن مشاعره، وساعَده القسم على ترسيخ غاية الإثبات، وهكذا تتآزر أساليب النهي والنفي والقسم لأداء الوظيفة الإقناعية ودحض شبهة النسيان.

إنّ الشاعر مسكون بدفع تُهمة النسيان، والظاهر أنْ لا أحد يتّهمه، لكنّه يخفّف عن نفسه وينفّس عنها، والقسم يرتبط بقوّة الانفعال وامتداده، كما يرتبط بالرغبة في الإقناع. ولم يكتف بنفيٍ واحد؛ بل أكثرَ من الأساليب التي تصُبُّ في دفع التُّهمة.

يختار الشاعر الأسلوب الأنسب للتعبير عن الحالة الشعورية، وعن تصاعد المدِّ الانفعالي الداخلي:

يا ساريَ البرقِ غَادِ القصرَ واسْقِ به
من كان صِرفَ الهوى والوُدِّ يسقينا
واسألْ هنالك هل عنَّى تذكُّرنا
إلْفًا، تَذَكُّرُه أمسى يُعَنِّينا
ويا نسيمَ الصَّبا بلِّغ تحيَّتنا
من لو على البعد حَيًا كان يُحيِينا

يرتبط هذا المقطع بالسابق ارتباطًا عضويًّا من حيثُ الاتّحاد في تأكيد العهد والحرص على السقيا بغيةَ بعثِ الوصال والحياة الغابرة. وتكرارُ السقي يؤكّد الحنين إلى ربيع الهوى الذي تحوّل إلى رماد وخريف.

يؤنسن الشاعر عناصر الطبيعة ويخاطبها على سبيل التشخيص كأنّه لم يجد رسولًا من بني جنسه يكلّفه ما يريد، وتعبّر الأبيات الثلاث عن عجزه الكسيح عن تحقيق الوصال، ورغم يقينه بنهاية القصّة يصرّ على إطالة أمد الأمل.

لقد ساهم الجناس (تحيتنا، حَيّا، يحيينا) في تصوير المعنى، فالتحيّة عُرْبُون وفاء، والتذكُّر المفرز للمعاناة دليل استمرار التعلُّق بالسراب. وبين الاستفهام والأمر يظلّ أمل الشاعر معلَّقًا. إنّ التفاعل بين الصور الشعرية والأساليب الإنشائية صَوَّرَ الواقع النفسي الذي يلوّنه الوهم والاضطراب.

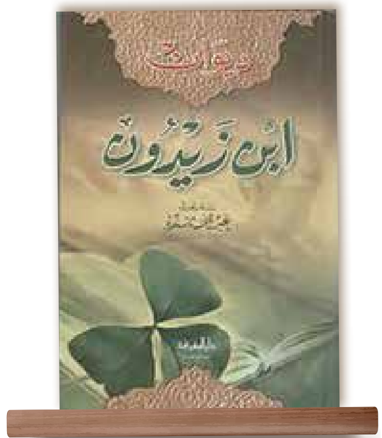
يعبّر الشاعر عن تِيْمَة الوفاء بصِيَغٍ مختلفة، ممّا يجعلها نابضة محافظة على حرارتها:

أمّا هواك فلم نَعْدِل بِمَنْهَلِه
شِرْبًا وإن كان يَروينا فيُظمينا
لم نَجْفُ أفْقَ جمالٍ أنت كوكبه
سالين عنه، ولم نهْجره قالِينا

ولا اختيارًا تجنّباه عن كَثَب
لكنْ عَدَتْنا -على كُرْهٍ- عوادينا

يصرُّ الشاعر على التعلُّق بالمحبوبة، ويجعل النفي مسلكًا تعبيريًّا لتصوير ذلك، ويؤكِّد هذا جَماليّة الإخراج والقدرة على تفريغ المعاني النووية، فرغم أنّ هوى المحبوبة يظمئه يصرُّ على التشبُّث به، وكما يستخدم النفي للإثبات (لم نعدل) يوظِّفه لدفع التُّهمة (لم نهجره قالِينا)، وبعد هذا المدِّ الانفعالي الساعي إلى التأكيد والنفي معًا يلجأ الشاعر إلى الاستدراك ليبرز أنّ الأمر خارج عن إرادته (لكنْ عَدَتْنا على كره عوادينا).

إنّ معاني الوفاء في القصيدة يحكمها التدرُّج الدالُّ، إضافة إلى ارتباطها السببي بالامتداد الانفعالي الذي



يخضع للتموُّج، ويتراوح بين الهدوء والاندفاع، ويكشف في الوقت نفسه عن واقع نفسي لا يعرف الاستقرار، ولهذا السبب جاءت الأبيات الأخيرة نتيجةً مؤكِّدة للبقاء على الوفاء.

للواقع النفسي دور في اختيار الأساليب وتنوُّعها، ويؤكِّد تساوُقَ التجربة مع التعبير:

دُومي على العهد ما دُمْنا محافظة
فالحُرُّ من دَانَ إنصافًا كما دِينا
فما استعضْنا خليلاً منكِ يحبِسنا
ولا استفدْنا حبيبًا عنكِ يُثنينا
ولو صَبَا علينا مِن عُلْوِ مَطلعه
بدرُ الدُّجى لم يكن حاشاك يُصْبينا

لا يملك الشاعر إلّا أن يتوسَّل ويتودَّد، فذلك أقصى ما يستطيعه، والأمر (دومي) خيار تعبيري مفروض يمليه الشعور اليائس، ويقوّي هذا الفهمَ إردافُ الأمر بالنفي والتوازي، ويَدخُل النفيُ ضمن محاولة الشاعر الإقناعَ ببقائه على العهد، ويزيد الشرط من تقوية البعد الحِجاجي العاطفي الذي صار الملاذ التعبيري بعد فقد الأمل في الوِصال.

لا يملك الشاعر إلّا أن يتوسَّل ويتودَّد، فذلك أقصى ما يستطيعه، والأمر (دومي) خيار تعبيري مفروض يمليه الشعور اليائس، ويقوّي هذا الفهمَ إردافُ الأمر بالنفي والتوازي

هكذا تسير الأبيات محكومة بتنام معنوي صاعد يقوم على التناسل، وهو ما يفسِّر إنهاء القصيدة ببيت يعكس موت الأمل:

أَوْلِي وفاءً وإن لم تبذلي صلةً
فالطَّيف يقنعنا، والذِّكر يكفينا

يمثِّل البيت الأخير الصرخة الداخلية التي حُكم عليها بالوأد، فالأمر يلتبس بحَمُولة التودُّد، وهو بذلك يقينٌ بالنهاية السوداوية المحتومة التي ظلَّ الشاعر يؤجِّل التصريح بها متغنِّيًا بالوفاء ودفعِ تُهمةِ النسيان.

لم يَعد الشاعر يستطيع تحقيق الوصال، لذلك يتوسَّل إلى المحبوبة بأنْ تعطف عليه بسؤال أو تذكُّر، ولا أدلَّ على ذلك من قناعته بأنْ يزوره طيفُها أو أن يكون ذِكرًا في لحظة عابرة. إنّه حال العشّاق في كلّ زمان بعد أن يفقدوا الأمل في الوصال. ويعكس التوازي (فالطيف يقنعنا \ والذِّكر يكفينا) حالةَ هدوء ويقين وثبات تؤكِّد محاكاة الصورة الصوتية للصورة الشعرية.

ألا أَيُّها البِنْتانِ إِنَّ أَباكُما



يُرْوى أَنَّ شاعِرًا كانَتْ له ابْنَتانِ على قَدْرٍ منَ الذَّكاءِ والفِطْنَة، وَحَدَثَ أَنْ لَقِيَ الشّاعِرُ عَدُوًّا كانَ يَطْلُبُهُ فَعرَفَ أَنَّهُ مَقتولٌ لا مَحالَة، فَوَصَفَ الشّاعِرُ مَنْزِلَه لِعَدِوِّه، ورَجاهُ أَنْ يذهَبَ إليهِ بعدَ قَتْلِه، فَيُلْقي على ابْنَتَيهِ شَطْرَ بَيْتٍ من الشِّعْرِ، هو:

ألا أَيُّها البِنْتانِ إِنَّ أَباكُما

فَوَعَدَهُ الرَّجُلُ أَنْ يُلَبِّيَ له طَلبَه، فَقتَلَهُ وذَهَبَ إلى منزِله وطرَقَ الباب، فَلَّما رَدَّتْ عليهِ إِحْدى البِنْتَين قال:

ألا أَيُّها البِنْتانِ إِنَّ أَباكُما

فَرَدَّت البِنْتانِ في صَوْتٍ واحِدٍ:

قَتيلٌ خُذا بِالثّارِ مِمَّنْ أَتاكُما

ثُمَّ صاحَتا حَتَّى تَجمَّعَ النّاس، فَقُبِضَ على الرَّجُلِ وَنُفِّذَ فيهِ القِصاصُ.

المَنحى الجَمالي في ديوان مُحمّد بن الطّلبَة

لا شكَّ في أنّ العطاء الثقافي الموريتاني ما يزال غائباً في كثير من جوانبه عن الساحة الأدبية والثقافية في عالمنا العربي، وذلك لأسباب عديدة؛ منها: ضياع كثير من هذا التراث بعامل البداوة والتّرحال الذي طبع أهل هذه البلاد، ومنها انزياح كثير من العلماء والأدباء عن الأنظار تَورُّعاً وخوفاً من الرياء والمباهاة، فلم يهتموا بحفظ مؤلفاتهم، ولم يترجموا لأنفسهم؛ فهذا أحمد بن الأمين الشنقيطي – صاحب كتاب الوسيط وغيره- لم يترجم لنفسه، ولم يُعرف عنه إلاّ أنه نَزيلُ القاهرة وفيها تُوفّي.

وبناءً عليه؛ فإني سأعرّف القارئَ الكريم في هذا المقال إلى عَلَم من أعلام الأدب والشعر في بلاد شنقيط، ألا وهو مُحمّدُ بن الطُّلْبة الموسوي اليعقوبي (1188ه – 1272ه).



د. أحمد غوثم امّمد
سكرتير تحرير مجلة الرافد الرقمي

ولن أتوقّف هنا عند اسمه ونسبه وتطوافه بين المحاظر الشنقيطية، وشيوخه وتلامذته، وإن كانت هذه جوانب مهمّة من حياته ومسيرته العلمية؛ وإنّما سأعرّف القارئ إليه انطلاقاً من شعره وبيئته البدوية، ومنزلته بين معاصريه.

محمد بن الطلبة.. ومكانته عند معاصريه

كان القرن الذي عاش فيه ابن الطلبة قرناً استوت فيه الثقافة الشنقيطية على سُوقها، فعاصر جمّاً غفيراً من العلماء والشعراء وذوي السلطان، وكانت له صلات وثيقة بكثير منهم، وقد أجمعوا على أنه كان عالماً سخيّاً، راجح العقل، دَمِثَ الأخلاق، حلو المعاشرة. وقد حظِيتْ خصاله وشعره باهتمام كبير لدى علماء الشناقطة ممّن عاصروه أو جاؤوا بعده. فهذا محمد فال بن متالي التندغي يصفه بعبارة موجزة قائلاً: «هذا عربي أخّره الله»، وهذا يعني أنّه أحد سادة العرب تمّ استثناؤه من زمن الصحابة، والتابعين الأوّلين ليعيش عهداً تأخّر زماناً بنحو اثني عشر قرناً، ولعلّ الأمر هنا لا يتعلّق بِبَرْي النِّبال وامتطاء العِيْس وإجادة القريض، بقدر ما يتعلق بامتلاك ناصية اللغة، والتبحُّر في علوم القرآن والحديث، وتمثُّل الثقافة العربية في أسسها علماً وعَمَلاً؛ يدلّ على ذلك مؤلَّفاته التي تركها كنظم التسهيل لابن مالك، ونظم الشيخ خليل، و«مجمع محمد» وهو كتاب في الأدب جمع فيه مختاراتٍ وتقييدات من الأغاني والأمالي والنوادر وغيرها، وشرح ديوان الشعراء الستة الجاهليين.

البيئة التي عاش فيها ابن الطلبة

إن جانباً مهمّاً من جوانب الإبداع في الشعر الشنقيطي يرجع أساساً إلى البيئة البدوية التي عاش فيها هذا الشعر وترعرع حتى بلغ ما بلغ، وهي بيئة تشابه في كثير من خصائصها البيئةَ العربية القديمة، فهذا التلاقي والتشابه بين البيئتين أنتج شعراً يُعانق الشعر العربي القديم في جُلِّ

كان القرن الذي عاش فيه ابن الطلبة قرناً استوت فيه الثقافة الشنقيطية على سُوقها، فعاصر جمّاً غفيراً من العلماء والشعراء وذوي السلطان

إن جانباً مهمّاً من جوانب الإبداع في الشعر الشنقيطي يرجع أساساً إلى البيئة البدوية التي عاش فيها هذا الشعر

خصائصه ومميزاته، ويمكن أن نختصر هذا التلاقي بين الجزيرة العربية وبلاد شنقيط في الآتي:

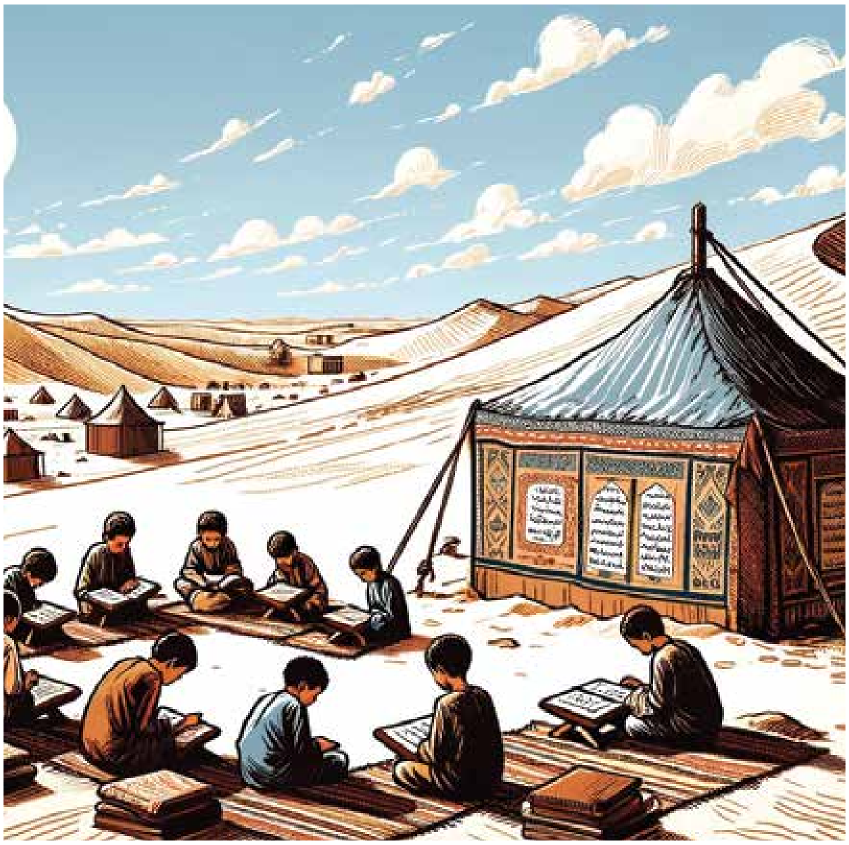
* تماثل البيئة؛ ويتجلّى هذا التماثل في المكوّنات البشرية والثقافية بين البيئتين، وخاصّةً الهجراتِ الحِمْيريّة القديمة من الحجاز إلى مصر، ثمّ إلى إفريقيا، وقد استقبلت صحراء شنقيط جُلَّ هذه الهجرات.

* المناخ؛ إنّ قِلَّة الأمطار وارتفاع درجات الحرارة وانخفاض الرطوبة في بعض مناطق شنقيط، كلُّها عوامل تؤكّد التشابه بين الجزيرة العربية وبلاد شنقيط.. ومن هذا التماثل أيضاً موارد المياه ومعالم سطح الأرض، وكذلك الغطاء النباتي من حيث الأشجار والشُّجيرات والأعشاب.

* الحيوانات؛ ومنها أيضاً التشابه في الحيوانات، فالحيوانات في الجزيرة العربية تُماثل الحيوانات في بلاد شنقيط؛ من طيور وزواحفَ وخيل وإبل.. وهي الحيوانُ الأوسع انتشاراً والأكثرُ حُظْوة لدى معظم سكان المنطقتين. وغير ذلك من الحيوانات البرية مثل الغزلان والظباء والمَها وحمُر الوحش والوعُول والأرانب التي كانت موجودة إلى عهد قريب.

هذه العناصر وغيرها كثير جعلت الشاعر الفحل محمد بن الطلبة يقرضُ قصائد يُعارض فيها أصحاب المعلقات وغيرهم من الشعراء المخضرمين، من أمثال حسّان بن ثابت الخزرجي الأنصاري، وحُميد بن ثور الهلالي العامري، والشّمّاخ بن ضِرار المازني الغطفاني.

يروي صاحب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط أنّ ابن الطلبة لمّا أنهى نظم جيميته وأبرزها للناس، قال: «أرجو من الله أن أقعد أنا والشَّمّاخ بن ضِرار في



نادٍ من أهل الجنة، وننشد بين أيديهم قصيدتيْنا لنعلم أيُّهما أحسن» .

وجيميّته التي عارض بها جيمية الشَّمّاخ هي:

تَطاوَلَ ليلُ النَّازِحِ المُتَهَيِّجِ
أمَا لضيّاءِ الصُّبحِ من مُتبلّجِ

ولا لِظَلامِ الليلِ من متزَحزحِ
وليْسَ لِنجْمٍ من ذهابٍ ولا مَجي

فَيَا مَنْ لِلَيْلٍ لا يزولُ كَأنما
شُدّتْ هَواديهِ على هَضْبَتَيْ إج

كأنّ به الجَوزاءَ والنّجمُ رَبْربٌ
فراقِدُها في عُنّةٍ لم تُفرّجِ

وتَحسبُ صِبْيانَ المَجرّةِ وَسْطها
تَناوِيرَ أزهارٍ نَبتْنَ بِهَجْهَجِ

كأنّ نُجومَ الشّعرَيينِ بِمَلْكها
هَجائِنُ عَقْرَى في مَلاحِبِ مَنهَجِ

إلى آخر القصيدة... وهي تزيد على مائة بيت من الشعر الجميل.

أمّا جيميّة الشّمّاخ التي عارضها شاعرنا فهي:

ألَا ناديا أظْعان لَيلى تُعرّجِ
فقدْ هِجْنَ شوقاً ليتهُ لم يُهيّجِ

ويروي صاحب الوسيط أيضاً أن ابن الطلبة قال يوماً في مجلسٍ أنْشَدَ فيه ميميّته: "أرجو من الله أنّي أنا وحُميد بن ثور ننشد قصيدتينا في نادٍ من أهل الجنة، فيحكمون بيننا».

وهذه الميميّة هي التي يقول في مطلعها:

تَأوّبَهُ طَيْفُ الخَيالِ بِمَرْيَمَا
فَباتَ مُعَنًّى مُسْتَجَنّاً مُتَيّمَا

تَأَوَّبَهُ بَعْدَ الهُجُوعِ فَهَاضَهُ
فأَبْدَى مِنَ التَّهْيَامِ مَا كَانَ جَمْجَمَا
لَطَافَ بِهِ حتَّى إذا النّفسُ أجْهَشَتْ
وأبْدَتْ بَنَاناً لِي خَضيباً ومِعْصَمَا
ووجْهاً كأنّ البَدْرَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ
وعَشْرٍ عَلَيهِ نَاصِلاً قد تَهَمّمَا
تَوَلّى كأنّ اللّمْحَ بالطّرْفِ زَوْرُهُ
وكَانَ وَداعاً منهُ أنْ هُوَ سَلَّمَا

***

ألا يا خَلِيلَيَ ارْحَلا وَتَيَمّمَا
بِنَا حيْثُ أمْسَى رَائِدُ الظُّعْنِ يَمَّمَا
فَكَيْفَ القَرارُ بَعْدَمَا قِيلَ يَمَّمَتْ
مَرابِعَهَا بالحُوِّ أَظْعَانُ مَرْيَمَا
ظَعَائِنُ يَهْدِيهِنّ في كُلِّ نُجْعَةٍ
مِنَ القَوْمِ مِئْنَافٌ إذا هَمَّ صَمْصَمَا
عَسَى اللهُ يُدْنِي بَعْدَ بُعْدِ مَزارَهُمْ
فَيأْنَسَ صَبٌّ بَعْدَ حُزْنٍ ويَنْعَمَا

إلى آخر الميميّة، وهي طويلة تُناهزُ سِتاً وتسْعين بيتاً من بحر الطويل.

أمّا ميميّة حُميد بن ثور الهلالي – رضي الله عنه- التي عارضها ابن الطلبة، فمطلعها:

أَلاَ هَيَّما مِمَّا لَقِيتُ وهَيّمَا
وَوَيْحاً لمنْ لَمْ ألقَ منهنّ ويْحمَا
أأَسْمَاءُ ما أسْمَاءُ لَيْلَةَ أَدْلَجَتْ
إلَيَّ وَأَصْحابِي بِأَيِّ وأيْنَمَا

ونترك القارئ الكريم أمام هذه النصوص الجميلة ليحكم بينها.



الأغراض والمضامين عند ابن الطلبة

لا تختلف أغراض الشعر عند محمد بن الطلبة عن الأغراض والمضامين المعروفة في المدوَّنة الشعرية القديمة في الغالب، اللّهمَّ إلّا غرضين لا نجدهما كثيراً في شعره، وهما: المدح التكسبّيّ والهجاء، فقد عاش الرجل – حسب كلِّ من ترجم له- غنيّ النفس عفيف اللسان. وشعره يدلُّ على ذلك، يقول من بحر الطويل:

وليسَ الغِنَى إلّا اعتزازَ قناعةٍ ... تُجِلُّ
أخاها أنْ يُذلَّ ويُشْتَمَا

أمّا باقي الأغراض من حُسن الوصف، ودقّة التوصيف فحدّث ولا حرج، يقول في وصف رحلات الظعائن:

ونَادى مُنادي الحيِّ مُسْيًا وَقَوّضوا
نقائضَهُمْ يا هادِيَ الحيِّ أدْلِجِ
وَقُرِّبتِ الأجمالُ حتّى إذا بدتْ
نُجومُ الثريّا في الدُّجى كالسّمرّجِ

تكنّسْنَ أحداجاً على كُلّ ناعجٍ
عبنّ بأنواعِ التّهاويلِ مُحْدَجِ

ولا تقف مناحي الجمال الشعري عند ابن الطلبة على هذا الحدِّ، بل تتجاوزه إلى مناحٍ أخرى في أدب ووقار:

قَضَيْنَا لُبَانَاتِ الصِّبا ونُذورهُ
بها ثمّ تَمّ اللّهوُ غَيْرُ المُشَنّعِ
خَليليّ ما الخلُّ الوفيّ سوى الذي
متَى تُسْرَرا أوْ تَجْزعْ يُسَرَّ ويجْزَعِ
فإنْ كنتُمَا منِّي فمُوتَا صَبابَةً
عليْها وإلاّ فَلْتُجنّا معاً مَعِي

وإلّا فما أوفيتُما بذِمامتي... إذا أنتما لم تجزعا مثلَ مجزعي

ألم تَريَا الأطْلالَ أمْستْ مجاثِماً
بها أحرزتْ أذراعهَا كلُّ مُذرعٍ
فأصْبحْنَ من عِينِ الأنِيسِ أوَاهِلاً
بأشْباهِها من عِينِ وحْشٍ مُلَمّعِ

ولعلّ القارئ الكريم يلاحظ هذا الالتزام التامَّ بالأغراض الشعريّة كما وردت عند الأقدمين، من الوقوف على الأطلال، والغزل، والرحلة عبر الصحراء، ثمّ التخلُّص الجميل إلى غرض القصيدة.

ختاماً؛ أرجو أن يكون في هذا التّطوافِ ما يُعرّف القارئ الكريم إلى هذا العلم الشامخ، والشاعر الفحل، الذي كان حسنةً من حسنات الدهر في بلاد شنقيط، حسب عبارة الوسيط.

❋ ديوان محمد بن الطلبة.
❋ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين
❋ الشعر والشعراء لمحمد المختار بن ابّاه.

مُفاصَلَةٌ في السِّعْرِ بِالشِّعْر



يُحْكَى أَنَّ الشّاعِرَ العَبّاسِيَّ أَبا نُوَاسٍ خَرَجَ يَوْمًا يَمْشي في أَحَدِ أَحْياءِ الكوفَةِ قُبَيْلَ عيدِ الأَضْحى، فَرَأَى أَعْرابِيًّا مَعَهُ أَغْنامٌ يَسوقُها، فَابْتَدَرَهُ قائِلًا:

أَيَا صاحِبَ الذَّوْدِ اللَّواتِي يَسوقُها
بِكَمْ ذَلِكَ الكَبْشُ الّذي قَدْ تَقَدَّما؟

فَأَجابَهُ الأَعْرابِيُّ مِنْ فَوْرِهِ شِعْرًا مِنَ الوَزْنِ نَفْسِهِ وَالرَّوِيِّ نَفْسِه، فَقالَ:

أَبيعُكَهُ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي شِراءَهُ
وَلَمْ تَكُ مَزّاحًا بِعِشْرِينَ دِرْهَما

فَقالَ أَبو نُواس:

أَجَدْتَ رَعاكَ اللهُ رَجْعَ جَوابِنا
فَأَحْسِنْ إِلَيْنا إِنْ أَرَدْتَ التَّكَرُّما

فَقالَ الأَعْرابِيُّ:

أَحَطُّ مِنَ العِشْرِينَ خَمْسًا لِأَنَّنِي
أَراكَ ظَرِيفًا فَاخْرِجَنْها مُسَلِّما

بَيْدَ أَنَّ أَبا نُواسٍ انْصَرَف وتَرَكَه.

وَيُحْكَى أَنَّ بعضَ النّاسِ مِمَّنْ شَهِدوا هذهِ المُفاصَلَةَ قالوا لِلْأَعْرابِيِّ: أَتَدْري مَنْ كُنْتَ تُكَلِّم؟ فَأَجابَهُم بالنَّفْي، فَقالوا: إِنَّهُ أَبو نُواس، فَما كانَ مِنَ الرَّجُلِ إلّا أَنْ حَمَلَ الكَبْشَ وأَسْرَعَ، حَتّى أَدْرَكَ أَبا نُواسٍ، فَأَقْسَمَ عليهِ أَنْ يَأْخُذَ الكَبْشَ مِنْهُ هَدِيَّةً خالِصَةً، وإِلّا تَرَكَ كُلَّ غَنَمِهِ في الطَّريقِ.

نَبْرَةُ الاسْتِعْلاءِ عَلى النَّكْبَةِ في شِعْرِ عَلِيِّ بْنِ الجَهْمِ

ذاقَ عَليُّ بْنُ الجَهْم(1) مَرارَةَ السَّجْنِ مَرَّتَيْنِ، وقَدْ مَثَّلَتْ أَشْعارُهُ في الحَبْسِ نَموذَجَيْنِ فَنِّيَّيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، فَقَدْ رَسَمَتْ قَصائِدُهُ خَطًّا بَيانِيًا واضِحًا لِنَفْسِيَّتِهِ مُنْذُ بِدايَةِ دُخولِهِ السِّجْنَ وحَتَّى وَفاتِهِ، فَقَدْ بَدَأَ أَشْعارَهُ بِالشَّكْوى والاسْتِعْطافِ، ثُمَّ انْتَقَلَ بِأَشْعارِهِ إِلى المَرْحَلَةِ التّالِيَةِ بَعْدَما رَأى شَماتَةَ الشّامِتينَ بِهِ، فَأَخَذَتْ أَشْعارُهُ تَحْمِلُ كُلَّ مَعاني القُوَّةِ والاسْتِعْلاءِ، فَتَعَمَّدَ كَتْمَ آلامِهِ وأَظْهَرَ رِضاهُ كاسِرًا بِذَلِكَ ظَهْرَ الحاقِدينَ؛ ولِذا أَسْعى مِنْ خِلالِ هَذِهِ الوَرَقَةِ البَحْثِيَّةِ إِلى اسْتِنْطاقِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ، واسْتِكْناهِ أَسْرارِهِ، والوُقوفِ عَلى مَعانيهِ وإِيحاءاتِهِ اللَّفْظِيَّةِ، وإِبْرازِ سِماتِهِ الفَنِّيَّةِ ومَدْلولاتِهِ الجَمالِيَّةِ.



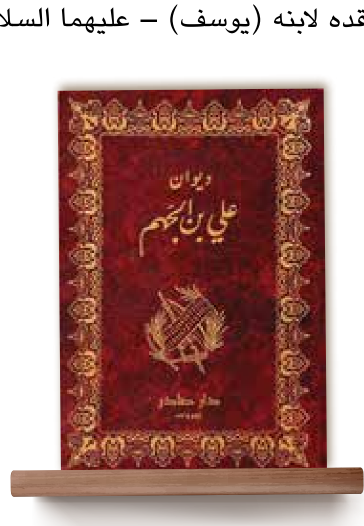
د/ شيماء خميس
دكتوراه في الدراسات الأدبية والنقدية

1 - تجربة السَّجْن الأولى في شعر علي بن الجَهْم:

أوغر الأعداء قلب الخليفة (المتوكّل) على نديمه و حامل أسراره عليِّ بن الجَهْم، ودفعوا الخليفة للزجِّ به في ظلمات السِّجن، فكانت أوّل قصيدة قالها عليُّ بنُ الجَهْم في سجنه، وفيها يبثُّ أوجاعه وأحزانه إلى الله، مستحضرًا عظمته وقدرته، قال:

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ السَّمــــاءِ (1)
وسَلَّمْنا لِأَسْبَابِ القَضاءِ(2)
وَوَطَّنّا عَلَى غَيْرِ اللَّيالـــي
نُفوسًا سامَحَتْ بعدَ الإباءِ
وَأَفْنِيَةُ المُلوكِ مُحَجَّبـــاتٌ
وبابُ الله مَبْذُولُ الفِنــاءِ
فما أرجو سِواهُ لِكَشْفِ ضُرِّي
وَلَمْ أفْزَعْ إلى غَيْرِ الدُّعاءِ
ولِمْ لا أَشْتكي بَثِّي وحُزْنـــي
إلى مَنْ لا يَصَمُّ عَنِ النِّداءِ(3)

ويبدو في القصيدة الأثر القرآني، فالشاعر متأثّر بقوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ (4)، وهو ما ورد على لسان سيدنا (يعقوب) بعد فقده لابنه (يوسف) – عليهما السلام



– ممّا يُبرز ثقافة الشاعر القرآنية، وقد كشف الشاعر معنى البيت عندما أحال المتلقّي إلى تصوّر سيدنا (يعقوب) -عليه السلام – ومأساته لفقد ابنه، وكأنّه وقع في مأساته نفسِها، وما تبعها مِن فقْد بصره؛ لشدّة بكائه وحزنه معبّرًا عن شِدّة ما يلاقيه.

يَعمِد الشاعر إلى استغلال الإيحاءات من وراء ألفاظه، فأبواب الله مفتوحة لاتوصد، وإنْ أَوصَد (المتوكّل) بابه أمام الشاعر وظلمه، فلا يوجد له غيرُ الله يشكو إليه بثَّه وحزنه، بعدما رفض المتوكّل الاستماع إليه، فالله لا يُظلم عنده أحد، فيلجأ الشاعر إلى الله (متوكّلًا) عليه، مؤمنًا بقضائه وقدره، معبّرًا عن مشاعره وتجربته، مُضفيًا عليها مسحة إيمانية نابعة من أعماقه، كما اتّسمت ألفاظه بالرِّقّة واللّين لمناسبة التجربة الأليمة، وكذلك تَكرار

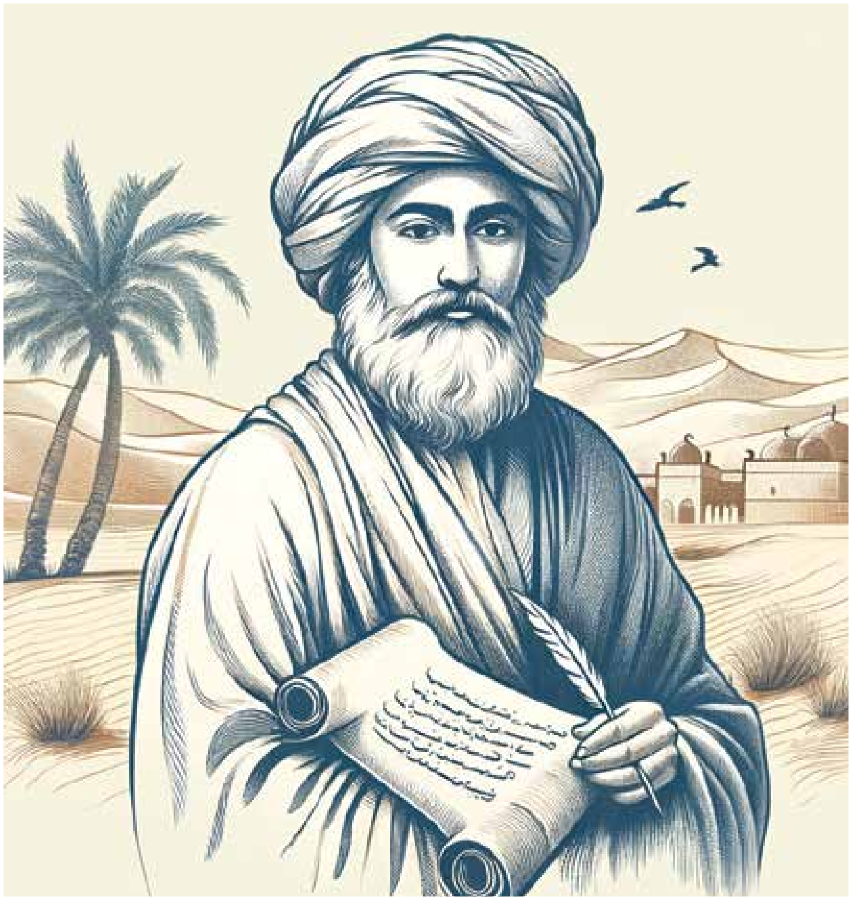
همس حرف السين في البيتين الأوّلين خمس مرات ممّا يعبّر عن حالته، وعمّا يشعر به من حزن وأسى.

إنّ هروب علي بن الجهم من ضعفه وذلّه إلى قوة الله وعزّته، إضافةً إلى حنينه إلى ذكريات حياته السابقة، بمثابة حيلة دفاعية تلجأ إليها نفسُه لتعيد إليها شيئًا من التوازن والاستقرار. الأبيات مفعمة بشِحنات عاطفية صادقة تعبّر عن صِدق التجربة الفنية، وحُسن اختيار الألفاظ المؤدّية للمعاني الموحية، فلا غرابة ولا تعقيد، بل شعر رقيق عذب.

وفي قصيدة أخرى يقول علي بن الجهم :

عَفـــا الله عنكَ ألا حُرمَةٌ
تَعُوذُ بِعَفـوكَ أنْ أُبْعَـــدا
لَئنْ جَـلَّ ذَنْبٌ ولم أعْتَمِدْهُ
فأنت أجَلُّ وأعلى يَـــدا
ألـــمْ ترَ عبدًا عَدا طَوْرَهُ
وَمَولىً عَفـا ورشيداً هَدَى
و مُفْسِـــدَ أَمْــرٍ تلافَيْتَـهُ
فعـــــاد فأصلحَ ما أفْسَدا
أقِلْنـــي أقالَكَ مَنْ لم يَزَلْ
يَقِيكَ ويَصرِف عنكَ الرَّدى(5)

لقد سعى علي بن الجهم لاستعطاف الخليفة وعتابه، ولمّا لم يجد منه إلاَ التجاهل والـصـدود، أخذ يكثر من الاستعطاف وإظهارِ ضعفه وخضوعه له، ويدعو الخليفة أن يعفو عنه؛ ليصرف الله عنه الردى بعفوه، ويستسمحه في المغفرة والصفح، وتتعدّى أبيات القصيدة ثلاثين بيتًا ما بين الاستعطاف،



وإظهار الخضوع، والمبالغة في مدح الخليفة، وتُعدُّ هذه القصيدة أكثر قصائده تذلُّلاً وانكسارًا.

أما السجَّان الذي ذاق عليُّ بن الجهم على يديه كلَّ ويلات العذاب والتنكيل فقد جعله رمزًا للعذاب، غير أنّ هذا (السجَّان) يمثّل لديه إنسانًا جاء من خارج الدنيا التي يحياها البشر، فيشير إليه في شعره مرارًا، ومن ذلك قوله:

خَرَجنا من الدنيا ونحنُ منَ اهلها
فلسنا مِنَ الأحياءِ فيها ولا الموتى
إذا جاءنــا السَّجَّانُ يوماً لحاجةٍ
عجبْنا وقُلْنا جاء هذا من الدُّنيا(6)

وكأنّ السجَّان من شدّة ظُلمه وتعذيبه للمسجونين صار قلبه غليظًا، وطباعه خشنة، وكأنّه لم يأت من هذه الدنيا التي نعيشها، بل جاء من عالم آخر يخلو من القيم الإنسانية الرحيمة، وربّما كانت صورة السَّجَّان أقبح أثرًا إلى نفس السجين، وخاصّةً الشعراءَ منهم، فمجرّد حضور صورتِه كفيلةٌ أن تفسد على الشاعر وَحْيَهُ وإلهامه.

ويصف الشاعر نفسه في سجنه بمن يحيا حياة الأحياء، ولكن في قبره، فلا هو بالحيّ، ولا هو بالميّت، فإن كان من الأحياء فهو لا يحيا حياة أهلها، وكأنّه من الأموات ومازال في الدنيا، وهو وصف دقيق للحالة السيّئة التي وصل إليها علي بن الجهم في محبسه، وهو وصف يخلو من المغالاة أو التهويل؛ إنّما هو تسجيل

خاطف لرجع صدى التجربة القاسية التي يعانيها الشاعر.

إنّ المفارقة بين الموت والحياة وبين اليأس والأمل تُظهر في وضوح نفسيّة الشاعر، فقد عانى الشاعر كثيرًا من الصراع الدائم بين اليأس والأمل، (فالأماكن المغلقة تخلق لدى الإنسان صراعًا داخليًّا بين الرغبات وبين الواقع، وفي الوقت نفسه لا يخلو الأمر من مشاعر الضيق والخوف، ولا سيّما إذا كان المكان المغلق هو السجن.)(7)

لقد عمَد علي بن الجهم في بداية تجربة سجنه إلى نظم أشعار يعاتب فيها الخليفة المتوكّل لما فعله فيه، ويستعطفه لفكّ أسره؛ أملاً أن تعود حياتهما معًا كما كانت، ويبثُّ شكواه وحزنه لِما يلاقيه في سجنه معبّرًا عن ذلك كلّه بلغة تتّسم بالرقّة واللّين، كما قلَّت الصور الفنية في أشعار تجربة سجنه الأولى، فقد كان همُّ الشاعر بثَّ معاناته، والتعبير عن أحزانه تعبيرًا صادقًا، فمثَّل شعره تجربة شعرية صادقة كما اتّضح من النماذج السابقة.

2 - تجربة السجن الثانية في شعر علي بن الجهم:

ما تلبث أن تتبدَّل تجربته السابقة شيئًا فشيئًا، حتى ينحو بشعره منحًى آخر، يعكس فيه الواقع ويَقْلِبه، فيجعل مِن سجنه بيت كرامة، ومكانًا يَحْفِل به فهو موضع الرجال، ويجعل من تجربة سجنه الأليمة تجربة استعلاء وسُمُوٍّ بالنفس عن كلّ نقص، مبرزًا قوّة نفسه، ومظهرًا رباطة جأشه وعدم اكتراثه



بدخول السجن. يقول في مطلع قصيدته الدّالية(8) :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرٍ
حَبْسي وأيُّ مُهنَّدٍ لا يُغْمَـدُ
أوَ ما رَأيتَ اللَّيْثَ يَألفُ غيلَهُ(9)
كِبْرًا وَأوْباشُ السِّباعِ تَــرَدَّدُ
والشمسُ لولا أنّها محجوبةٌ
عن ناظرَيْك لما أَضاءَ الفَرْقَدُ
والبدرُ يُدْرِكُهُ السِّرار(10) فتنجلي
أَيَّامُه وكــأنّه مُتَجَـدِّدُ
والغيثُ يَحْصُرُهُ الغَمَامُ فما يُرى
إلّا وَرَيِّقُهُ(11) يُراحُ وَيَرْعُــدُ
والنارُ في أحجــارِها مخبوءَةٌ
لا تُصطَلى إن لم تُثِرها الأَزْنُدُ(12)

يورد علي بن الجهم في بداية قصيدته طائفة من الأدلّة العقلية، فيشبّه وضعه في السجن بالسيف يُغمد حينًا ويُسلّ أحيانًا، وبالليث الرابض في عرينه؛ استعلاءً على أوباش السباع الهائمة في البراري والوديان، وبالشمس التي لا يضيرها الحَجْب وراء السحب، وبالبدر المختفي آخر أيامه، وبالغيث المحصور داخل الغمام، وبالنار المختفية في الحجر. وجميعها تشبيهات ضمنية تُفهم من سياق الأبيات في وحـدة نفسية عامّة سيطرت على الجوّ العام.

فالشاعر يصوّر سجنه بهذه الصور المحسوسة التي توضّح تأثّره النفسي بمحنته، ومقابلة ذلك بشعور الاستعلاء وعزّة النفس، فهذه صورة اتّخاذ الليث مكانًا تلفّه الأشجار، والبدرِ في عُلُوّه في السماء، والغيثِ الذي ينزل محمّلاً بالخير، والنارِ وإنارتها.

وتنعكس نفسية الشاعر على أبياته السابقة، فيظهر صوت (الأنا) واضحًا، فهو الشمس والبدر والمطر. لقد عانى علي بن الجهم من حبسين؛ الأوّل مادّيّ متمثّل في السجن الحقيقي الذي زُجّ

به فيه، والثاني معنوي متمثّل بانكفاء النفس على أحلامها وتطلُّعاتها، وعدم قدرتها على تحقيق ما تتمنّى.

فكلُّ تلك الصور لها انعكاساتها النفسية لدى الشاعر، فالشاعر ذو شأنٍ عظيم؛ ممّا دفع الحاقدين عليه والمتآمرين عليه يتربّصون به، ويتّخذون مِن جمعهم قوّة ضدّه، ولكنْ هيهاتَ فالشمس ستبقى دافئة، والبدر سيعلو في السماء، والنار متوقّدة دائمًا، فأصبحت بذلك محنته لا تزيده إلّا إصرارًا وشموخًا واعتزازًا.

فضلًا عن أنّ الشاعر يمزج بين الفعلين الماضي والمضارع، فيجعل الماضي (حبست)، ثمّ تتوالى الأفعال المضارعة (يغمد، يألف، تنجلي، يدركه، يحصره، يراح، يرعد) في تتابع مَشْهَدِيّ لكلّ تلك الصور الحسّيّة، مستحضرًا تداعياتها المثيرة لبواعث النفس التي تؤثّر من خلالها البقاء في ثبات وإباء وعزّة نفس. ويستمرّ علي بن الجهم قائلًا في قصيدته:

وَلِكُلِّ حـــالٍ مُعْقِبٌ ولَرُبَّما أَجْلى
لكَ المكروهُ عَمَّا يُحْمَدُ
لا يُؤيسَنَّكَ مِن تَفَرُّجِ كُربَةٍ
خَطْبٌ رَماكَ بهِ الزَّمانُ الأنْكَدُ
كَمْ مِنْ عَليلٍ قَدْ تَخَطَّاه الرَّدى
فنجا وماتَ طَبِيبُهُ والعُوَّدُ(13)

لقد فجّرت التجربة الأليمة ينابيع الحكمة عند الشاعر. وهنا تظهر المفارقة عندما يصوّر الشاعر حاله كحال المريض الذي تخطّاه الموت، ومات طبيبُه، وما يحمله المعنى من مفاجأة، فالتضاد المعنوي بين العليل والطبيب، والردى والموت، وما يقابلهما من تخطٍّ ونجاة، تكمن فيهما المفارقة، وما تؤول به إلى انعكاس لما في نفس الشاعر، ممنّيًا نفسه بالصبر.

"الشاعر ذو شأنٍ عظيم؛ ممّا دفع الحاقدين عليه والمتآمرين عليه يتربّصون به، ويتّخذون مِن جمعهم قوّة ضدّه، ولكنْ هيهاتَ فالشمس ستبقى دافئة، والبدر سيعلو في السماء، والنار متوقّدة دائمًا، فأصبحت بذلك محنته لا تزيده إلّا إصرارًا وشموخًا واعتزازًا

وتتجلّى حدّة الصراع النفسي عند الشاعر لما يعانيه من ضغوطات نفسية يلاقيها في سجنه، فيتّخذ من أشعاره وسيلة للتخلّص من تلك الضغوطات، فقد كان علي بن الجهم متمكّنًا مطبوعًا، يجمع في ألفاظه ما بين الرقّة والقوّة تماشيًا مع الموقف الذي يمرّ به.

يجعل علي بن الجهم من رِفْعته قوّة في مواجهة الذّلّ، مدافعًا عن ذاته الداخلية في مواجهة العالم الخارجي الذي يحياه، فارًّا من هذه النكبة التي يتعرّض لها، محاولًا أن يُرضي نفسه حتى تتّسم بشيء من الاستقرار. وكأنّه بذلك كلّه يوجّه رسالة إلى أعدائه تنكر حقيقة واقعة، وتجعل ممّن سجنه من الذين دبّروا له المكائد كي يوقعوه فيه بمثابة نعمة يتقلّب فيها، فإذا به يأخذ موقفًا عكسيًّا من السجن للردّ على خصومه. يواصل داليّته قائلًا:

فَلَئِنْ بَقِيتُ على الزَّمانِ وكان لي
يومًا منَ المَلكِ الخليفة مَقْعَـدُ
واحْتَجَّ خَصْمي واحْتَجَجْتُ بِحُجَّتي
لَفَلَجْتُ في حُجَجي وخابَ الأبْعَدُ(14)

يعود الشاعر مرّة أخرى لحُجَجِه العقلية، وبراهينه المنطقية؛ لعقد مواجهة بينه وبين كلّ من كادوا له، ويحتجّ كلّ طرف بحُجّته على صدقه، فيدحض الشاعر كلَّ حُجَجِهم الواهية الضعيفة، وينتصر عليهم مظهرًا كلّ مكائدهم وشرورهم.

وإنّ تَكرار علي بن الجهم لمشتقّات (الحجّة) أربع مرّات في بيت واحد (احتج، احتججت، حجتي، حججي) يبرز مقدار الصراع القائم بينه وبين أعدائه، ويؤكّد عزمه على هزيمتهم والانتصار عليهم، فله هو النصر، وهم ليس لهم سوى الخيبة.

لقد حاول علي بن الجهم – كما يدلّ ظاهر الأبيات – أن يبدو هادئ الروح، ساكن النفس، وهو في سجنه، وأن يقنع نفسه براحته ورضاه عن هذا المكان، ولكنْ سَرْعانَ ما يظهر نقيض ذلك، فرغم

كلّ هذه القوة التي يحاول أن يظهرها في شعره تظهر حقيقة الأمر في كلماته، فقوله (إن كان لي يومًا) لها دلالتها النفسية التي يُكِنّها الشاعر ويعمِد إلى إخفائها، وعدم البوح بها، لها دلالة على كمّ الحسرة التي تعانيها نفسه لما آلت إليه حاله في السجن وقد ورد في أخبار علي بن الجهم: «بعدما نفى المتوكّلُ عليَّ بن الجهم إلى خراسان، وكتب بأن يُصلب إذا وردها يومًا إلى الليل، فلمَّا وصل إلى الشاذياخ(13) حبسه (طاهر بن عبد الله بن طاهر) بها، ثمّ أُخرج فصُلب يومًا إلى الليل مجرّدًا، ثمّ أُنزل، فقال في ذلك»(16):

لَمْ يَنْصِبُوا بِالشَّاذِياخِ صَبِيحَةَ الإِ
ثنينِ مَغْمُورًا ولا مَجْهُـــولا
نَصَبُوا بِحَمْدِ الله ملْءَ عُيُونهِمْ
شَرَفًا وَملْءَ صُدُورِهم تَبْجِيلا
ما ازْداد إلاَّ رِفْعَةً بِنُكُولِـه(17)
وازْدَادت الأعداءُ عنه نُكُولا(18)

فتزداد نبرة الاستعلاء والاعتداد بالنفس عند علي بن الجهم كلّما ازدادت محنته

من المؤكّد أنّ الوطن من أحبِّ الأماكن إلى قلب الإنسان، فإن تركه ورحل عنه يشعر بغربته

واشتدّت، فلم تنته تجربته بالحبس وحسب؛ بل إذ به يُجرّد من ملابسه، ويُصلب ليلة كاملة؛ فتنعكس الأمور لديه، فلا يشكو ولا يجزع ولا يتنازل عن كبريائه؛ بل يعلو بنفسه عن كلّ دنيّة، فسجّانوه لم يصلبوا شخصًا مغمورًا أو مجهولاً؛ بل صلبوا شرفًا وتبجيلاً، فإن أراد الأعداء التنكيل به بصلبه مجرَّدًا من ملابسه، فما كان في ذلك إلّا أن زاده رفعة زادت أعداءه فرارًا وإحجامًا عنه.

ويظهر التوافق بين الصَّلب الذي يكون في مكان عالٍ، وعُلُوِّ منزلته ورفعته بسبب نكال الأعداء به، وقد عبَّر بأسلوب القصر (ما ازداد إلّا رفعة)؛ ليدلّ على قوّته وصلابته أمام الأعداء، فهذا الاستعلاء ردّة فعل منه جامحة على ظلم الظالمين له، يقول:

هل كان إلاّ اللَّيْثَ فارقَ غِيلَهُ
فرأَيتَهُ في مَحْمَلٍ مَحْمُـــولا
ما عابَهُ أنْ بُزَّ عنه لِباسُــــهُ
فالسَّيفُ أَهْوَلُ ما يُرى مسلولا
إن يُبْتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْرى به
أَنْ كان ليلةَ تَمِّهِ مَبـــــذولا(19)

شبّه الشاعر نفسه يوم صلبه مجرَّدًا بالليث الذي ترك عرينه، فحُمل في محمل خوفًا من بطشه وقوّته، وبالسيف الذي سُلَّ من غمده فكان أهول منظرًا، وبالبدر الذي تمّ واكتمل ممّا زاده بهاءً، وكلّها تشبيهات بليغة كثيرًا ما شبَّه بها نفسه في محنته ردًا على أعدائه.

واختتم الشاعر أبياته بصيغة اسم المفعول (محمول، مسلول، مبذول)، فالليث حُمل، والسيف سُلّ، والبدر بُذل، وكلّها أفعال قد وقعت على المفعول عُنوة، فأمر الصلب كلّه عُنوة، إضافة لما أحدثته من رنّات موسيقية متكرّرة في نهاية كلّ بيت.

لقد دخل علي بن الجهم السجن

(1)علي بن الجهم بن بدر، يُكنى أبا الحسن، من بني سامة بن لؤي بن غالب، وبنو سامة بطن من قريش العازبة، وُلِد عام (188) للهجرة،وكانت وفاته عام (249) للهجرة.
(2) هي قصيدة تتألف من تسعة وعشرين بيتًا، وذكر الأصفهاني أن هذه القصيدة هي القصيدة الأولى التي نظمها في حبسه، وكتب بها إلى أخيه – انظر الأصفهاني – الأغاني ج–10 ص206.
(3) علي بن الجهم – الديوان – ص 81–82.
(4) القرآن الكريم - سورة يوسف - آية (86).
(5) علي بن الجهم - الديوان - ص 77– 78.
(6) علي بن الجهم – الديوان - ص 96.
(7) حفيظة أحمد – بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية – دراسة نقدية – منشورات الرعاة للدراسات والنشر–فلسطين – 2007م – ص121.
(8) قال أبو الفرج الأصفهاني عن هذه القصيدة: (وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها قالت حبست) الأغاني ج–10 ص 213، وقال المسعودي: (وله في الحبس شعر معروف لم يسبقه إلى معناه أحد وهو قوله: قالت حبست) مروج الذهب – ج–2 ص274.
(9) الغيل: الشجر الكثير الملتف، وهو موضع الأسد.
(10) السرار (بالفتح والكسر): آخر أيام الشهر.
(11) الرَّيِّق من كل شيء: أوله، ومن المطر الشيء اليسير.
(12) علي بن الجهم – الديوان - ص 41–42.
(13) علي بن الجهم – الديوان – ص 44.

«مستخفًّا بالنازلة، معتدًّا بالذات، حريصًا أشدَّ الحرص على ألّا يشمت أعداؤه به، وألّا يقرّ عيون حسّاده بضعفه، فلم ينظر إلى الحادثة إلّا كما ينظر الطَّوْد الشامخ إلى الأمواج العاتية التي تصدم سفحه، فهو لا يرى فيها إلّا دفقات من الماء جاءت لتغسل قدميه، ثم لا تلبث أن ترتدّ عنهما خاسئة ذليلة».(20)

وتتحقّق أمنية علي بن الجهم، ويصدر القرار بالإفراج عنه، ويعود مجدّدًا ليرى النور، لكنْ سَرْعانَ ما ينقلب النور إلى نار، وتصبح أمنيته وجعًا يكابده أكثر ممّا كابده في سجنه، وتنتقل تجربته الحياتية إلى مرحلة جديدة غير معهودة، فبعد خروجه من سجنه رأى انصراف الناس عنه، وجفاءَ أصحابه له، إضافة إلى تجافي الخليفة (المتوكّل) عنه؛ فأخذ ينظر إلى الحياة نظرة سوداء قاتمة تحمل من اليأس ما تحمل؛ فجاءت أشعاره مشبّعة بالصدق الإنساني. يقول بعد خروجه من سجنه:

يشتاقُ كُلُّ غريبٍ عند غُربتِه
ويذْكُرُ الأهْلَ والجيرانَ والوَطَنا
وليس لي وطنٌ أمْسيْتُ أذْكُرُهُ
إلّا المقابرَ إذْ صارتْ لهمْ وَطَنا(21)

وفي مناسبة البيتين السابقين يذكر الأصفهاني(22) أنّ رجلًا من أهل خراسان رأى علي بن الجهم بعد ما أُطلِق من حبسه جالسًا في المقابر، فقال له: «ويحك، ما يجلسك هنا؟»، فأنشد البيتين السابقين.

وكأنّ الحياة خارج السجن باتّساعها ضيّقة في عين علي بن الجهم، فلا يجد له فيها وطنًا يعيش فيه سوى المقابر.

من المؤكّد أنّ الوطن مِن أحبِّ الأماكن إلى قلب الإنسان، فإن تركه ورحل عنه يشعر بغربته، وعلي بن الجهم ينتمي إلى (خراسان)؛ كما ذكر ذلك في أشعاره السابقة، وتحديدًا إلى (الشاذياخ)، ومن هنا تأتي المفارقة، فهذا الوطن هو نفسه المكان الذي سُجن فيه وصُلب وعُلّق فيه عاريًا أمام الناس في واقعة صلبه؛ فإذ بالوطن يصبح مكانًا للتعذيب والهوان بدلاً من أن يكون مكانًا للعزّة والنُّصرة، فتنقلب الأمور وتضيق نفس الشاعر من وطنه، فلم يعد مكانًا مناسبًا للعيش فيه؛ فينفر الشاعر من وطنه، ويشعر بغربته وهو في حضن وطنه، ويتمنّى ملجأً مختلفًا فلا يجد سوى المقابر وطنًا له، متمنّيًا الخلاص من الحياة كلها، فارًّا إلى الموت.

وفي عام (249هـ) خرجت عَلى عليٍّ بن الجهم ومن كان معه خيلٌ من بني كلب؛ فهرب من كان معه، وثبت هو؛ فقاتلهم قتالاً شديدًا، حتى جُرح، وأحسّ بالموت (23). وكان آخر شعر هو قائله:

أَزِيدَ في الليْل لَيْلُ
أمْ سالَ بالصُّبحِ سَيْلُ؟
يا إخْوَتي بدُجَيْل(24)
وأينَ منِّي دُجَيْلُ؟(25)

فأبكى من كان بالقافلة، ودُفن في ذلك المنزل على مرحلة من حلب، وحينما نُزعت منه ثيابه، وُجد معه رقعة مكتوب عليها(26):

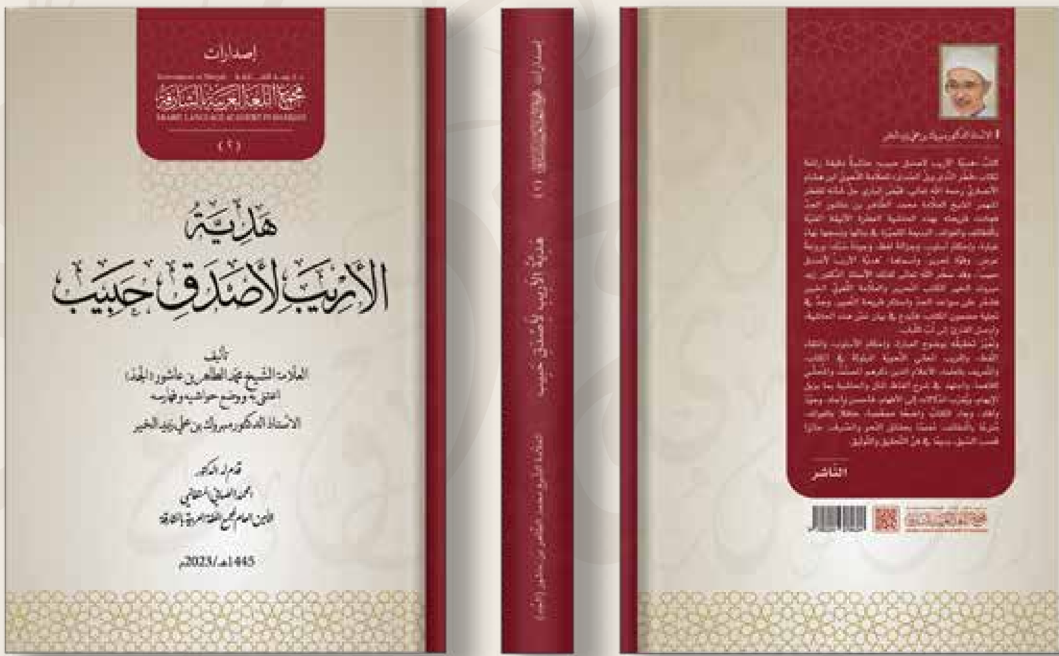
وَارَحْمَتَا للْغريبِ في الْبَلَدِ النَّـ
ـازحِ ماذا بِنَفْسِه صَنَعـا؟
فَارقَ أَحْبابَهُ فما انْتَفَعُـــوا
بِالْعَيش منْ بَعْدِه ولا انْتَفَعا
يقولُ في نَأْيِه وَغُرْبَتـــــِه
عَدْلٌ مِنَ اللهِ كلُّ ما صَنَعا(27)

---

(14) علي بن الجهم – الديوان – ص 47.
(15) الشاذياخ: من ضواحي نيسابورأم بلاد خراسان- انظر هامش ديوان علي بن الجهم – ص 172.
(16) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ج-10 ص 208.
(17) يريد بنكوله الأولى التنكيل به، وبالثانية الفرار عنه والإحجام.
(18) علي بن الجهم – الديوان – ص 171.
(19) علي بن الجهم – الديوان – ص -172 173.
(20) عبد الرحمن رأفت الباشا – علي بن الجهم حياته وشعره- مطبعة شركة التمدن الصناعية – القاهرة – 1965م – ص 183.
(21) علي بن الجهم – الديوان – 184.
(22) انظر أبو فرج الأصفهاني - الأغاني – ج-10 ص 224.
(23) انظر الأصفهاني - الأغاني – ج-10 ص233.
(24) دجيل: نهر مخرجه من أعلى بغداد مقابل القادسية – انظر الأغاني –ج-10 ص 234.
(25) علي بن الجهم – الديوان – ص170.
(26) انظر تاريخ الأمم والملوك- لأبي جعفر الطبري- دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت - لبنان - ج-11 ص 86-87. وانظر- مروج الذهب ومعادن الجوهر- لأبي الحسن المسعودي - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد- ط-5 (1393هـ - 1973م)- دار الفكر بيروت – لبنان- المجلد -4 ص11. وانظر الأغاني- لأبي الفرج الأصفهاني- ج-10 ص 234.
(27) علي بن الجهم – الديوان - ص 154.

الإصـــدار الثّـــانـــي للمجـــمـــع:

كتاب هديّة الأريب لأصدق حبيب



كتابُ "**هديّة الأريب لأصدق حبيب**" حاشيةٌ دقيقة رائعة لكتاب "قَطْر النّدى وبلّ الصّدى" للعلاّمة النّحويّ ابن هشام الأنصاريّ رحمه الله تعالى. قيّضَ الباري جلّ شأنه للقطر المنهمر الشيخ العلاّمة محمد الطّاهر بن عاشور الجدّ فجادت قريحته بهذه الحاشية العطرة الأنيقة الغنيّة باللّطائف والفوائد، البديعة المتميّزة في بنائها ونسجها بَهاءَ عبارة، وإحكامَ أسلوب، وجزالةَ لفظ، وجودَةَ سَبْك، وروعةَ عرضٍ، وقوّة تحرير، وأسماها: "هديّة الأريب لأصدق حبيب"، وقد سخّر الله تعالى كذلكٍ الأستاذ الدّكتور زيد مبروك الخير الكاتب النّحرير والعلاّمة اللّغويّ الخبير فشمّر على سواعد الجدّ واستثار قريحة التّعبير، وجدَّ في تجلية مضمون الكتاب، فأبدع في بيان نصّ هذه الحاشية، وأوصل القارئ إلى لُبّ اللّباب.

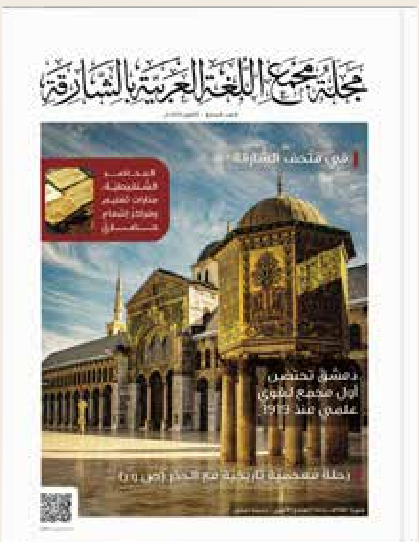
وتميّزَ تحقيقُه بوضوح العبارة، وإحكام الأسلوب، وانتقاء اللّفظ، وتقريب المعاني النّحويّة المبثوثة في الكتاب، والتّعريف بالعلماء الأعلام الذين ذكرهم المصنّفُ والمُحشّي كلاهما، واجتهد في شرح ألفاظ المتن والحاشية بما يزيل الإبهام، ويُقرّب الدّلالات إلى الأفهام، فأحسن وأجاد، وجوّدَ وأفاد، وجاء الكتابُ واضحًا ممحّصا، حافلاً بالفوائد، مُترعًا باللّطائف، مُفعمًا بحقائق النّحو والصّرف، حائزا قصب السّبق، بديعًا في فنّ التّحقيق والتّوثيق.

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

إصدارات مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة













المدينة الجامعية – الشارقة –الإمارات العربية المتحدة | مبنى مجمع اللغة العربية | الدور الأول
هاتف: 400 60 51 6 971+ | فاكس: 410 60 51 6 971+ | ص.ب: الشارقة: 1973
البريد الإلكتروني:info@alashj.ae | الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae